

حاشية أبي البركات
سيدي أحمد الدردير
على
قصة المعراج
للإمام العلامة نجم الدين الغيطي
تصنيف
سيدي أبي البركات أحمد بن محمد العدوي الدردير
تحقيق وتخريج وتعليق
دار الكتب العلمية
DKI

حاشية أبي البركات سيدي أحمد الدردير

على

قصة المعراج

للإمام العلامة نجم الدين الغيطي

المتوفى ٩٨٢ هـ

تصنيف

سيدي أبي البركات أحمد بن محمد العدوي الدردير

المتوفى ١٢٠١ هـ

تحقيق وتخريج وتعليق

أحمد محمد أحمد محمود



الكتاب : حاشية أبي البركات سيدي أحمد الدردير
على قصة المعراج

Title : ḤAŠIYAT ABĪ AL-BARAKĀT
SĪDĪ AḤMAD AD-DARDĪR
'ALĀ
QIṢṢAT AL-MI'RĀJ

التصنيف : سيرة نبوية

Classification: Prophetic Biography

المؤلف : نجم الدين الغيطي (ت 982 هـ)
وأبو البركات سيدي أحمد الدردير (ت 1201هـ)

Author : Najmuddin Al-Ghiti (D.982H.)
and: Abou Al-Barakat Sidi Ahmad Ad-Dardir (D.1201H.)

المحقق : أحمد محمد أحمد محمود

Editor : Ahmad Muhammed Ahmad Mahmoud

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

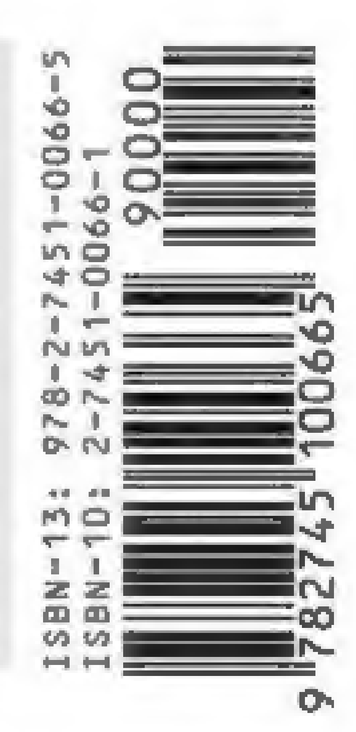
Pages	208	عدد الصفحات
Size	17x24 cm	قياس الصفحات
Year	2015 A.D - 1436 H.	سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		بلد الطباعة : لبنان
Edition : 1st		الطبعة : الأولى

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



Y

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

سبحان الله من أطلع في سماء الأزل شمس الحقيقة المحمديَّة، وأنار الوجود بإظهار بدره المُنير واصطفاه، وأينع في رِياض ربيع أوصافِه الملَكية أزاهير أفنان حضْرته، واجتباه ﷺ.

نحمدك اللهم يا من أسريت برسولك من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأريته من آياتك الكبرى ما لا يحصر بحد ولا استقصى، ومنحته مقام القرب الأسنى، فكان قاب قوسين أو أدنى.

والصلاة والسلام على المخصوص بالإسراء والمعراج وآله وصحبه الحائزين بمشاهدته غاية الفوز والابتهاج، ﷺ.

وبعد. . . هذا المعراج الكبير المعروف بـ«قصة المعراج» واشتهر أيضًا: بـ«الابتهاج بالكلام على الإسراء والمعراج» للشيخ العلامة اللوذعي الفهامة خاتمة الفضلاء المحققين الإمام شيخ الإسلام نجم الدين الغيطي - رحمه الله تعالى وأرضاه وجعل الجنة متقلبه ومثواه - فكتابه هذا لم يسبق بمثاله، ولم ينسج ناسج على منواله، فكم أودع فيه من غرر النفائس، وأبرز من حسان مخدرات العرائس، وأورد من حكم شريفة ونكات بديعة منيفة، فكان حقيقًا ذا التحريرات الفائقة الباهرة، والإشارات النورانية الزاهرة.

وقد قام بشرحه ونظم قلائد درره، وتطريز نفائس جواهره، العلامة المحرر شيخ الشيوخ في عصره سيدي أحمد الدردير العدوي الخلوتي- رضوان الله تعالى عليه- ونفعنا به وبعلومه.

هذا وقد قمت بالضبط، والتحقيق، والتخريج، وفصل المتن عن الشرح، والتقديم له.

وما هو إلا جهد المقل، ومحاولة الاقتراب من دخول الباب، وحصول بركة الأعتاب، وطمعًا في ورثة أُولي الألباب.

وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ هادي العباد، ولباب اللباب، وموصل الألباب لحضرة القدوس الوهاب.

وارد رباني ومعنى نوراني حول آية الإسراء

قال العلامة المحقق سيدي ابن البيطار ما نصه:

اعلم - رحمك الله - أنه ورد في الحديث الشريف: «**للقرآن ظهر وبطن وحدّ ومطلع**» فالمراد بالقرآن - بلسان الإشارة لا بلسان العبارة- حقيقة الإنسان، فظاهره صورته، وباطنه إطلاقه وكُليّته، وحدّه ما يتميز به عن غيره من أجناس العالم وأنواعه، ومطلعه كنزه المخفي الذي أحب أن يعرف بعد أن أتى عليه ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

وذات الله تعالى لا يطلق عليها أنها شيء، بل ينطمس بها جميع معاني الأسماء والصفات، إلا أن الله تعالى سمَّاها إنسانًا فتسمى في تلك الحضرة إنسانًا مع أنها لم تكن شيئًا مذكورًا بالأسماء والصفات، وإلى هذه الإنسانية الإشارة بالحديث الشريف الذي رواه ابن ماجه: «**كان الله ولم يكن شيء غيره**».

فحضرة الإنسانية ممحو بها كل شيء، والحين الذي أتى عليها من ذاتها لذاتها في ذاتها، وبهذه الحضرة لم تكن شيئًا مذكورًا، ومذكورًا اسم مفعول، أي: لم تكن شيئًا يقع عليه الذكر من غيره، بل ذكره عينه، فلذا قال في الحديث: «**كان الله ولم يكن شيء غيره**».

ولا يخفى أن الدهر هو الله، فالحين الذي أتى على الإنسان من ذات الله الدهرية الوجودية تجليه من ذاته لذاته، بلا غير وبلا اسم شيء، بل بلا اسم ذات أيضًا، وهذه الحضرة يسمونها بالعنقاء، أي: بلا اسم بلا مسمى معلومًا، فلا يقع هذا الاسم على شيء معلوم، والله في تلك الحضرة ليس بمعلوم بشيء، فلا

مسمى بهذا الاعتبار.

وإلى هذه الحضرة أشار العارف السمان بورده بقوله قدس سره: بسر من الطمس بالعماء، ولمَّا كانت النقطة المحمدية هي الواقع عليها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] تحقق باعتبار هذه المعاني معنى الإسراء بهذه الاعتبارات، وإلا فلا ساري ولا مسري إليه، بل تقلباته ﷺ منه إليه.

انظر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩] فهو الظاهر في المظاهر والأول والآخر، والمسجود له والساجد، والمشهود والشاهد، ولهذا السر منع أن يسجد أحد لصورته الخاصة الكريمة؛ لئلا يتقيد الساجد في العلم به في هذا المعنى الصوري، مع أنه مرجع قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥] فليس كمن أمرت الملائكة أن تسجد له ولا كمن قيل في حقه: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] فليس كل ساجد ومسجود إليه إلا صورة من صور نقطة وجود ذاته الجامعة التي هي القرآن العظيم.

ألا ترى إشارة الحق في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ﴾ [الإسراء: ٤٦] أي حقيقتك الجامعة بالذكر الذاتي في قرآن ذاتك الموصوف بأنه وحده بلا سوى ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾ [الإسراء: ٤٦]، وهو عدمهم وانطماسهم بوجود ذاتك الماحي لهم نفورًا من الكثرة التي لا حقيقة لها، الحاكم مشهدها باللهو عن الأحدية كما قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢] أي: أقبلتم عليها، فشاهدتم كل معنى إلهي مقبورًا في صورة خاصة، أي: شاهدتموه مقبورًا، أي: مقيدًا، فألهاكم تكاثر القيود عن إطلاق الحقيقة، فأشركتم في الوجود كل اسم بغيره مع أن وجود هذه الأسماء، واحد.

قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، فلذا كان الله وهو الاسم الجامع ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]؛ لأن ذلك محال، فالشرك به عدم، فلو كان موجودًا لغفره، أي: لستره، وأما الشرك فهو لبقية الأسماء دون الله، فالعدم يشركون المعطي بالمانع، والضار بالنافع، والأول بالآخر، والظاهر بالباطن، وذلك مرجع قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾

[يوسف:١٦] فلو عرفوا الله أنه عين كل شيء ما أشركوا؛ إذ ما أشركوا معه غيره، بل فأشركوا معه، بل ما أشركوا إلا بالله، فهو المشرك نفسه بنفسه مع نفسه بشريك هو عينه، وهو أول من أشرك صور التكاثر مع كنزيته المخفية، فقال: «**فأحببت أن أعرف**» فسرى الشرك في العالم، فجاء الرسول بالتوحيد ليعرفنا الوطن الأصلي، فقال: «**حب الوطن من الإيمان، قولوا لا إله إلا الله**» فأول من حجب نفسه عن نفسه بنفسه هو، ثم دعا نفسه إلى نفسه فعرج بالمجلى الكلي الكامل المحمدي بنزوله من مسجده الحرام الذي حرم السوى على ذاته إلى المسجد الأقصى، وذلك هو العالم الصوري الذي هو مظهر الاسم الآخر، ثم أحب أن يكرر الرجعة كما قال: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ [الملك:٣] ليمحو شرك التكاثر بأحديته.

ألا ترى أن الماحي اسم محمد ﷺ والنور اسمه، فأسرى به اسمه الباطن غيبًا من الاسم الآخر الشهادي الذي هو المسجد الحرام الذي حجب الأول بآخريته، التي محت بذاتها سائر المراتب؛ لأنها هي في الحقيقة نقطة البدء، فالأقصى هو الأول المسرى إليه، والحرام هو الآخر الساري، فلما حجب نفسه أولاً وباطنًا بنفسه آخرًا وظاهرًا أسري به غيبًا منه إليه﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا﴾ بحجاب نفسه عن نفسه بنفسه ﴿وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك:٤] أي: مكشوف، ولله در من قال:

أترحل عن حبيبك ثم تبكي ... عليه فما دعاك إلى الفراق

على أنه لا رحيل؛ لأن المدار على هذا الراحل؛ إذ هو بصورته ومعناه وجود الله الكامل من جهة جميع معاني الأسماء والاعتبارات، فكان الإسراء ليشاهد تفاصيل ذاته، كما قال: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ التي هي معاني أسمائه، ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: محمدًا ﷺ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ كلام ذاته، ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١] لمظاهر أسمائه وصفاته، ولمّا كان القرآن المحمدي أربع مراتب: ظهرًا وبطنًا وحدًّا ومطلعًا فظهره الصورة، وبطنه الحقيقة، وحدُّه الكثرة الفاصلة؛ لتمييز المعاني والمظاهر، ومطلعه النقطة الغيبية التي هي غيب الغيوب كلها كان الإسراء المحمدي أيضًا من أول إلى آخر، ومن آخر إلى أول، ومن باطن إلى

ظاهر، ومن ظاهر إلى باطن.

ومن وراء هذا الإسراء إسراء الذات بالذات في الذات للذات، فلهذا السر ابتداء الإسراء المحمدي بالتسبيح وهو تنزيهه ﷺ في هذا الإسراء المحمدي أن يرى سواه، وهذه نفحة وفائية وردت علينا من سر سيدي عليّ وفا رضوان الله وسلامه عليه حيث قال: ما رآه النبي ﷺ في إسرائه هو تفصيل آيات ذاته الجامعة، فشاهد حقائق جميع ما رآه منشقًا من سماء ذاته، فكل ما رآه فهو مرآته، فالأسماء أسمائه، والصفات صفاته، وكذا ورد في المعراج: فإذا أنا بموسى، أي: أنا الظاهر بتلك الصورة الموسوية وناطق بها، وقس الباقي على هذا المعنى. والله الموفق.

تنبيه رائق لمعنى فائق:

اعلم - رحمك الله - أن المعنى الإنساني هو الأصل في الوجود، ولذا ورد في الحديث: «**ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن**»[1] أي: باطن عبدي، فالمسمى بالأسماء كلها باطن الإنسان، فجميع ما ينزل من سماء باطنه من غيبه الباطن الأول، فلا ينزل إلا إلى ظاهر شهادته الخلقية التي هي الظاهر، فالعارف يرى نفسه مرآة العالم، أي: يرى معاني الأسماء والصفات في نفسه، وذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣]، أي: نريهم الأسماء في الأسماء، فنريهم المعطي في المانع، والضار في النافع وبالعكس، فيشهدون الجلال في الجمال والجمال في الجلال، وهو أن يكون كل اسم مرآة أخيه المقابل له في المعنى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

فبهذا الإصلاح كل واحد منهما يقول: أنا من أهوى ومن أهوى أنا، فمن هذا المشهد يقول جلال النار: أنا جمال الجنة، ويقول جمال الجنة: أنا جلال النار، وذلك مرجع قول آدم ﷺ لما تجلى حقه له ويداه مقبوضتان، فقال: «**يا آدم، اختر أيهما شئت، فقال: اختار يمين ربي وكلتا يدي إلى يمين مباركة**».

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢٣٤/ ٧.

ويكفي اللبيب هذه الإشارة؛ إذ تفصيل هذا المعنى دونه حز الرقاب؛ لأنه إفشاء سر الربوبية، وإفشاء ذلك كفر، ومن هذا السر ظهرت عين الكافور في الجنة؛ فافهم.

فهذا هو السير الآفاقي من جهة النزول، وله وجه آخر من العروج، وهو عروج الصور إلى المعاني، فيرى الصور أسماء إلهية فيعود الخلق حقًّا كما كان في الوجه الأول يعود الحق خلقًا، ولا يزل في المشهد الآفاقي ما بين مشاهدة نزول اللطائف إلى صور الكثائف، وعروج صور الكثائف إلى معاني اللطائف، وهذا السير الآفاقي وجه من وجوه الإسراء المحمدي، وهذه الحضرة حضرة الواحدية، وحضرة الجمع، ومنها يقول محمد ﷺ للمشركين: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥] وعن هذه الحضرة قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣] وهذا مشهد: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] وهذا أيضًا مشهد: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧] أي: كالدهان الصابغ، فإن كانت وردة الجمال فهي دهان الجلال، وصبغه بحقيقة الجمال، وإن كانت وردة الجلال، فالأمر بالعكس، وكذلك وردة المقدم دهان المؤخر، وصبغه وبالعكس، والأول والآخر كذلك، والظاهر والباطن كذلك، فوردة الربوبية هي دهان العبودية، وصبغها بنور الربوبية فتعود ظلمتها نورًا، والنور هو الله فيكون الأمر كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩] لأن الله ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فافهم.

وأما السير الأنفسي من وجوه الإسراء المحمدي، فهو أن يرى نفسه مرآة أسماء الله، فيرى جميع الأسماء المتجلية بصور الوجود في نفسه، فتكون نفسه مرآة الوجود بمقتضى حقيقة هذا الشهود، ولذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ [فصلت: ٥٣] أي: يتبين المرئي الذي هو آيات الله المنطبعة في أنفسهم التي هي مرآة ذلك المرئي أنه الحق المشاهد في نفس الخلق، فالخلق مرآة للحق وبقي من وجوه الإسراء المحمدي رؤية ذاته بذاته في ذاته لذاته بلا اعتبار من الاعتبارات، لا حقيَّة ولا خلقية، وإليه الإشارة بالشجرة المباركة الزيتونة ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ [النور: ٣٥] بالظهور فيظهر النور الذاتي لذات النور ﴿وَلَوْ لَمْ

تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ [النور: ٣٥] ولكن ما اقتضت الحكمة ذلك؛ لأن إضاءة الذات لا تكون إلا بمظهر الأسماء والصفات، وإلا فلا إضاءة، قال الشيخ الأكبر ﷺ بلسان هذه الحضرة التي لا ظهور فيها ولا بطون:

لو ظهرنا للشيء كان سوانا وسوانا ما تم أين الظهور

مع قوله أيضًا:

وليس تنال الذات من غير مظهر ولو هلك الإنسان من شدة الحرص

والحاصل أن هذا الوجه من الإسراء المحمدي هو إسراء ذاتي لا تحكم الأسماء والصفات عليه؛ إذ هو المرآة والرائي والمرئي بحكم ذاته لذاته في ذاته بلا افتقار للتقيد باسم أو صفة، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨] بل هو يملك المجير أن يجير ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾ [الملك: ٢٨] في ذاته فلم يكن إلا ذاته، ومن معي من صور الوجود أو رحمنا بظهور ذلك تفصيلاً ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الملك: ٢٨] القيد الصوري إلى تعميم الإطلاق الذاتي، ﴿قُلۡ﴾، أي: أنت﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ المجير برحمة الذات بلا قيود الأسماء والصفات ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؛ لأنه بهذا المعنى غيبنا المطلق الذي لا تدركه أبصار أسمائه المقيدة، وهو بإطلاقه يدرك الأبصار؛ إذ كل اسم إلهي بصر، ﴿وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾، أي: استندنا؛ لأن استناد الأسماء والصفات، إنما هو الحقيقة الذات، ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ﴾ عن ذاته ﴿مُّبِينٖ﴾ [الملك: ٣٠] وإنما كان مبينًا لأن من ضل عن ذاته إلا بذاته، فضلاً له حين ذاته، ولا بُدَّ أن ذاته تبين عن نفسها بنفسها، فيكون ضلالها عنها عليه هداها إليها، كما قال: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣] الذي حجبت به بضلالها عنها، فتهتدي إليها منها كما قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ [الإسراء: ١٥] ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩] فافهم ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢]، وقال أيضًا: ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [النجم: ٤٧] ولله در من قال:

ما بين ضال المنحنى وضلاله ضَلَّ المتيم واهتدى بضلاله

فالضال هو حقيقة محمد المضاف إلى منحنى الذات، والضلال هي

الأسماء والصفات. والمقام المحمدي الذي أشرنا إليه هو ما أخبر عنه الإمام الرباني بقوله: ظهر لي أمر السير الأنفسي بالنسبة إليه كالسير الآفاقي بالنسبة إلى السير الأنفسي، وذلك لأن السير الأنفسي أن تكون مرآة الوجود، والسير الذي ظهر له أن يكون الوجود مرآتك، ولذا كان ﷺ يقول: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ [النجم:١٧]. هنا ينبغي أن يطلب، والزيغ هو الميل، وفي هذا المقام لا زيغ عنك لغيرك ولا ميل، وإلى ذلك الإسراء الإشارة بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨] أي: بزعم الغيرية التي هي حنابتهم عن طهور ما وراء الحقيقة المحمدية ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة:٢٨]؛ لأنه عام فتح مكة الذات الذي يجبى إليه ثمرات كل شيء، فالنجس هو الشرك الغيري، وهو وهم محال.

ألا ترى أن طعامك ما دام قائمًا في ذاتك لا يقال في حقه نجس، فإذا خرج عنك وانفصل حكم عليه بنجاسة الغيرية؛ لأنه خرج عن حقيقة تلك الجمعية فلم يعطهم عام الفتح الأمان في ذلك الشرك، بل إما التوحيد وإما السيف حتى يقتلهم بالفناء عنهم، ويبقيهم به، قيل لرسول الله ﷺ عام الفتح: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة فقال: «**اقتلوه**»؛ لأنه لم يكن المسجد الحرام سواه فلا يقربوه ما داموا على الشرك، فلا يحمى منه سواه؛ لأنه يجير ولا يجار عليه، فالكعبة لا تجير عليه؛ فافهم.

واعلم - أيدك الله بروح القدس - أن كل اسم إلهي حكيم على مجلى من مجالي الظهور، فذلك المجلى هو عبده ما دام المجلي تحت حكمه، فقوله تعالى:

﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١] أي: عبد هويته الغيبية الذي ظاهره مجلاها، ولذلك أسرى به الاسم الإلهي هو ﴿لَيْلًا﴾ إشارة لغيبة الباطن على أن المجلى الظاهر عين ذلك الباطن، فإن اعتبرت حالة العروج من ظاهر الصورة الشهادية إلى الغيب الباطني.

قلت: المسجد الحرام هو ظاهر محمد الذي هو صورته الخلقية، والمسجد الأقصى باطنه الحقي الغيب.

وإن اعتبرت تنزل حقه الباطن لصورة الظاهر الذي هو خلقيته فيكون ذلك النزول عروجًا بالنسبة لحقيقته، فإن عروج الحق هو نزوله، وعروج الخلق صعوده، فعلى هذا يكون المسجد الحرام باطن محمد الحقّي، والمسجد الأقصى ظاهره الخلقي، فلا يزال الأمر من عروج إلى نزول ومن نزول إلى عروج فهو يعلم ما ينزل من سماء ذاته، وما يعرج من أرض صورتها إليها، ومن هنا يُفهم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، والذات من حيث هي نقطة دائرة قوساها: المسجد الحرام والمسجد الأقصى، فإذا دار الدور كان الحرام هو الأقصى، والأقصى هو الحرام، وهكذا دائمًا من أول إلى آخر ومن ظاهر إلى باطن وبالعكس.

والذات على ما هي عليه فلا أول ولا آخر ولا ظاهر ولا باطن، فهي القطب الذي يدور عليها رحى الوجود، ولذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] أي: حول هذا العبد القطبي الذي له وجه المسجد الحرام ووجه المسجد الأقصى.

الأسماء الإلهية فلك يدور عليه، وهو قطب ذلك الفلك، وهذا الدوران ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] عروجا ونزولاً، أي: من صور معاني أسمائنا ليتجلى بها بحسب الحال والوقت المناسب.

وإن كانت الأسماء تحت حكمه فلكل منها مناسبة بشأن من الشؤون الإلهية، ولذلك قيل له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] أشار تعالى إلى علمه بالقرآن من رواء علم جبريل، وقوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] أي: عنك في مرتبة الكنزية المخفية، فالغفلة هنا بطون الأسماء والصفات في كنز الذات، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ﴾ ، أي: إن عبد هويته وهو محمد ﷺ هو السميع كلام ذاته يسمع هو عين هوية الله كما قال: «**كنت سمعه**»، والبصير كذلك كما قال: «**كنت بصره**».

فبالتجلي الأنفسي يقال له: ها أنت وربك، وبالتجلي الذاتي يقال له: ها أنت وهو الذي ظهر للإمام الرباني ﷺ فطهر بشراب التوحيد عن نجس الشرك، فارتفع حدثه الأصغر وحدثه الأكبر، فمن ارتفع حدثه الأصغر شاهد أن

فاعل الأشياء هو الله، وهو المحرِّك المسكِّن، والمخلوقات آلة يفعل الله بها ما يشاء، كما قال: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، فالله المعذب وأيديهم آلة التعذيب، ومن ارتفع حدثه الأكبر هو من توجه عليه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٩] فلم يتغير بأنه الطهور عن أصله بنجس شرك السوى، قال ﷺ: «**خلق الله الماء طهورًا**».

وهو بلسان الإشارة ماء التوحيد، ثم قال ﷺ: «**لا ينجسه شيء ما لم يتغير**» أي: ما لم يتغير هذا الماء التوحيدي بنجس الشرك، وحيث إن حضرة التوحيد هي حضرة السراج المنير ﷺ لذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨] والمسجد الحرام فيهم ولكنهم لا يشعرون.

وقد أفادنا رسول الله ﷺ الطهارة من هذا الشرك بما بلغه من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فله جميع الأمور، والأصل في هذا المعنى من تجلى عليه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فأمر محمد ﷺ بأوله وآخره وظاهره وباطنه لله تعالى، فهو مجلي قدم الله، فلا حدث له لا أصغر ولا أكبر، فصورته عين معناه؛ لأن الله محا بشريته الحادثة، وأثبت نفسه قائمًا في بشريته، فلذا كان يمشي في الشمس ولا يظهر له ظل؛ لأنه نور محض، بل هو السراج المنير. فبشريته ليس كمثلها شيء، ولذلك تنام عيناه ولا ينام قلبه، وعرقه أطيب من المسك الأذفر وبوله وجميع ما يخرج من بطنه طاهر، ودمه طاهر، فيجوز شرب جميع فضلاته، وقد فعل أصحابه ذلك ولم ينكر عليهم، بل كانوا يستشفون بذلك من الأمراض.

ألا ترى أن ريقه لما مجَّ منه في بئر ملح، عذب مائها، فقول الشاعر في محبوبته:

ولو تفلت في البحر والبحر مالح لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

من قبيل الغلو، وأما كمالاته ﷺ فلا غلو فيها.

وإذا كان الله تعالى سماه باسمه صراحة بنص القرآن العظيم - والله تعالى لا يكذب - فليس وراء عبادات قربه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا

﴿يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] ودليل تحققه بحقيقة الألوهية أنه تعالى حمل جسمه على براق الغيب، ومشت في ركابه الأفلاك خدمة له بلا ريب، وحكم في الأفلاك العلوية فانشق بأمره القمر، وردت لأمره الشمس بعد المغيب بمشاهدة من حضر، وجاوز بجسمه الترابي السماوات والعرش وعوالم العقل والقلم واللوح والنفس، وترقى في معاني حقائق القدس، فلما استوى على عرش الذات وكانت في قبضة يديه جميع الأسماء والصفات، ولم يمكن تجاوز مقام الذات قيل له منه: قف إن ربك يصلي؛ يعني: عليك بجميع الأسماء والصفات، فكان قبلة توجه الله إليه ﷺ بكافة شؤونه عليه، ولما سقاني شرابه الطهور وأدار لي خمرة قدسه - الذي هو كنه النور - سكرت من ثغره لا من مُدامته، ومال بالنوم عن عيني تمايله، فمن سكر من شرابه خاض بحرًا وقف الأنبياء بساحله، والبحر هو حقيقة محمد ﷺ ومن سكر من ذاته كان عين البحر الذي يخاض، حيث تجلى الساقي فيه، فكان مجلاه الذي لذاته يصطفيه ومن در القائل:

قد أسكر القوم دور كأس وكان سكري من المدير

سر هذا المشهد ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

سؤال: لعلك تقول: عُلم من كلامك أن محمدًا ﷺ هو القلب الذاتي الذي يدور عليه فلك الأسماء والصفات، كما يعلم من إشارة الحديث: «**قلب القرآن يس**» وهو ﷺ معنى كلمة يس؛ لأنها اسمه، وهو مدلولها، فالأولية والآخرية والظاهرية والباطنية تدور عليه، فما تصنع بالحديث الشريف القدسي الذي ورد عنه عن الله تعالى أن الله يقول: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**» وكم من ذاكر لله في ملأ النبي ﷺ وأصحابه، فأخبر الله أنه يذكره في ملأ خير من ذلك، الملأ، وهو الملأ الأعلى، فهذا الحديث القدسي في بادئ الرأي دليل للمعتزلة في أن جبريل عليه السلام خير من محمد ﷺ.

قلت: إن محمدًا ﷺ له روحية قدسية نورية، بل هي منيرة لسائر الأرواح الوجودية، كما قال تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، **وهذه السراجية**

المنيرة هي كنز الله المخفي، الذي أحب أن يعرف، ومن هذا الكنز ظهر جبريل، ومن هو أفضل منه من الأرواح العالمين، فالأرواح كلها مجالي روحيته، والأشباح كلها مظاهر حقيقته، فقوله في الحديث: «**من ذكرني في نفسه**» أي: في نفسه المقيَّدة بصورته المعينة التي هي مظهر نفسي المطلقة، ذكرته في نفسي المطلقة، وهي السراج المنير الذي هو الحقيقة التي أنارت الوجود وأظهرته. وحينئذ إذا ذكره الله في هذه، نفسي المطلقة الجامعة لنفسه المقيّدة، يعلم وطنه الأصلي، فيكون عين الحقيقة المحمدية، ومن ذكرني في ملأ فيهم صورة محمد ﷺ الخاصة المقيّدة به المتميزة عن غيرها من صور المخلوقات ذكرته في ملأ خير منهم، وهو الملأ الذي فيهم روحية محمد ﷺ التي منها جبريل وغيره من الأرواح المخلوقة من نفس محمد ﷺ.

ألا ترى الحديث الشريف: «**أول ما خلق الله روح نبيك يا جابر**» **فهذا الحديث في باطن الأمر فيه تفضيل بعض محمد ﷺ على بعض؛** لأن جبريل مظهر عقله، وإسرافيل مظهر روحه، فيحيي ويميت بنفخة واحدة، وعزرائيل مظهر وهمه، ففيه من القوة أن يجذب إليه سائر الأرواح كلمح البصر، ومحمد ﷺ، هو جميع ذلك، وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد، فإن قلت فما دليلك على هذا المعنى الذي ذكرته؟ أقول: لي دليلان يدركهما العقل، ولي دليل ثالث هو من وراء العقول لا يدركه إلا قوة الإيمان التي لا أقوى منها في الوجود.

فالدليل الأول: إن روحه أول الأرواح وأصلها، ومنها استنارت جميع الأرواح، فمن فضَّل روحًا على روحه فقد فضَّل روحه على نفسها.

والدليل الثاني: ما رواه في كتاب «المصابيح» بالسند إلى أبي سعيد الخدري إلى النبي ﷺ أنه قال: «**ما من نبي إلا وله وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض، فأما وزيراي من أهل السماء فجبريل وميكائيل، وأما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر**».

وأما علي عليه السلام فقد قال له: «**أنت مني وأنا منك**».

فحيث جعل جبريل وميكائيل وزيريه في العالم السماوي، فهو سلطان

السماوات، وحيث جعل وزيريه في العالم الأرضي أبو بكر وعمر، فهو سلطان الأرضين، فليت شعري كيف يكون جبريل أو غيره خيرًا منه، وجبريل وزيره؟! وهل يكون وزيره خيرًا منه وهو السلطان على جبريل وغيره؟! أهذا يقال فما أعظم جهل المعتزلة في هده المسألة، فكيف لو قلنا لهم هو مجلي الألوهية التي قال عنها رب السماء والأرض: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

بل إني أقول: لا أقدر أن أُفضّل جبريل أو ميكائيل أو واحدًا غير محمد ﷺ على أبي تراب علي بن أبي طالب لقوله ﷺ له: «**أنت مني وأنا منك**»، فمن فضّل أحدًا عنه من في ظهره ذرية محمد ﷺ فقد فضّله على النبي ﷺ، وهذا أعظم ما يكون في سوء الأدب، ولا سيما وقد قال له: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى**».

وهل كان أحد أقرب منزلة لموسى من هارون عليهما الصلاة والسلام.

وأما الدليل الثالث: فلا يقبله إلا من أخذ بظاهر الإيمان بلا تأويل، فكان مع النبي بنفس النبي لا بنفسه، وذلك قوله ﷺ: «**لي وقت مع الله لا يسعني فيه غير ربي**»، فأين الملأ الأعلى عند ذلك والملأ الأسفل، فقد انطوى فيه الجميع.

ألا ترى قوله ﷺ: «**لواء الحمد بيدي**»، فهو مجلي الله الكامل في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وصح عنه ﷺ أنه قال: «**الحمد لله تملأ الميزان**».

فإن فهمت فقد امتلأ ميزانك، ولكن ينبغي أن تفهم كفتي ميزانك ما هما وكيف ملأتهما الحمد لله؟ وكيف لواء الحمد بيد محمد ﷺ؟ وكيف يحمده الأولون والآخرون؟ فإن فهمت رحمك الله، فلسان حالك يقول:

تركنا البحار الزاخرات وراءنا   فلم يعرف الأقوام أين توجهنا

فعليك بمحمد ﷺ فاستمسك به ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فلا نفس لك، بل النفس نفسه، فاشتراها منك لطفًا منه، وعاملك بدعواك فسلمها إليه، إمّا بأن تَرد الأمانة إلى أهلها، وإما بهذا الشراء الإيماني،

وحينئذ تشرب شرابه القديم، وتدخل بسلام آمنًا جنات النعيم، فينشد لسانك الطاهر عما انطويت عليه من السرائر.

تَغَطَّيتُ مِن دَهري بِظِلِّ جَناحِهِ ... فَعَيني تَرى دَهري وَلَيسَ يَراني

فَلَو تَسأَلِ الأَيّامَ ما اسمي لَما دَرَت ... وَأَينَ مَكاني ما عَرَفنَ مَكاني

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] والحمد لله رب العالمين. **انتهى المراد نقله من كشف الواردات الإلهية.**

المحقق

* * *

ترجمة المصنف

هو الإمام المحدث المسند الفهامة الإمام العلامة شيخ الإسلام: محمد بن أحمد بن علي بن أبي بكر، صاحب كتاب المعراج، نجم الدين الغيطي الإسكندري، ثم المصري الشافعي.

والغيطي نسبة إلى غيطة العدة بمصر؛ لأنه كان يسكن بها.

ولد في أثناء العشر الأول من القرن العاشر كان رفيقًا لوالدي على والده، وعلى القاضي زكريا قرأ عليه البخاري كاملاً، وسمع عليه جميع «صحيح» مسلم. وقرأ عليه «سنن» أبي داود إلا يسيرًا من آخرها، ومات قبل إكماله. وقرأ عليه شيئاً من القرآن العظيم جمعًا للسبعة إلى قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] ولبس منه خرقة التصوف، وسمع على الشيخ عبد الحق السنباطي «سنن» ابن ماجه كاملاً، و«الموطأ» وقرأ عليه مجالس عديدة من أوائل «سنن» أبي داود، والترمذي، وقرأ عليه من «شرح المنهاج» للمحلي، إلى باب شروط الصلاة بحق أخذه له عن مؤلفه سماعًا عليه لكتاب البغاة منه، وقرأ عليه من «شرح التصوف» للتفتازاني، وسمع عليه بحق أخذه له عن التقي الحصكفي عن عالم هراة من الشمس الدين الحاجري عن مؤلفه، وسمع عليه دروسًا من التفسير والشاطبية، وألفية ابن مالك، وأذن له بالإفتاء والتدريس، وأخذ عنه النحو عن الشمني بسنده، وقرأ وسمع غالب المنهاج تقسيمًا على السيد كمال الدين بن حمزة الشامي لما قدم عليهم مصر في سنة خمس وعشرين وتسعمائة. وقرأ على الكمال الطويل كثيرًا منه جزء في فضائل ليلة القدر للؤلؤي العراقي قراءة عليه بسماعه له عن الشرف المناوي عن مؤلفه، وأخذ عنه «ألفية» العراقي، وأجازه بالتدريس، والإفادة والإفتاء، وسمع على الشيخ أمين الدين بن النجار جميع «الموطأ» رواية يحيى بن يحيى، وأخذ عن البدر المشهدي كثيرًا، وسمع عليه «الموطأ» رواية أبي كاملاً، وقطعة من «مسند» الطيالسي، وأخذ عنه شرح النخبة، ومجالس من ألفية الحديث، وقرأ جميع البخاري على أبي السعودي

أحمد ابن العلامة عز الدين السنباطي، وأخذ عن الشمس الدلجي القرآن العظيم، وغيره، وأخذ التفسير والحديث، والفقه عن الشيخ أبي الحسن البكري، وذكر الشعراوي أنه أفتى ودرس في حياة مشايخه بإذنهم، وألقى الله محبته في قلوب الخلائق، فلا يكرهه إلا مجرم أو منافق، وانتهت إليه الرئاسة في علم الحديث، والتفسير، والتصوف، ولم يزل آمرًا بالمعروف ناهيا عن المنكر يواجه بذلك الأمراء، والأكابر، لا يخاف في الله لومة لائم، ثم قال: ولما وقعت فتنة أخذ وظائف الناس بغير حق من بعض المفتنين انتدب لها، وواجه الباشا والأمراء بكلام لا يقدر أحد من أقرانه أن يتلفظ به، وكان خمود الفتنة على يديه، ووصل خبره إلى الروم، والحجاز، والشام، وشكره المسلمون على ذلك، قال: وتولى مشيخة الصلاحية بجوار الإمام الشافعي، ومشيخة الخانقاه، والسرياقوسة، وهما من أجل وظائف مشايخ الإسلام من غير سؤال منه وأجمع أهل مصر على جلالته.

قال: وما رأيته قط يغتاب أحدًا، وآذاه بعض الناس أشد الأذى فلم يقابله بكلمة واحدة فازداد بذلك هيبة، ومحبة في قلوب الناس، وازداد عدوه مقتًا.

قال: وما رأيت أحدًا من أولياء الله تعالى من مصر إلا يحبه، ويجله، لا سيما الشيخ نور الدين الشوني؛ لأن والده كان من أجل أصحاب الشيخ نور الدين، وذكره شيخنا القاضي محب الدين الحنفي في رحلته إلى مصر فقال: وأما **حافظ العصر وحيد دهره**، ومحدث مصره الرحلة الإمام، والعمدة الهمام، الشيخ نجم الدين الغيطي، فإنه محدث هذه الديار على الإطلاق، جامع للكمالات الجميلة، ومحاسن الأخلاق، حاز أنواع الفضائل والعلوم، واحتوى على بدائع المنثور، والمنظوم، إذا تكلم في الحديث بلفظه الجري، أقر كل مسلم بأنه البخاري، أجمعت على صدارته في علم الحديث علماء البلاد، واتفقت على ترجيحه بعلو الإسناد، ووقفت له على مؤلف سماه: «القول القويم، في إقطاع تميم».

توفي في سنة ثلاث أو أربع وثمانين وتسعمائة رحمه الله تعالى.

وما في «الدرة» من أنه مات سنة ٩٦٨ هـ غلط. وفي الرسالة المستطرفة أن وفاته كانت سنة ٩٨١ هـ.

وقد قال سيدنا الكتاني: هو الإمام حافظ الديار المصرية ومسندها نجم الدين محمد بن أحمد الغيطي بفتح الغين المعجمة المصري الشافعي المتوفى سنة ٩٨٢ هـ، كما رمز بذلك من قال:

قَضى حَافظ العَصْر نَجْم الهُدى	**وَنَالَ الرِّضَا مِن غَفُورٍ رَحِيمِ**
وَقَدْ سَاء كُلَّ الورَى فَقْدُه	**وَقَدْ حَل فِي مصْر فَقْد عَظِيْم**
وَمَن سَعده جَاءَ تَارِيخه	**إِمَام الحَدِيْث مَع أَهْلِ النّعِيم**

روى عن القاضي زكرياء والشرف عبد الحق بن محمد السنباطي، وكمال الدين بن محمد والكمال القادري، والأمين ابن النجار، والبدر المشهدي، والشمس الدلجي، والشمس التتائي وأبي الحسن الشاذلي المالكي، والشهاب أحمد الفتوحي الحنبلي، ومحيي الدين عبد القادر بن جماعة المقدسي. وغيرهم من مشايخه، وجل هؤلاء يروي عن ابن حجر، والعيني والسيوطي والسخاوي وغيرهم.

هذا ما لخصته من مشيخته، وهي في نحو العشر كراريس، وقفت عليها بمكتبة الوفائيين بمصر، عليها خط الحافظ مرتضى الزبيدي، وفي «تاج العروس» أنها تتضمن سبعًا وعشرين شيخًا.

قلت: وقد كنت ابتدأت نسخها فلم تتم، وأفاد صاحبنا الشيخ أحمد العطار في حاشيته على «الأمم» أن مشيخة النجم الغيطي هذه إجازة أرسلها إلى بعض وزراء الحضرة الفاسية. قلت: ولم أجد هذا في أول النسخة التي وقعت بيدي منها؛ إذ فيها: «وبعد فلما تفضل الله علي ووفقني لطلب الحديث، والأخذ عن رواته ومسنديه في القديم والحديث، رأيت أن أقتفي سنن أهل الحديث قبلي، بجمع أسانيد الكتب والأجزاء التي وقعت لي، فأثبت في هذه الفهرسة ما رويته كلا أو بعضًا بالقراءة أو السماع، ولم أثبت من الرواية بالإجازة إلا ما يحتاج إليه لأجل اتصال السند وعدم الانقطاع، وقصدت بذلك الاندراج في زمن المحدثين، وأن انتظم في سلك رواة أحاديث الصادق الأمين؛ لأكون بسبب ذلك من الناجين»... إلخ افتتحها بذكر الحديث المسلسل بالأولية، ثم بالحديث المسلسل بسورة الصف..إلخ... وممن أخذ

عن الغيطي من المغاربة الفاسيين بالإجازة مكاتبة:

أبو القاسم محمد بن إبراهيم الدكالي، وعبد الوهاب بن محمد الزقاق، ومحمد بن عبد الرحمن ابن جلال التلمساني، وأبو القاسم بن عبد الرحمن الحميدي، وأبو عبد الله محمد بن القاسم الشهير بابن القاضي، ويحيى السراج، وأحمد بن محمد بن عيسى الماواسي، وأحمد بن علي المنجور، وعبد الواحد الحميدي، وأحمد الزموري، والقصار، وأحمد الدوعي، وغيرهم من الأعلام.

وممن أخذ عنه شفاهًا من أعلام فاس:

الشهاب أحمد ابن القاضي وغيره، وصف صاحب «المطمح»، والشيخ عبد الله الشرقاوي في «شرح التجريد» المترجم: بـ «خاتمة الحفاظ والمحدثين بالديار المصرية».

وقال عنه الحافظ أبو الفيض الزبيدي في «مستخرجه على مسلسلات ابن عقيلة»: كان يوصف بالحفظ والمعرفة وكثرة الشيوخ.

أروي مشيخته عن نصر الله الخطيب، عن عبد الله التلي المعمر عن العارف النابلسي عن النجم العزي عن الشيخ محمود بن محمد البيلوني عنه، مكاتبة من مصر لحلب. وهذا أعلى ما يوجد الآن. وأرويها أيضًا عن السكري عن الكزبري، عن عمر بن عقيل عن العجيمي، عن الحافظ البابلي وعبد السلام بن إبراهيم اللقاني كلاهما عن سالم السنهوري عنه. ح: وبأسانيدنا إلى عبد الباقي الحنبلي عن أحمد البقاعي عنه. وبأسايدنا إلى أبي سالم العياشي عن عبد الجواد الطريني عن يس الحمصي عن الغيطي. ح: وبأسانيدنا إلى القصار والمنجور، كلاهما عن الغيطي مكاتبة.

من مصنفاته:

- الأجوبة المفيدة عن الأسئلة العديدة. وهي كثيرة منها: فيمن تصدى للطريق بغير علم وجواب له في الأقطاب والأوتاد. [بحوزتنا نسخة منها] يسر الله تحقيقها.
- بهجة السامعين والناظرين بمولد سيد الأولين والآخرين.

- القول القويم في أقطاع تميم.
- الابتهاج بالكلام على الإسراء والمعراج.
- مسلسلات النجم الغيطي.
- الأربعون حديثًا في تارك الصلاة ومانع الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوصية بالجار. [تحت قيد التحقيق].

انظر في الترجمة:

- شذرات الذهب (وفيات ٩٨٤) ٨: ٤٠٦.
- درة الحجال رقم: ٧٥٢.
- خطط مبارك ٨: ٢٦.
- معجم سركيس: ١٤٢٢.
- الأعلام للزركلي ٦: ٢٣٤.
- التاريخ لبروكلمان ٢: ٣٣٨، وتكملته ٢: ٤٦٧.
- الرسالة المستطرفة: ٢٠٠.
- فهرس الفهارس (٢/ ٨٨٨).
- إيضاح المكنون (١/ ٢٩، ٢٠١، (٢/ ٢٥١، ٢٦١).

ترجمة الشارح

هو سيدي أحمد بن محمد بن أحمد العدوي، أبو البركات الشهير بالدردير، المالكي الخلوتي. ولد في بني عدي بأسيوط صعيد مصر، وتعلم بالأزهر.

وتولى مشيخة الطريقة الخلوتية، والافتاء بمصر.

وكان من كبار علماء الأزهر، فقاد ثورة لاسترداد الحقوق المغتصبة، وما إن علم «إبراهيم بك» - وكان شريك مراد في حكم البلاد - حتى خشي من استفحال الثورة، فأرسل إلى الدردير يسترضيه ويعتذر إليه مما صنع زميله، ويخبره أنه ملتزم بردّ ما نهب أو دَفْع قيمته.

من تصانيفه:

- أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك.
- فتح القدير في أحاديث البشير النذير.
- تحفة الإخوان في آداب أهل العرفان.
- منظومة الخريدة البهية في التوحيد.
- رسالة في متشابهات القرآن.
- المولد الشريف.
- مشكاة الأسرار شرح هجير سيدي علي وفا قدس سره.
- الشرح الكبير في الفقه المالكي.
- الشرح الصغير في الفقه المالكي.
- الصلوات والمسبعات (بتحقيقنا مع شرح الجنيدي).
- وتوفي الشيخ بالقاهرة في ٦ ربيع الأول رضوان الله عليه سنة ١٢٠١ هـ.

وانظر: حلية البشر للبيطار ١: ١٧٧ - ١٨٠، الأعلام للزركلي (١/ ٢٤٤)، معجم المؤلفين (٢/ ٦٧)، المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين (١/ ٤٢).

شرح قصة المعراج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي رفع قدر نبينا سيدنا ومولانا محمد في الدنيا وفي الآخرة، وأسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فأعظم بذلك فخرًا، وقدّمه جبريل فصلى بالأنبياء والمرسلين؛ ليعلم به أنه الإمام الأعظم، وأنه بذلك المقام أحرى، ثم رقى إلى السماوات العلا إلى سدرة المنتهى فظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام ورأى من آيات ربه الكبرى، وتجلى له وخاطبه وثبت فؤاده وأعطاه سؤله وأعظم له بذلك أجرًا، فسبحانه من إله نزّه نفسه بنفسه في مقام الأنباء عن الإسراء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تتوالى علينا إمداداتها تترى، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله الذي بعثه رحمة للعالمين وكنزًا لهم وذخرًا، وعلى آله وصحبه وتابعيهم خصوصًا وارثيه الذين أشاد الله تعالى لهم في الخافقين ذكرًا.

أمّا بعد . . . فقال الله تعالى في كتابه المبين وهو أصدق القائلين:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ وسنتكلم - إن شاء الله تعالى - على بعض فوائد هذه الآية الكريمة، وعلى بعض فوائد آيات من أوّل سورة النجم، ثم نورد حديث قصة الإسراء والمعراج، ونتكلم على بعض فوائد ذلك - إن شاء الله تعالى - مستمدًا من الله تعالى المعونة والهداية والكفاية والرعاية.

فنقول: سبب نزولها كما قاله الإمام أبو حيان: إن النبي ﷺ لمّا ذكر الإسراء

به كذّبوه فأنزلها الله تعالى، ووجه اتصال هذه السورة بما قبلها ومناسبتها لها إنه تعالى لمّا أمره ﷺ بالصبر، ونهاه عن الحزن عليهم، وأن يضيق صدره من مكرهم، وكان من مكرهم نسبته إلى الكذب والسحر والشعر... وغير ذلك مما رموه به، أعقب الله تعالى ذلك بشرفه وفضله واحتفائه وعلو منزلته عنده بذكر الإسراء في أوّل هذه السورة، وأيضًا لمّا أمره بالصبر في آخر السورة المتقدمة بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

والصبر: هو التحمل للمكاره، والتحمل من جملة ما يؤدي إلى التجمل، ومنه ما ذكره في أوّل هذه السورة.

وقد روى البخاري عن ابن مسعود أنه قال في سورة بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: هن من العِتاق الأول، وهن من تلادي، والعِتاق - بكسر العين المهملة - جمع عتيق، والعرب تجعل كل شيء بلغ الغاية في الجودة عتيقًا، والأُوَل - بضم الهمزة وفتح الواو المخففة - والأولية باعتبار حفظها.

أو باعتبار نزولها؛ لأنها مكّيات.

وقوله: (من تِلادي) بكسر التاء الفوقية، وتخفيف اللام، وبعد الألف دال مهملة؛ أي: مما حفظته قديمًا، وهو ضد الطارق، ومراده: إن لهن فضلاً باعتبار ما تقدم، وما تضمنه مفتتح كل منها من أمر غريب وقع في العالم خارق للعادة، وهو الإسراء، وقصة أصحاب الكهف، وقصة مريم، وهذا وجه في ترتيبها وهو اشتراكها في قدم النزول، وكونها مكّيات، وكلها مشتملة على القصص.

وروى الإمام أحمد عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ في كل ليلة: بني إسرائيل والزمر.

والحكمة في افتتاح هذه السورة بالتسبيح - كما قاله في زاد المسير - وجهان:

أحدهما: أن العرب تسبح عند الأمر العجيب، فكأن الله سبحانه وتعالى عجب خلقه بما أسدى إلى رسوله من الإسراء به.

الثاني: أن يكون خرج مخرج الرد عليهم؛ لأنه لما حدّثهم عن الإسراء كذّبوه فيكون المعنى: تنزه الله تعالى أن يتخذ رسولاً كذّابًا.

فإن قلت: ما الحكمة في افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح والكهف بالتحميد؟

أجيب: بأن التسبيح حيث جاء قُدِّم على التحميد نحو: فسبّح بحمد ربك، سحان الله والحمد لله؛ لأن التسبيح هو التنزيه، والحمد هو الثناء، فالأوّل: من باب التحلية، والثاني: من باب التحلية، والتخلية مقدمة على التحلية.

وأجيب أيضًا: بأن سورة سبحان لما اشتملت على الإسراء وكذّب المشركون به النبي ﷺ وتكذيبه تكذيب لله تعالى، أتى بسبحان؛ لتنزيه الله ﷻ عمّا لا يليق به، وينسب إليه من الكذب.

وسورة الكهف ما نزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف، وتأخر الوحي، نزلت مبينة أن الله تعالى لم يقطع نعمته عن نبيه ولا عن المؤمنين، بل أتم عليهم النعمة بإنزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة.

وأمّا سبحان: فهو اسم بمعنى التسبيح، الذي هو التنزيه، فهو اسم واقع موقع المصدر، ولا يكاد يستعمل إلا مضافًا، وقد يستعمل علمًا فيقطع عن الإضافة، ويمنع من الصرف، وانتصابه بفعل مضمر؛ أي: أسبح الله سبحان، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسدّ مسده، ودلّ على التنزيه البليغ؛ لأن في حذف العامل وإقامته مقامه الدلالة على أن المقصود بالذات هو المصدر، والفعل تابع، فيفيد الإخبار بسرعة وجود التنزيه.

وإذا قلنا بأنه علم للتسبيح فالعلم على نوعين: علم شخصي وعلم جنسي، ثم إنه يكون تارة للعين، وتارة للمعنى، فهذا من العلم الجنسي الذي يكون للمعنى.

فإن قلت: لفظ سبحان واجب الإضافة فكيف الجمع بين العلمية والإضافة؟

أجيب: بأنه ينكر ثم يضاف، كما قال الشاعر:

علا زيدنا يوم النقا رأس زيدكم بأبيض ماضي الشفرتين يماني

والتسبيح مما استأثر الله به كما قال بعضهم: فبدأ بالمصدر؛ أي أن بالاسم

الموضوع موضعه في بني إسرائيل؛ لأن المصدر الأصل، ثم الماضي في «الحديد» و«الحشر» و«الصف»؛ لأنه أسبق الزمانين، ثم بالمضارع في «الجمعة» و«التغابن»، ثم بالأمر في «الأعلى» استيعابًا لهذه الكلمة من جميع جهاتها. فهو ذكر يعظم الله تعالى به مختص به لا يصلح لغيره، ولا يستعمل إلا فيه، وأمّا قول الشاعر:

سبحان من علقمة الفاخر

فعلى سبيل الشذوذ؛ أي العجب من علقمة؛ إذ يفخر، والعرب تقول: سبحان من كذا إذا تعجبت منه.

قال الراغب: وقول الشاعر: سبحان من علقمة الفاخر، تقديره: سبحان علقمة على التهكم، فزاد فيه من رد إلى أصله.

وقيل: أراد سبحان الله من أجل علقمة، فحذف المضاف إليه. انتهى.

فعلى الثاني: لا شذوذ فيه؛ لأنه ما استعمل في غير الله؛ لأنه مضاف إليه، وقد حذف المضاف إليه، وهو مراد للعلم به، وأبقى المضاف على حاله مراعاة لأغلب أحواله؛ أعني: التجرد عن التنوين، وعلى ذلك لا شاهد فيه على العلمية؛ لأنه مضاف.

وفي الوجه الأوّل نظر؛ لأن من لا تراد في الإثبات، وعلقمة صحابي قدم على رسول الله ﷺ وبايع وهو شيخ، واستعمله عمر رضي الله عنه على حوران ومات بها.

وفي «الاستيعاب»: علقمة بن علاثة الكلابي العامري من المؤلفة قلوبهم، كان سيدًا في قومه حليمًا عاقلاً ولم يكن فيه ذلك الكرم.

وأمّا معناه: فقد روى الحاكم أن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى سبحان الله فقال: «**تَنْزِيهُ اللهِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ**»[1].

وروى ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه قال: سبحان الله كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها، وأحب أن تقال له.

وقال الكرماني وغيره: اعلم أنه تعالى له صفات سلبية مثل: لا شريك له

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩ / ٣٥١)، وفي الأوسط (١٥/ ١٢).

ولا ضد ولا ندّ، وكذا سائر التنزيهات، وتُسمّى بصفات الجلال، وله تعالى صفات وجودية كالعلم والقدرة، وتُسمّى بصفات الإكرام، فالتسبيح إشارة إلى الأولى، وأصل ذلك الاقتباس من قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، وحاصل المعنى: تنزيه الحق تعالى نفسه المقدسة عن جميع شوائب النقص، وتبعيده عن السوء في الذات والصفات والأفعال والأسماء والأحكام، فيلزم نفي الشريك والصاحبة والولد وجميع الرذائل.

من سبح في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد أي: ما أبعد الذي له هذه القدرة عن جميع النقائص، وصدّر به هنا التنزيه فاعل ما بعده عن النقائص، أو لتنزيهه تعالى عن العجز عن إسرائه بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

وقد ورد في فضل التسبيح ما رواه مسلم وغيره عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى الله سبحانه وتعالى إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ**»[1] وفي رواية الترمذي: «**سُبْحَانَ رَبِّي وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ رَبِّي وَبِحَمْدِهِ**»[2] وفي رواية لمسلم: «**أَنَّ رَسُولَ الله سُئِلَ أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ قَالَ: مَا اصْطَفَى الله لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ**»[3]. وهذا محمول على كلام الآدميين، وإلا فالقرآن أفضل من التسبيح والتهليل المطلق، وأمّا المأثور في وقت أو حال فالاشتغال به أفضل.

وفي «صحيح» مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، في يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**»[4] قال الطيبي: «**يوم**» مطلق لم يعلم في أي وقت من أوقاته، وقال غيره: ظاهر الإطلاق يشعر بأنه يحصل هذا الأجر المذكور لمن قال ذلك مائة مرة، سواء أقالها متوالية أو متفرقة في مجالس، أو بعضها أوّل النهار وبعضها آخره، وقوله: «**غُفرت ذنوبه**» أي: الصغائر من حقوق الله تعالى خاصة؛ لأن حقوق الناس لا تغفر إلا باسترضاء الخصوم.

---

(١) رواه مسلم (١٧/ ٣٩٥)، وابن أبي شيبة (٨/ ٢٣٥).
(٢) رواه الترمذي (١٣/ ١٨٤).
(٣) رواه مسلم (١٧/ ٣٩٤).
(٤) رواه البخاري (٢١/ ٢٤٨).

وروى البزار عن عبد الله بن عمر - رضي الله تعالى عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ. غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ**»(١).

وأخرج الطبراني في «الأوسط» والخرائطي وابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال إذا أصبح سبحان الله وبحمده ألف مرة فقد اشترى نفسه من الله وكان آخر يومه عتيق الله**»(٢).

قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» بعد إيراده ما رواه الطبراني في «الأوسط»: وفيه من لم أعرفه. انتهى.

وهذه فائدة عظيمة ينبغي أن يحافظ عليها، وغنيمة جسيمة يبادر إلى الاعتناء بها والمداومة عليها، ويشبهها ما تداولته السادة الصوفية من قول: «لا إله إلا الله» سبعين ألف مرة، ويذكرون أن الله تعالى يعتق بها رقبة مر قالها، واشترى بها نفسه من النار، أو رقبة من يقولها عنه، ويشتري بها نفسه من النار، ويحافظون على فعلها لأنفسهم، ولمن مات من أهاليهم وإخوانهم.

وقد ذكرها الإمام اليافعي والعارف الكبير المحيوي ابن العربي، وأوصى بالمحافظة عليها، وذكروا أنه قد ورد فيها خبر نبوي، وحكوا أن شابًا صالحًا كان من أهل الكشف ماتت أمّه فصاح وبكى وخرّ مغشيًا عليه، ثم سئل عن سبب ذلك فذكر أنه رأى أمّه في النار، وكان بعض المشايخ من السادة الصوفية حاضرًا، وكان قد قال هذه السبعين ألفًا وأراد أن يعدّها لنفسه، فقال في نفسه عندما سمع قول الشاب المذكور: اللهم إنك تعلم أني هللت هذه السبعين ألف تهليلة وأريد أن أدّخرها لنفسي، وأشهدك أني قد اشتريت بها أمّ هذا الشاب من النار، فما استتم هذا الوارد إلا وتبسم الشاب وسرّ وقال: الحمد لله أرى أمي قد أخرجت من النار، وأُمر بها إلى الجنة، فقال المذكور: فحصل لي فائدتان: صدق الخبر المذكور، وصحته وصدق كشف هذا الشاب. انتهى.

لكن الحديث المذكور قال بعض المشايخ: لم ترد به السنة فيما أعلم، وقد وقفت على صورة سؤال الحافظ ابن حجر العسقلاني - رحمه الله تعالى عن

(١) رواه الترمذي (١٢/ ٤٢٣).
(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٩/ ١٨٢).

هذا الحديث وهو: «**من قال لا إله إلا الله سبعين ألفًا فقد اشترى نفسه من الله تعالى**»[1] هل هو حديث صحيح أو حسن أو ضعيف؟ وصورة جوابه: أمَّا الحديث - يعني المذكور - فليس بصحيح ولا حسن ولا ضعيف، بل هو باطل موضوع لا تحل روايته إلا مقرونًا ببيان حاله. انتهى.

لكن ينبغي للشخص أن يفعلها اقتداءً بالسادة الصوفية، وامتثالاً لقول من أوصى بها وتبركًا بأفعالهم، وقد ذكرها الشيخ الولي الزاهد سيدي محمد بن عراق - نفعنا الله تعالى ببركاته - في بعض «سفيناته» المؤلفة، وقال: كان شيخه يأمر بها، وذكر أن بعض إخوانه ذكر له عن بعض الصلحاء: إنه كانت له سبحة عددها ألف، وكان يديرها سبعين مرة من بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس، قال: وهذه كرامة له من الله تعالى، فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بذلك وأن يلحقنا بعبادة الصالحين. انتهى.

وعن شريح العابد قال: بلغني أنه لو قُسّم ثواب تسبيحة على جميع هذا الخلق لأصاب كل واحد منهم خير، والفضائل كثيرة شهيرة، وفيما ذكرناه كفاية لمن له بصيرة.

وقوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، قال أهل اللغة: أسرى وسرى لغتان، زاد بعضهم: إنهما مختصان بسير الليل، وأسرى لازم كسرى، فيحتاج إلى التعدية، والهمزة هنا ليست للتعدية، خلافًا لابن عطية، وإنما المعدي الباء في ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾، ولا تقتضي مصاحبة الفاعل للمفعول في الفعل عند الجمهور، خلافًا للمبرد والسهيلي.

والعبد في اللغة: المملوك من نوع من يعقل، وقال في «المحكم»: العبد الإنسان حرًا كان أو رقيقًا؛ لأنه مملوك لبارئه، وقال سيبويه: إنه في الأصل صفة، ولكنه استعمل استعمال الأسماء.

وأجمع المسلمون على أن المراد بالعبد هنا: سيدنا ومولانا محمد رسول

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٤١١٣)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٨٣١)، بلفظ: «مَنْ قال إذا أصْبح: سُبْحان الله وبحمْده ألْف مرّةٍ، فقدِ اشْترى نفْسهُ مِنَ اللهِ، وكان مِنْ آخِرِ يوْمه عتيقًا من النّار».

الله ﷺ وقال هنا: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ دون نبيه أو حبيبه؛ لئلا تضل أمته كالنصارى، أو لأن وصفه بالعبودية المضافة إلى الله تعالى أشرف المقامات.

قال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى: ليس للمؤمن صفة أتم ولا أشرف من العبودية، ولهذا أطلقها الله تعالى على نبيه في أشرف المواطن كقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠].

وقال البرهان النسفي رحمه الله تعالى: قيل: لما وصل النبي ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعراج أوحى الله تعالى إليه: يا محمد بم أشرفك؟ قال: يا رب بأن تنسبني إلى نفسك بالعبودية، فأنزل الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وفي معنى ذلك قيل:

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

وأقوال العلماء في العبد والعبودية كثيرة، وكل واحد تكلم بلسان قاله على قدر مقامه وحاله: فقال ابن عطاء الله: العبد: الذي لا ملك له.

وقال رويم: يتحقق العبد بالعبودية إذا أسلم القياد من نفسه إلى ربه، وتبرأ من حوله وقوّته، وعلم أن الكل له وبه.

وقال عبد الله بن محمد: حزتَ صفة العبودية إن كنتَ لا ترى لنفسك مُلكًا، وتعلم أنك لا تملك لها نفعًا ولا ضرًا، وما أحسن ما قيل في هذا القبيل!:

وكنت قديمًا أطلب الوصل منهم ... فلما أتاني العلم وارتفع الجهل

تيقنت أن العبد لا طلب له ... فإن قرّبوا فضل وإن أبعدوا عدل

وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم ... وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو

قال الإمام الرازي: دلّ قوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ على أن الإسراء كان بجسد رسول الله ﷺ لأن العبد اسم الجسد والروح.

قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ [العلق: ٩، ١٠]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] وقوله تعالى: ﴿لَيْلًا﴾ هو ظرف للإسراء،

واستشكل كثير من الناس كون ﴿لَيْلًا﴾ ظرفًا للإسراء؛ لأنه تقدم أن الإسراء هو سير الليل، فإذا أطلق الإسراء فهم منه أنه واقع ليلاً، فهو كالصبوح في شرب الصباح لا يحتاج إلى قوله: شربت الصبوح صباحًا، وجوابه: إن الأمر، وإن كان كذلك إلا أن العرب تفعل مثل ذلك في بعض الأوقات إذا أرادت تأكيد الأمر، والتأكيد نوع من أنواع كلامهم وأسلوب منه، والعرب تقول: أخذ بيده، وقال بلسانه، وقال بعضهم: فائدة التأكيد هنا رفع توهم المجاز؛ لأنه قد يطلق على سير النهار أيضًا.

وقال الزمخشري: أراد بقوله: ﴿لَيْلًا﴾ بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء، وإنه وقع السرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أن التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية، وقال: يشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة: ﴿مِنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: بعض الليل.

وقال غيره: فكان المعنى: سبحان الذي أسرى بعبده في ليل واحد من كذا إلى كذا، وهو وضع التعجب، وإنما عدل عن ليلة إلى ليل؛ لأنهم إذا قالوا: سرى ليلة كان ذلك في الغالب لاستيعاب الليلة بالسري، فقيل: ليلاً؛ أي: في ليل.

قال ابن المنير رحمه الله تعالى: وإنما كان الإسراء ليلاً؛ لأنه وقت الخلوة والاختصاص عرفًا، ولأنه وقت الصلاة التي كانت مفروضة عليه في قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢] وليكون أبلغ للمؤمن بالإيمان بالغيب، وفتنة للكافر.

وقال بعض أهل الإشارات: لما محا الله آية الليل وجعل آية النهار مبصرة انكسر الليل فجبر بأن أسرى فيه بسيدنا ومولانا محمد قال ابن دحية: أكرم نبينا ﷺ بأمور: منها: انشقاق القمر، وإيمان الجن به، ورأى أصحابه نيرانهم كما في «صحيح» مسلم، وخرج إلى الغار ليلاً، والليل أصل، ولهذا كان أول الشهر وسواده يجمع ضوء البصر ويحد كليل النظر، ويستلذ فيه بالسمر. وكان أكثر أسفاره ليلاً. وقال «**عَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ**»[1] والليل وقت الاجتهاد للعبادة، وكان يقوم حتى تورمت قدماه، وكان قيام الليل في حقِّه

(١) رواه أبو داود (٧/ ٤٩٤).

واجبًا، فلما كانت عبادته ليلاً أكرم بالإسراء فيه، وليكون أجر المصدق به أكثر ليدخل فيمن آمن بالغيب دون من عاينه نهارًا.

وقدّم الحق تبارك وتعالى ذكر الليل في كتابه على ذكر النهار فقال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢]... إلى غير ذلك من الآيات.

وصحّ أنه قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»[١].

وهذه الخصيصة لم تجعل للنهار نبّه بها؛ لما في ذلك الوقت من الليل من سعة الرحمة ومضاعفة الأجر وتعجيل الإجابة؛ ولإبطال كلام الفلاسفة أن الظلمة من شأنها الإهانة والشر؛ ولأن الله تعالى أكرم أقوامًا في الليل بأنواع الكرامات، كقوله في قصة إبراهيم ﷺ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦]، وفي لوط بقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١].

وفي موسى ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وناجاه ليلاً وأمره بإخراج قومه ليلاً. انتهى.

ومن هنا اختلف في التفضيل بين الليل والنهار، وصنّف فيه بعضهم كتابًا فرجح الليل بوجوه: منها: ما تقدم آنفًا، ومنها: سبقه النهار؛ أي: تقدُّمه عليه في الخلق، وفيه ساعة الإجابة كما تقدم، وهي في كل الليالي بخلاف الأيام، فهي منها في يوم الجمعة فقط.

ورجح النهار بوجوه منها قوله «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم عرفة أو يوم الجمعة**»[٢] **لكن رد بأن هذا بالنسبة للأيام لا الليالي، وبأن ليلة القدر خير من ألف شهر، وقد دخل في هذه الليلة أربعة آلاف جمعة.**

قلت: ومن أعظم الأدلة القاطعة للنزاع الدالة على تفضيل الليل: وقوع رؤية

---

(١) رواه البخاري (٤/ ٤٢١)، ومسلم (٥/ ١٢١)، وأبو داود (٤/ ٢٧٩).
(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٢٧١)، وعزاه لأبي رزين في جامعه.

الله تعالى فيه للنبي ليلة الإسراء، ونزول القرآن فيه كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: ١]. والله أعلم.

قال أبو أمامة بن النقاش رحمه الله تعالى: ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر في حق النبي ﷺ وليلة القدر أفضل في حق الأمة؛ لأنها لهم خير من عمل أكثر من ثمانين سنة ممن كان قبلهم، وأمّا ليلة الإسراء فلم يأت في أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف، ولذلك لم يبينها النبي ﷺ وقول الإمام البلقيني - رحمه الله تعالى - في قصيدته التي مدح فيها النبي ﷺ:

أولاك رؤيته في ليلة فضلت ليالي القدر فيها الرب رضاك

يؤخذ منه أن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، ولعلّ الحكمة في ذلك كما قاله في «الاصطفاء»: اشتمالها على رؤيته التي هي أفضل كل شيء، ولذلك لم يجعلها ثوابًا عن عمل من الأعمال مطلقًا، بل منّ بها على عباده المؤمنين يوم القيامة تفضلاً منه تعالى. انتهى.

وهذا يؤيد ما قدمناه آنفًا في تفضيل الليل، لكن يبقى النظر في تحرير محل في الخلاف، وقد حرره بعضهم كما وجد بخط الحافظ ابن حجر نقلاً عن المهدوي فقال: إن كان المراد أن ليلة الإسراء ونظائرها من كل عام أفضل من ليلة القدر، بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل من ليلة القدر فهذا باطل لم يقله أحد من المسلمين، وهو معلوم الفساد بالاضطرار، وإن أراد الليلة المعينة التي أُسري فيها بالنبي ﷺ وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة فهذا صحيح، إن قام دليل على أن إنعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وهذا لا يعلم إلا بوحي، ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيه بلا علم، ولا يعرف عن أحد من الصحابة أنه خصَّ ليلة الإسراء بأمر من الأمور، ولهذا لا يعرف أي ليلة كانت، وإن كانت الإسراء في نفسه من أعظم فضائله، كما أنه لم يفضل غار حراء الذي أنزل عليه فيه الوحي، ولا خصّ اليوم الذي ابتدئ فيه بالوحي بشيء. انتهى.

وظاهر هذا الكلام أن الخلاف بين الليلة المعينة التي أُسري فيها بالنبي ﷺ وبين ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن كما يدل عليه قوله: إن قام دليل على أن

إنعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وأمّا الليلة المعينة التي أسرى به فيها وليلة القدر من كل عام فينبغي أن يكون فيها قول أبي أمامة بن النقاش المتقدم. وأمّا نظائر الليلة المعينة من كل عام فلا شك في أن ليلة القدر من كل عام أفضل منها لما لا يخفى(١).

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١].

من: لابتداء الغاية، والمسْجد لغة: مفعل بالكسر اسم لمكان السجود، وبالفتح اسم المصدر، وأمّا شرعًا: فكل موضع من الأرض لقوله «**جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»(٢) ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اشتق اسم المكان منه، فقيل: مسجد، ولم يقولوا: مركع، ثم إن العرف خصص المسجد بالمكان المهيأ للصلوات الخمس، حتى يخرج المصلى المجتمع فيه للأعياد ونحوها، فلا يعطى حكمه، وكذلك الربط والمدارس، فإنها هيئت لغير ذلك، والحرام: أي المحرم، وهو ضد الحلال، وذلك لما منع المحرم فيه مما يجوز لغيره ولما منع في الحرم مما يجوز في غيره من البلاد.

قال الماوردي: كل موضع ذكر الله فيه المسجد الحرام فالمراد به الحرم، إلا في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فإنه أراد به الكعبة(٣).

---

(١) أول ذلك الشيخ نجم الدين كبرى الآية بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] للتعجب فيها يشير إلى أعجب أمر من أموره جرى بينه وبين أفضل خلقه، وأخص عبيده، وأحبهم إليه، وأقربهم لديه، وأعظمهم قدرًا، وأكملهم مقامًا، وأرفعهم درجة، وأعلاهم رتبة، وأجلهم منصبًا، وأكرمهم مثوى، وأعزهم منزلة، وأوفرهم قربة، وأفناهم عن أنانيته، وأبقاهم بهويته، وأخلصهم لعبوديته، وأوحدهم بوحدانيته، وأفردهم بفردانيته، وأوليهم بتجلي جماله، وأعظميهم من كشف جلاله، وهو العبد المطلق من بين سائر عباده، والحبيب المختص المخلص من أحبابه، والنبي المفضل على أنبيائه، وهو الحر المعتق عن عبودية الموجودات ورق وجوده، فلهذا سماه الله ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ عند فناء اسمه ورسمه اسمًا ما سُمي به أحد من خلقه إلا عند بقاء اسمه ورسمه، كما قال ﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢] ومن هنا يقول كل نبي يوم القيامة: نفسي نفسي لبقاء وجودهم وهو يقول: «أمتي أمتي» لفناء وجوده في وجوده.

(٢) رواه البخاري (٢/ ٢٥٦)، والترمذي (٢/ ٥٦).

(٣) وفي قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ =

وقال بعضهم: المراد بالمسجد الحرام في قوله تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام مكة لأنه كان في بيت أم هانئ.

وأوّل مسجد وضع على الأرض المسجد الحرام وهو مسجد مكة شرفها الله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦]، وفي «الصحيحين» عن أبي ذر ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ **«عَنْ أَوَّلِ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ، قَالَ: الْمَسْجِدُ الحَرَامُ، قُلْتُ: ثُمَّ، أَيٌّ قَالَ: الْمَسْجِدُ الأَقْصَى، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا قَالَ: أَرْبَعُونَ عَامًا»**[1]، وقد أشكل هذا الحديث على بعضهم فقال: معلوم أن سليمان بن داود صلى الله عليهما وسلم لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى ثلاثًا - الحديث الآتي إن شاء الله تعالى ـ وهو بعد إبراهيم ـ كما قاله أهل التاريخ - بأكثر من ألف عام، وهذا القائل جهل التاريخ، فإن سليمان ﷺ إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه، والذي أسّسه هو يعقوب بن إسحاق صلى الله عليهما وسلم بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا القدر، وقال بعضهم: إن هذين المسجدين وضعا قديما ثم خربا ثم بنيا. انتهى.

وزعم بعضهم أن أوّل من بنى البيت آدم، وأن غيره من ولده وضع بيت المقدس بعده بأربعين عامًا، حكاه ابن الجوزي وغيره، وذكر ابن هشام في «التيجان» أن آدم ﷺ لما بنى البيت أمره جبريل بالمسير إلى بيت المقدس، وأن يبنيه فبناه ونسك فيه، وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

كلمة ﴿إِلَى﴾: لانتهاء الغاية، ومدلولها هنا أنه وصل إلى حد ذلك المسجد، ولا دلالة في اللفظ على أنه دخل، لكن القرينة تدل على دخوله، وهي

ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] إشارة إلى أن الحكمة في إسرائه إراءته آيات مخصوصة بذاته تعالى تقديرًا له ما شرف بما رآه أحد من الأولين والآخرين إلا سيد المرسلين وخاتم النبيين، فإنه تبارك وتعالى أرى خليله ﷺ وهو أعز الخلق عليه بعد حبيبه الملكوت كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام: ٧٥] وأرى حبيبه آيات ربه الكبرى، كما قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: ١٨] ليكون من المحبين المحبوبين.

(١) رواه مسلم (٣/ ٤٢٣)، والنسائي (٣/ ١٠٦).

العلم بأنه إنما أُسري به إلى بيت المقدس ليدخله ويبعد أن يسرى به إلى بيت المقدس ولا يدخله، وصرحت السُّنّة الصحيحة بما اقتضته القرينة من دخوله المسجد الأقصى. وهو الذي عمّره نبي الله سليمان عليه السلام بأمر الله ﷻ كما تقدّم. وما زال مكرمًا محترمًا، وهو أحد المساجد الثلاثة التي لا تُشدُّ الرحال شرعًا إلا إليها؛ أي: لا يقصد بالزيارة والتعظيم من جهة أمر الشارع إلا هذه الثلاثة.

وقد روى النسائي وابن ماجه وغيرهما: «أن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى ثلاثًا: سأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله حكمًا يواطئ حكمه، فأعطاه إياه، وسأله من أتى هذا البيت يريد بيت المقدس لا يريد إلا الصلاة فيه أن يخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه. فقال رسول الله ﷺ: **«وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ أَعْطَاهُ الثَّالِثَةَ»**[1].

وروى أبو داود وابن ماجه عن ميمونة قالت: قلت يا رسول الله ﷺ: أفتنا في بيت المقدس قال: **«أَرْضُ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ ائْتُوهُ فَصَلُّوا فِيهِ فَإِنَّ صَلَاةً فِيهِ كَأَلْفِ صَلَاةٍ فِي غَيْرِهِ، قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَحَمَّلَ إِلَيْهِ قَالَ: فَتُهْدِي لَهُ زَيْتًا يُسْرَجُ فِيهِ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ كَمَنْ أَتَاهُ»**[2].

وهو معدن الأنبياء من لدن الخليل ولذا اجتمعوا له هناك كلهم وأمهم في محلتهم ودارهم؛ ليدل ذلك على أنه الرئيس المقدم والإمام الأعظم.

والأقصى: أفعل من القصي والقاصي هو البعيد، وسُمّي بالأقصى؛ لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام، فبينهما مسافة ثلاثين يومًا عادة، أو لأنه لم يكن وراءه مسجد. فثبت له هذا النعت، وإن كان وراءه بعد مساجد هي أقصى منه؛ لأن العلمية إذا ثبتت لسبب لم يضر زوال ذلك السبب.

ويحتمل أن يريد بالأقصى: البعيد دون مفاضلة، فأفعل التفضيل ليس على بابه. وكأن أقصى؛ أي: أبعد مسجد عن أهل مكة يعظم بالزيارة، وقبل وصفه بالأقصى منهم؛ أي: من العرب، أو من الكعبة، أو من أهل مكة، أو من النبي ﷺ.

قال الإمام ابن أبي جمرة: والحكمة في إسرائه أولاً إلى بيت المقدس

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٤٩).
(٢) رواه ابن ماجه (٤/ ٣٩٨).

لإظهار الحق لمن عاند؛ لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح، فلمّا ذكر أنه أُسري به إلى بيت المقدس سألوه عن أشياء من بيت المقدس كانوا رأوها، وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك، فلمّا أخبرهم بها حصل التحقيق بصدقه فيما ذكر من الإسراء به إلى بيت المقدس في ليلة. وإذا صحّ خبره في ذلك لزم تصديقه في بقية ما ذكره. انتهى.

قيل: الحكمة في ذلك؛ ليحصل له العروج سنويًا من غير تعويج. لما روي عن كعب أن باب السماء الذي يقال له مصعد الملائكة يقابل بيت المقدس، قال: وهو أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً، قال بعض الحفاظ: وفيه نظر!

وقيل: الحكمة في ذلك أن الله تعالى أراد أن يريه القبلة التي صلى إليها مدة، كما عرف الكعبة التي صلى إليها.

وقيل: لأنه مجمع أرواح الأنبياء، فأراد الله تعالى أن يشرفهم بزيارته.

وقيل: لأنه هجرة غالب الأنبياء، فحصل له الرحيل إليه في الجملة؛ ليجمع بين أشتات الفضائل.

وقال ابن دحية: يحتمل أن يكون الحق سبحانه وتعالى أراد ألّا يخلي تربة فاضلة عن مشهده ووطء قدمه، فتمم تقديس بيت المقدس بصلاة سيدنا فيه، فلما تمّ تقديسه أخبر أنه لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد:

المسجد الحرام: لأنه مولده ومسقط رأسه وموضع نبوته، ومسجد المدينة: لأنه محل هجرته وأرض تربته، والمسجد الأقصى: لأنه موضع معراجه.

وما أحسن قول بعض العارفين[1] في رمزه لتلك الحقائق البالغة نهاية التمكين!

ومسجدي الأقصى مساحب بردها وطيبى ثرى أرض عليها تمشت

وقوله تعالى ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

البركة: الزيادة والنماء، قال الراغب: البركة: ثبوت الخير الإلهي في

(١) سلطان العاشقين ابن الفارض.

الشيء، والمبارك: ما فيه ذلك الخير، فإن قيل: كيف قال: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ ولم يقل: باركنا عليه وفيه، مع أن البركة في المسجد تكون أكثر من خارج المسجد وحوله، خصوصًا المسجد الأقصى؟

قلنا: أراد البركة الدنيوية: كالأنهار الجارية، والأشجار المثمرة، وذلك حوله لا فيه.

وقيل: أراد البركة الدينية، فإنه مقر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومتعبدهم، ومهبط الوحي والملائكة، وإنما باركنا حوله؛ لتكون بركته أعم وأشمل. فإنه أراد بما حوله: ما أحاط به من أرض الشام، وما قاربه منها، وذلك أوسع من مقدار بيت المقدس؛ ولأنه إذا كان هو الأصل، وقد بارك في لواحقه وتوابعه من البقاع كان هو مباركًا فيه بالطريق الأولى بخلاف العكس.

وقيل: أراد البركتين الدنيوية والدينية، وفيه ما مرّ من التوجيه.

وقيل: المراد: باركنا حوله من بركة نشأت منه، فعمّت جميع الأرض؛ لأن مياه الأرض كلها أصل انفجارها من تحت صخرة بيت المقدس. انتهى.

فإن قيل: إذا كانت البركة حول المسجد الأقصى كما ذكر فبماذا يتميز عليه المسجد الحرام؟

أجيب: بأن البركة حول المسجد الأقصى إمّا باعتبار الدنيا ورفاهيتها وخصبها، والبركة حول المسجد الحرام باعتبار الدين والفضل وتضعيف الحسنات فيه للطائفين والعاكفين والمتوطنين والوافدين؛ لأن الأجر يكون على قدر النصب، وهو واد غير ذي زرع، نزّهه الله تعالى عن خصب الدنيا وسعتها؛ لئلا يكون القصد إليه ممزوجًا بقصد الدنيا، وهذه البركة الدينية أفضل من تلك البركة الدنيوية. انتهى.

وإمّا أن يكون المراد بالبركة في المسجد الأقصى: البركتين الدنيوية والدينية، فالبركة الدينية التي في المسجد الحرام تفضلها باعتبار ما تقدّم.

و﴿حَوْلَهُۥ﴾: منصوب على الظرفية؛ أي: أوقعنا البركة حوله وحول الشيء جانبه الذي يمكنه أن يتحول إليه، والضمير فيه راجع إلى المسجد الأقصى.

وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] قرأ العامة بنون العظمة جريًا

على باركنا، وفيه التفات من الغيبة في قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ إلى التكلم في باركنا، ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، وطريقة الالتفات من طرق البلاغة، ففي الآية التفاتان: فالالتفات الأول: كما تقدم، والالتفات الثاني: هو من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] بناءً على أن الضمير فيه راجع لله تعالى كما سيأتي.

ووجه ذلك أن قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ يدل على مسراه من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، فهو بالغيب أنسب.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ دال على إنزال البركات، وتعظيم شأن المنزل، فهو بالحكاية على التفخيم أحرى.

وكذا قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ يدل على عظمة الإراءة والآيات المرئية، فهو أولى بالتعظيم، والحكاية على التفخيم أيضًا[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إشارة إلى مقام اختصاصه بالمنح والزلفى وغيبة شهوده في عين: "**بي يسمع وفي يبصر**"، فالعود إلى الغيبة أولى.

وقرأ الحسن: ليُريَه بالياء التحتية؛ أي: الله تعالى، فعلى هذه القراءة يكون في الآية أربع التفاتات، فالثالث والرابع هو الالتفات من التكلم في ﴿بَٰرَكْنَا﴾ إلى الغيبة في ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ ثم التفت إلى التكلم في ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ ووجهه أنه في ليريه إعادة إلى مقام السر والغيبة من هذا العالم، فالغيبوبة بها أليق، وقوله: ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ عود إلى التعظيم على ما سبق.

ومعنى الرؤية: هو ما رأى تلك الليلة من عجائب السموات والأرض، والآيات الدالة على قدرة الله تعالى، ومنها: ما ذكر في القصة من ذهابه في برهة من الليل مسيرة شهر ومشاهدته بيت المقدس، وتمثيل الأنبياء له وقوفه على مقاماتهم.

---

(١) قال ابن عادل: يدلُّ على أنّه تعالى ما أراه إلّا بعض الآيات؛ لأن كلمة «منْ» للتبعيض وقال في حقِّ إبراهيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] فيلزم أن يكون معراج سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أفضل من معراج سيدنا محمدﷺ.
قلنا: فالجواب أن الذي رآه إبراهيم ملكوت السموات والأرض، والذي رآه محمد بعض آيات الله، ولا شكّ أن آيات الله أفضلُ. [تفسير اللباب لابن عادل (١٠/٢٢٦)].

و﴿مِن﴾: هنا للتبعيض، وإنما أتى بها هنا تعظيمًا لآيات الله تعالى، فإن هذا الذي رآه محمد وإن كان جليلاً عظيمًا فهو بعض بالنسبة إلى جملة آيات الله تعالى وعجائب قدرته وجليل حكمته، والرؤية هنا بصرية، وقيل: قلبية، وإليه نحا ابن عطية فإنه قال: ويحتمل أن يريد: ليرى سيدنا ومولانا محمدا للناس آية، أي: يكون النبي ﷺ آية في أنه يصنع الله تعالى ببشر هذا الصنع. فتكون الرؤية قلبية على هذا. والآية العلامة الظاهرة على ما يلازمها، فآية الشيء علامته الظاهرة، ثم غلب ذلك على صدق الرسل، وعلى الإلهية وكرامات الأولياء، وما أشبه ذلك.

فإن قيل: الآية تدل على أنه تبارك وتعالى ما أراه إلا بعض آيات، وقال في حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وذلك يدل على أنه تعالى أراه جميع الآيات، فيلزم أن يكون معراج إبراهيم أفضل من معراج سيدنا ومولانا محمد؟

أجيب: بأن ملكوت السموات والأرض بعض آيات الله تعالى أيضًا بعضًا مخصوصًا، والبعض المطلق أفضل من البعض المخصوص؛ إذ المطلق ينصرف إلى الكامل، والجواب المشهور عنه هو أن بعض آيات الله أفضل من ملكوت السموات والأرض. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، الصحيح أن الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ لله تبارك وتعالى؛ أي: إنه هو السميع لأقوال سيدنا ومولانا محمد، البصير بأفعاله. وقال بعض المحققين: ولا بعد أن يرجع الضمير إلى العبد وهو النبي ﷺ كما نقله أبو البقاء عن بعضهم قال: إنه هو السميع لكلامنا البصير لذاتنا، وأمّا توسط ضمير الفصل فللإشعار باختصاصه بهذه الكرامة وحده. ولعلّ السر في مجيء الضمير محتملاً للأمرين الإشارة إلى المطلوب، وأنه إنما رأى رب العزة به وسمع كلامه به.

قال الماوردي: في الحكمة في الإتيان بالسميع البصير هنا وجهان:

أحدهما: إنه تعالى وصف نفسه بهما، وإن كانا من صفاته اللازمة لذاته في الأحوال كلها؛ لأنه حفظ رسوله عند الإسراء به في ظلمة الليل، فلم يضره أن لا يبصر فيها وسمع دعاءه، فأجابه إلى ما سأل.

الثاني: أن قومه لما كذّبوه حين أخبرهم بإسرائه، فقال: السميع؛ يعني: لما يقولون من تصديق أو تكذيب البصير فيما يفعله من الإسراء والمعراج. انتهى.

وهذا بناءً على أن الضمير لله تعالى وعليه، فالسميع: هو الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي، فيسمع السر والنجوى، بل ما هو أدق وأخفى، يدرك بيت النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، يسمع بغير أصمخة[1] وآذان وسمعه منزه أن يتطرق إليه الحدثان، فالسمع في حقه عبارة عن صفة ينكشف بها كمال صفات المسموعات.

والبصير: هو الذي يشاهد ويرى، ولا يعزب عنه ما تحت الثرى إبصاره، منزه عن أن يكون بحدقة وأجفان مقدس عن انطباع الصور والألوان في ذاته تعالى كما ينطبع في حدقة الإنسان، فالبصر في حقّه تعالى عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المصنوعات، وقد ختم الله تعالى وتقدس الآية الدالة على إسرائه وما يتعلق به بهاتين الصفتين العظيمتين لما ذكرنا.

فإن قلت: الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة فهلا أخبرهم الله تعالى بعروجه إلى السماء؟ **قلت**: استدرجهم إلى الإيمان بذكر الإسراء أولاً، فلمّا ظهرت أمارات صدقه ووضحت لهم براهين رسالته واستأنسوا بتلك الآية الخارقة أخبرهم بما هو أعظم منها، وهو المعراج، فحدّثهم النبي ﷺ به، وأنزله الله تعالى في كتابه في سورة النجم فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: ١].

والكلام على بعض فوائد ذلك بحول الملك المالك، فقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ سبب نزولها - كما قال المفسرون- قول المشركين أن محمدًا يختلق القرآن، ومناسبتها الآخر ما قبلها ظاهرة؛ لأنه تعالى قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ [الطور: ٣٣] أي: اختلق القرآن فنسبوه إلى الشعر، وقالوا: هو كاهن، هو مجنون، فأقسم الله تعالى في أوّل هذه السورة: إنه ما ضل، وإن ما أتى به هو الوحي من عند الله.

---

(١) (ص م خ): صِمَاخُ الْأُذُنِ الْخَرْقُ الَّذِي يُفْضِي إِلَى الرَّأْسِ وَهُوَ السَّمْعُ، وَقِيلَ: هُوَ الْأُذُنُ نَفْسُهَا، وَالْجَمْعُ أَصْمِخَةٌ (المصباح المنير(٥/ ٢٥٦).

والنجم مكيّة بالإجماع، وهي أوّل سورة نزلت فيها سجدة، وأوّل سورة أعلن رسول الله ﷺ بقراءتها في الحرم والمشركون يسمعون، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب، فإنه رفع حفنة تراب إلى جبهته وقال: «يكفي هذا». كذا وقع في عبارة بعض المفسرين كأبي حيان والسبكي، غير أبي لهب، وهو غريب.

وفي رواية الشيخين وغيرهما عن ابن مسعود: «**وسجد الناس كلهم إلا رجلاً رأيته أخذ كفًا من تراب فسجد عليه، فرأيته قُتل كافرًا وهو أمية بن خلف**».

وفي رواية ابن أبي شيبة: «**إلا رجلين من قريش**» أرادا بذلك الشهرة وسمى أحد المبهمين أمية بن خلف المتقدم، والثاني الوليد بن المغيرة كما عند ابن سعد.

وقال التقي السبكي في تفسيره: وعن عروة بن الزبير أن عتبة بن أبي لهب وكان تحته ابنة رسول الله ﷺ أراد أن يخرج إلى الشام فقال: لآتين محمدًا فلأوذينه، فأتاه فقال: يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى، ثم تفل في وجهه، ورد عليه ابنته وطلّقها، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ**»[1] وكان أبو طالب حاضرًا فوجم لها، وقال: «ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوى»، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال: إن هذه أرض مسبعة، فقال أبو لهب لأصحابه: أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة، فإني أخاف على ابني من دعوة محمد، فجمعوا جمالهم فأناخوها حولهم وأحدقوا بعتبة، فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله. انتهى.

كذا وقع عتبة بالتكبير، وهو مشكل؛ لأن عتبة بن أبي لهب أسلم يوم الفتح هو وأخوه معتب، وشهدا حنينًا، والظاهر أن الذي وقع له ذلك هو عتيبة ـ بالتصغير ـ ومات كافرًا أو كان عتيبة تزوج أم كلثوم، وعتبة تزوج رقية ثم طلقها أيضًا لما أسلمت، ولم يدخلا بهما، وقد تزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد واحدة وماتتا عنده.

---

(١) رواه البيهقي في «الكبرى» (٥/ ٢١١).

والحديث المذكور قد ذكره في «الكشاف» كما ذكره السبكي، وقال الحافظ الجمال الزيلعي الحنفي رحمه الله تعالى في «تخريج أحاديث الكشاف» ما ملخصه: رواه - يعني الحديث - الذي في الكشاف أبو نعيم في كتابه «دلائل النبوة» في الباب السادس والعشرين من حديث محمد بن إسحاق عن عثمان بن عروة بن الزبير عن أبيه، فذكره بلفظ المصنف، إلا أنه مكان قوله: «**حتى ضرب عتبة فقتله**» قال: «**فضربه الأسد بذنبه ضربة واحدة فمات مكانه**»[1].

ورواه البيهقي في «دلائل النبوّة» والطبراني في «معجمه» في ترجمة رقية بنت رسول الله ﷺ من حديث زهير بن العلاء عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، فذكر القصة المذكورة بأطول من ذلك، ثم قال: وذكره الثعلبي عن عروة بلفظ المصنف من غير سند، وفي آخره شعر حسان، ثم قال: وروى الحاكم في «المستدرك» في تفسير سورة تبّت، وذكر قصة فيها أن الذي دعا عليه النبي ﷺ وقتله الأسد هو لهب ابن أبي لهب، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه البيهقي في «دلائل النبوّة» كذلك، وقال: هكذا قال العباس بن الفضل لهب بن أبي لهب، وعباس ليس بالقوي، وأهل المغازي يقولون عتبة بن أبي لهب، ومنهم من يقول عتيبة. انتهى.

ولما ساق البيهقي في «مجمع الزوائد» القصة الطويلة التي أشرنا إليها آنفًا في باب المغازي والسير قال عقبة: رواه الطبراني هكذا مرسلاً، وفيه زهير بن العلاء وهو ضعيف. انتهى.

والواو في ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ للقسم، والنجم مُقسم به[2]، فإن قيل: كيف أقسم

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٦/ ٤٣٧)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٢٣).

(٢) أقسم الله بالنجم، وذلك النجم إلهام قلوب الملهمين حين يسقط من صحائف الغيوب إلى معادن القلوب، وأيضًا أي: بأنوار تجلي جماله وجلاله إذا وقع على أرواح العاشقين، وأيضًا بألحان بلابل علومه اللدنية التي تترنم بحقائق ما كنز الحق في كنوز القدم إذا جلست على أغصان ورد بساتين أسرار العارفين، فتكلموا، وأخبروا بها من مكنون غرائب علوم الصفات والذات، وأيضًا أي: بواردات الحدسية التي تبدو بأنوارها من الغيوب لفهوم المحببين، وتسقط على أسرار الواصلين، وترعجها إلى مشاهدة رب العالمين حقائقها المواجيد والحالات والكشف والمشاهدات وأيضًا أي: بالأرواح العاشقة الشائقة إذا صعدت إلى ملكوت الغيب، وتسقط إلى بحر جبروت الرب، وتحمل مياه حياة القدم من بحر البقاء، وتأتي سكرى إلى معادن الأشباح، وتضوع نفحاتها في

بالنجم وهو مخلوق. وقد ورد النهي عن القسم بغير الله تعالى؟ أجيب عنه بأوجه:

أحدها: إنه على حذف مضاف؛ أي: وربّ النجم، وكذا يقدر فيما يشابهه.

الثاني: إن العرب كانت تُعظِّم هذه الأشياء وتُقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفونه.

الثالث: إن الإقسام إنما يكون بما يُعظِّمه المقسم أو يُجلّه، وهو فوقه والله سبحانه وتعالى ليس فوقه شيء، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته؛ لأنها تدل على بارئ وصانع؛ لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل؛ إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل.

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قال: إن الله تعالى يُقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله تعالى.

والقصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده، فإن قيل: فما معنى القسم منه تعالى، فإنه إن كان لأجل المؤمن فهو مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده؟ أجيب: بأن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عاداتها القسم إذا أرادت توكيد أمر.

وأجاب الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى: بأن الله تعالى ذكر القسم لكمال الحُجّة وتأكيدها، وذلك أن الحكم يفصل باثنين: إمّا بالشهادة، وإمّا بالقسم، فذكر الله تعالى في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حُجّة فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣].

وعن بعض الأعراب: إنه لمّا سمع قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣]، صاح وقال: من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين.

بساتين العقول ورياض القلوب، وأيضًا بما نبت في بساتين قلوب الأولياء من عجائب أصناف أزهار الحكم والمعارف والعلوم والفهوم، أي: بهذه المقسمات الشريفة والنيرات الواضحة ما ضلّ حبيبي عني لمحة وما احتجب بشيء دوني لحظة، وما اعوجّ عن طريق استقامته قط.اهـ **كذا في التأويلات**.

وقد اختلف المفسرون في المراد بالنجم هنا على أقوال:

أحدها: إنه الجملة من القرآن إذا نزلت، وكل ما نُزل منه شيء في وقت فهو نجم. قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: أقسم بالقرآن إذا نزل نجومًا على رسول الله ﷺ أربع آيات وثلاث آيات وسورة، وكان بين أوله وآخره عشرون سنة، وهو قول مقاتل والضحاك ومجاهد. والهويّ على هذا القول النزول من أعلى إلى أسفل. وعلى هذا فسمي القرآن نجمًا لتفرقه في النزول، والعرب تُسمِّي التفريق: تنجيمًا، والمفرق: نجومًا، قال الرازي: ففي هذا القسم استدلال بمعجزة النبي ﷺ على صدقه، وهو كقوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: ١، ٢].

ثانيها: إنه عنى بالنجم: الثريّا، والعرب تطلق اسم النجم على الثريّا خاصة، فلا يذكرونه بالإطلاق إلا لها، قال قائلهم:

طلع النجم عشاء ... ابتغى الراعي كساء

وقال أيضًا:

طلع النجم غديه ... ابتغى الراعي شكيه

يعني الثريا وهي تطلع العشاء في الثلث الأخير من فصل الخريف قبل الشتاء بشهر. وذلك مبادئ قوّة البرد؛ لأن آخر كل فصل شبيه بالذي بعده، فلهذا طلب الراعي الكساء، وتطلع بالغداة في الصيف وقت أوان اللبن، فلهذا طلب الشكية - تصغير شكوة - وهي جلد الرضيع يتخذ للبن أصغر من الوطب.

وفي الحديث: «**ما طلع نجم قط وفي الأرض من العاهة شيء إلا ارتفع**»[1]. رواه الإمام أحمد، وأراد بالنجم: الثريا، وقد صار النجم عند الإطلاق علمًا على الثريا بالغلبة، ولا يكون علمًا على الثريا إلا بالألف واللام، فإذا أخرجت منه الألف واللام صارت نكرة، وأطلقوا على الثريا نجمًا وإن كانت أنجمًا، قال ابن دريد: وهي سبعة أنجم، ستة منها ظاهرة وواحد خفي يمتحن الناس به أبصارهم.

وقال غيره: اختلفوا في عدها، وذكر القاضي عياض في «الشفاء»: إنه كان

---

(١) ذكره الصالحي في سبل الهدى والرشاد (٣/ ٢٧) وعزاه للإمام أحمد.

يرى فيها اثني عشر نجمًا. وقال القرطبي في كتاب «أسماء النبي ﷺ وصفاته»: إنها لا تزيد على تسعة أنجم فيما يذكرون، وهذا القول الثاني. وهو أن المراد بالنجم الثريا، قاله ابن عباس ومجاهد في رواية عنهما، واختاره ابن جرير والزمخشري. وقال السمين: إنه الصحيح.

ثالثها: إن النجم اسم جنس، والمراد النجوم كلها، وهذا قاله الحسن ومجاهد. قال الرازي: ومناسبة ذلك أن النجوم يُهتدى بها، فأقسم الله تعالى بها لما بينهما من المشابهة والمناسبة.

رابعها: إن المراد بالنجم الرجوم من النجوم؛ يعني: ما تُرمى به الشياطين، وتسقط في آثارهم عند استراقهم السمع، وهذا قاله ابن عباس والحسن.

قال ابن كثير: وهذا القول له اتجاه.

وقال الواحدي: وهذا القول ظاهر. ونحن نشاهد هوي النجم إذا رمي به.

قال الماوردي: وسببه أن الله تعالى لما أراد بعثة سيدنا ومولانا محمد رسولاً كثر انقضاض الكواكب قبل مولده، ففزع أكثر العرب منها، وفزعوا إلى كاهن لهم ضرير كان يخبرهم بالحوادث، فسألوه عنها فقال: انظروا البروج الاثني عشر، فإن انقض منها شيء فهو ذهاب الدنيا، وإن لم ينقض منها شيء فيحدث في الدنيا أمر عظيم. فاستشعروا ذلك. فلمّا بعث رسول الله ﷺ كان هو الأمر العظيم الذي استشعروه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: ١] أي: ذلك النجم الذي هوى هو لهذه النبوة التي حدثت.

وقال ابن القيم: إنه أظهر الأقوال، ووجهه أن الله تعالى أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها آية، وحفظًا للوحي من استراق الشياطين. على أن ما أتى به رسوله حق لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد حرس بالنجم إذا هوى رصدًا بين يدي الوحي وحرسًا له، فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور، وفي المقسم به دليل على المقسم عليه.

خامسها: إن المراد به النبي ﷺ إذا هوى؛ أي: نزل ليلة المعراج، وهذا قاله جعفر الصادق، كما نقله القاضي عياض عنه، قال بعضهم: ويعجبني هذا القول لملائمته من وجوه:

فإنه نجم هداية، خصوصًا لما هدي إليه من فرض الصلاة تلك الليلة، وقد علمت منزلة الصلاة من الدين.

ومنها: إنه أضاء في السماء والأرض.

ومنها: التشبيه بسرعة السير.

ومنها: إنه كان ليلاً وهو وقت ظهور النجم فهو لا يخفى على ذي بصر، وأمّا أرباب البصائر فلا يمترون كأبي بكر الصديق ﷺ، انتهى.

وفي ذلك أقوال أُخر أضربنا عنها طلبا للاختصار ولظهور هذه وقوتها عليها.

وقوله: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي: سقط من علو إلى سفل، فعلى القول بأنه القرآن فالمعنى: إذا نزل، وعلى القول بأنه الثريا أو جميع النجوم، فالمراد بالهويّ: السقوط في مغاربها من الأفق، وعلى القول بأنه الرجوم فالمراد بالهويّ: الرمي بها، وعلى القول بأنه النبي ﷺ فالمراد بالهويّ: نزوله ليلة المعراج.

فإن قيل: ما العامل في ﴿إِذَا﴾ وهل هي شرطية أو لا؟ وإذا كانت شرطية فأين جوابها؟ أجيب: بأن الظاهر أنها ظرفية محضة لا شرطيّة، والعامل فيها فعل القسم المحذوف، والتقدير: أُقسم بالنجم وقت هويه، قاله أبو البقاء وغيره، وهو مشكل، فإن فعل القسم إنشاء والإنشاء حال، وإذا إنما هي لما يستقبل من الزمان فكيف يتلاقيان؟ قال الطيبي نقلاً عن المقتبس: الوجه أن إذا قد انسلخ عنها معنى الاستقبال، وصارت للوقت المجرد ونحوه: آتيك إذا احمر البسر؛ أي: وقت احمراره، فقد عري عن معنى الاستقبال؛ لأنه وقت الغيبة عنه بقوله: آتيك، وأمّا أن يكون العامل في إذا نفس النجم الذي أريد به القرآن، قاله أبو البقاء، وفيه نظر، إذا أريد أنه اسم لهذا الكتاب المخصوص. وقد يقال: إن النجم بمعنى المنجم، كأنه قيل: والقرآن المنجم في هذا الوقت.

قال التقي السبكي في تفسيره: ويحتمل أن يؤخذ من فعل القسم معنى التعظيم، ويجعل هو العامل في إذا، ويحتمل أن يقال: إن إذا شرطية على بابها، وجوابها محذوف يدل عليه القسم، لكن تقديره خبر لا إنشاء، وجملة الشرط وجوابه المحذوف معترضة بين قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾، وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ [النجم: ٢].

قال الإمام الرازي: الفائدة في تقييد القسم بالنجم بوقت هويه إبه إذا كان في وسط السماء بعيدًا عن الأرض لا يهتدي به الساري؛ لأنه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال، فإذا زال تبين بزواله، وتميز جانب عن جانب. كذلك النبي ﷺ خفض جناحه للمؤمنين، وكان على خلق عظيم. وخصّ الهوى دون الطلوع لعموم الاهتداء به في الدين والدنيا، أمّا الدنيوي فلما ذكر. وأمّا الديني فكما قال الخليل ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦].

وفيه لطيفة وهي: أن القسم بالنجم يقتضي تعظيمه، وقد كان من المشركين من يعبده، فنبه سبحانه على عدم صلاحيته للألوهية لهويه وأفوله. قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم:٢]، هذا جواب القسم، قال الزمخشري: والضلال نقيض الهدى، والغي نقيض الرشد؛ أي: هو مهتد راشد، وليس كما تزعم، ومن من نسبتكم إياه إلى الضلال والغي.

وقال الرازي ما ملخصه: وتحقيق الفرق - يعني بين الضلال والغي - أن الضلال أعم استعمالاً في المواضع، تقول: ضلّ بعيري ورحلي، ولا تقول: غوى، فالمراد من الضلال أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقًا أصلاً.

والغواية ألّا يكون له طريق إلى مقصده طريقًا أصلاً. والغواية ألّا يكون له طريق إلى مقصد مستقيم، فالضال كالكافر، والغاوي كالفاسق، والمعنى أنه على الطريق، وأن طريقه مستقيمة.

قال ابن القيم: نفى الله سبحانه وتعالى عن رسوله الضلال المنافي للهدى، والغي المنافي للرشاد، ففي ضمن هذا النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشد، فالهدى في عمله والرشد في عمله، وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد، وبهما سعادته وصلاحه.

وقوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ يعني به النبي ﷺ والخطاب لقريش، ولفظة صاحب تضاف تارة إلى المصحوب الأدنى كما هنا، وتارة إلى الأعلى كقولنا: صاحب رسول الله ﷺ وتأمل كيف قال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، ولم يقل: «محمدًا» تأكيدًا لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمرًا واحدًا قط.

وقد نبّه تعالى على ذلك بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٩] وبقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ [النجم: ٣]، نزلت لمّا قالت قريش أن محمدًا تقوّل القرآن من تلقاء نفسه، وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ دليل على أنه ما ضل وما غوى، تقديره: كيف يضل أو يغوي وهو لا ينطق عن الهوى؟! وإنما يضل من اتبع هواه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالى أولاً: ما ضل وما غوى بصيغة الماضي، وقال هنا: وما ينطق بصيغة المضارع، وهو ترتيب في غاية الحسن؛ أي: ما ضل حين اعتزلكم وما تعبدون، وما غوى حين اختلى بنفسه، وما ينطق عن الهوى الآن حين أرسل إليكم، وجعل شاهدًا عليكم فلم يكن أولاً ضال ولا غاويًا، وصار الآن منقذًا من الضلال ومرشدًا وهاديا.

ولم يقل: وما ينطق بالهوى؛ لأن نفي نطقه عن الهوى، وأبلغ فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به؟ فتضمن نفي الأمرين نفي الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن النطق، فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد لا الغي والضلال، فعن على ذلك على بابها، وهو أولى من جعلها بمعنى الباء؛ أي: وما ينطق بالهوى؛ أي: ما يتكلم بالباطل[1].

والهوى مقصور مصدر هويته من باب تعب، وهو محبة من النفس الأمارة، وإنما سُميّ الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال «ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ، وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: فَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ: فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ

---

(١) قال ابن عادل: أي ما يصدر عن الهوى نُطْقُهُ (فعن) على بابها. وقيل: بمعنى الباء، أي ما ينطق بالهوى يريد لا يتكلم بالباطل، وذلك أنهم قالوا: إنّ محمداً يقول القرآن من تلقاء نفْسه.

وفي فاعل (ينْطقُ) وجهان:

أحدهما. هو ضمير النبي ﷺ وهو الظاهر.

والثاني: أنه ضمير القرآن كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩].

وَالرِّضَا، وَخَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ. وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»[١]، رواه البزار عن أنس.

وقال «**مَا تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ مِنْ إِلَهٍ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ** اللهِ، أَعْظَمُ مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنْ هَوًى مُتَّبَعٍ»[٢] رواه الطبراني عن أبي أمامة.

قيل: كان على خاتم بعض الحكماء: «من غلب هواه على عقله افتضح». وقال ابن دريد في مقصورته:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٤]، قال الإمام الرازي: هذا تكملة للبيان، وذلك أنه تعالى لمَا قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ كأن قائلاً يقول: فماذا ينطق أعن الدليل والاجتهاد؟ فقال: لا، إنما ينطق عن حضرته بالوحي، وهذا اللفظ أبلغ من أن لو قيل: هو وحي يوحى، وفيه فائدة غير المبالغة، وهو أنهم كانوا يقولون: هو قول كاهن، هو قول شاعر، فالمراد نفي قولهم، وذلك يحصل بصيغة النفي، فقال: ما هو كما يقولون، وزاد: بل هو ﴿وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

وكلمة: ﴿إِنْ﴾ استعملت مكان ما للنفي، كما استعملت ما للشرطية مكان إن، وهو ضمير يعود على المصدر المفهوم من الفعل وهو ينطق؛ أي: ما نطقه إلا وحي يوحى، وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائدًا إلى القرآن كالكلبي ومقاتل، وادّعى عليه ابن عطية الإجماع، فإن عوده إلى القرآن عود على غير مذكور، ولم يشمل جميع نطق النبي ﷺ وعوده إلى النطق المذكور يعم نطقه بالقرآن والسنة، وإن كليهما وحي، وعلى عوده إلى النطق هو بمعنى المنطوق به؛ لأن النطق لا يوحى، وإنما يوحى المنطوق به.

واختار التقي السبكي أن يكون الذي يعود عليه الضمير ما عنه النطق، وفهم ذلك من قوله: ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾ كأنه قال: وما ينطق عن الهوى ما ينطق إلا عن الوحي، وسياق الكلام يرشد إلى هذا المعنى، وقوله: ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة لوحي،

(١) رواه البيهقي في «الشعب» (١٥/ ٣٠٠).
(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٧/ ١١٠).

وفائدة المجيء بهذا الوصف أنه ينفي المجاز؛ أي: هو وحي حقيقة لا مجرد تسمية، كقولك: هذا قول يقال، وقيل: تقديره يوحى إليه، ففيه مزيد فائدة.

واستدلّ على أن جميع نطقه بالقرآن والسنة وحي بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] وهما القرآن والسنة، ولكن القرآن وحي يتلى، والسنة وحي لا يتلى.

وبما روى الدارمي عن يحيى بن أبي كثير قال: كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسُّنّة كما ينزل عليه بالقرآن، ومثله يروى عن حسان بن عطية.

وبما روى أبو داود وغيره من حديث المقدام بن معد يكرب عن النبي ﷺ **«أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَه»**[١]، وفي «الصحيحين»: **«أن رجلاً سأل النبي ﷺ وهو بِالْجِعْرَانَةِ كَيْفَ تَرَى فِي رَجُلٍ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ فِي جُبَّةٍ بَعْدَ مَا تَضَمَّخَ بِالطِّيبِ؟ فَأَشَارَ عُمَرُ إِلَى يَعْلَى بِيَدِهِ أَنْ تَعَالَ، فَجَاءَ يَعْلَى فَأَدْخَلَ رَأْسَهُ، فَإِذَا النَّبِي مُحْمَرُّ الْوَجْهِ، يَغِطُّ كَذَلِكَ سَاعَةً، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَقَالَ: أَيْنَ الَّذِي يَسْأَلُنِي عَنِ الْعُمْرَةِ آنِفًا؟ فَالْتُمِسَ الرَّجُلُ فَأُتِيَ بِهِ، فَقَالَ: أَمَّا الطِّيبُ الَّذِي بِكَ فَاغْسِلْهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَأَمَّا الْجُبَّةُ فَانْزِعْهَا، ثُمَّ اصْنَعْ فِي عُمْرَتِكَ كَمَا تَصْنَعُ فِي حَجِّكَ»**[٢].

وروى الإمام أحمد وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد أحفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فاسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **«اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنِّي إِلَّا حَقٌّ»**[٣].

وروى الإمام أحمد وغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ لَيْسَ بِنَبِي مِثْلُ الْحَيَّيْنِ أَوْ مِثْلُ أَحَدِ الْحَيَّيْنِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا رَبِيعَةُ مِنْ مُضَرَ فَقَالَ: إِنَّمَا أَقُولُ مَا أُقَوَّلُ»**[٤] فقوله: أقوّل

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٣٧/ ١٠٧)، والطبراني في «الشاميين» (٢/ ١٣٧).
(٢) رواه البخاري (١٤/ ٢٤٢)، ومسلم (٧/ ٣٨٤).
(٣) رواه أحمد في «مسنده» (١٤/ ١٩٥).
(٤) رواه أحمد في «مسنده» (٤٨/ ٣٢٢).

الثاني بضم الهمزة وفتح القاف والواو المشددة أي: ما يقوله الله تعالى من الوحي.

وقد احتج بهذه الآية من لم ير الاجتهاد للنبي وأجيب عنه: بأنه إذا أوحي إليه بأن يجتهد كان اجتهاده، وما يسند إليه وحيًا.

قال البيضاوي: وفيه نظر؛ لأن ذلك بالوحي لا الوحي أي يكون ما يسند إلى الاجتهاد بسبب الوحي لا نفس الوحي، قال صاحب «الكشف»: هذا غير قادح؛ لأنه بمنزلة أن يقول الله تبارك وتعالى لنبيه: متى ظننت كذا فهو حكمي، ورد بأن الوحي هو الكلام الخفي الذي يدرك بسرعة ولا يندرج الحكم الاجتهادي بما ذكره تحته، ولعلّ الأولى أن يندرج ما يثبت بالوحي فيه بعموم المجاز، وفيه نظر، فإن وصف الوحي بقوله: ﴿يُوحَىٰ﴾ لرفع احتمال المجاز، وأيضًا فيأباه.

قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: ٥] لأن ما يسند إلى الاجتهاد ليس من تعليمه فليتأمل.

وقد منع الاجتهاد له طائفة، وجوّزه قوم في الحروب، والآراء دون الأحكام، وتوقف فيه كثيرون، والصحيح جوازه ووقوعه، وهو قول الشافعي رحمه الله وأبي يوسف، وقد يتمسك المنافع من ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، ويتمسك المجيز بقوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وهو محتمل؛ لأن يراد به أنه أراه بالوحي ومن أدلة الوقوع.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]

عوتب على استبقاء أسرى بدر بالفداء، وعلى الإذن لمن ظهر نفاقهم في التخلف في غزوة تبوك، ولا يكون العتاب فيما صدر عن وحي فيكون عن اجتهاد.

وقال التقي السبكي في تفسيره: ومن أقوى أدلة القائلين بالوقوع - يعني في غير الحروب - قول النبي ﷺ «إِلَّا الإِذْخِرَ»[1] عقب ما قيل له: «إلا الإذخر»، ونحو ذلك وليس قاطعًا لاحتمال أن يكون أوحي إليه في تلك اللحظة.

---

(١) رواه البخاري (٩/ ٧٨)، ومسلم (٨/ ٤٧٦).

قوله تعالى ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ أخبر سبحانه وتعالى عن وصف من علمه الوحي بما يعلمه أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلالة والغواية، وعَلّمه صفة للوحي؛ أي: علمه إياه، فالهاء عائدة إلى صاحبكم وهو النبي ﷺ وهو الظاهر، ويكون المفعول الثاني محذوفًا؛ أي: علّم شديد القوى صاحبكم - أي: النبي ﷺ - الوحي أي الموحى به، ويجور أن يكون للوحي، فيكون المفعول الأوّل محذوفًا؛ أي: علّم الوحي شديد القوى صاحبكم النبي ﷺ.

وشديد القوى هو جبريل، أي: قواه العلمية والعملية كلها شديدة، وفي ذلك مدح للمعلم وهو مدح للمتعلم فلو قال: علّمه جبريل، ما كان يحصل للنبي فضيلة ظاهرة، وفيه رد عليهم حيث قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤] لم يعلمه أحد، فقيل: بل علّمه شديد القوى، وفيه الوثوق بقول جبريل - عليه السلام لوصفه بذلك، وهو شديد القوى، وهي تشمل العملية والعلمية، وذلك مما يزيد المُعلم وثوقًا وقوة.

وشديد القوى من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها؛ أي: ملك شديد قواه، والإضافة غير حقيقية؛ لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، وهو جبريل على قول ابن عباس، وأكثر المفسرين، وقال الحسن: هو الله تعالى، والشديد هو البيِّن الشدّة، والقوى: جمع قوة.

وقد روى ابن عساكر عن معاوية بن قرة قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما أحسن ما أثنى عليك ربك ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ [التكوير: ٢١، ٢٢] ما كانت قوتك وما كانت أمانتك؟ قال: أمّا قوتي: فإني بعثت إلى مدائن قوم لوط وهي أربع مدائن، وفي كل مدينة أربعمئة ألف مقاتل، سوى الذراري فحملتهم من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماء أصوات الدجاج ونباح الكلاب، ثم هويت بهن فقلبتهن، وأمّا أمانتي: فلم أؤمر بشيء فعدوته إلى غيره».

وقال محمد ابن السائل: من قوة جبريل أنه اقتلع مدائن قوم لوط من الماء الأسود فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء، حتى أسمع أهل السماء نباح كلابهم وصياح ديكتهم، ثم قلبها، ومن قوته أيضًا: أنه أبصر إبليس يكلم عيسى

ابن مريم عليه السلام على بعض عقاب الأرض المقدسة، فنفخه بجناحه نفحة ألقاه بأقصى جبل بالهند، ومن قوته أيضًا: صيحته بثمود في عددهم وكثرتهم فأصبحوا جاثمين خامدين، ومن قوته: هبوطه من السماء على الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين وصعوده إليها في أسرع من طرفة عين.

قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦] أي: ذو قوة، كما رواه الفريابي عن مجاهد، ويؤيده قوله «**لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**»[1] رواه أحمد وغيره، وقيل: ذو جزالة في الرأي وكمال في العقل، وقال ابن عباس: ذو منظر حسن، رواه ابن جرير، وقيل غير ذلك، ولا تنافي بين الأقوال لأنه متصف بها.

قال الفراء: وأصل المرة: الفتل، تقول: فتل الحبل ممر أي محكم شديد الفتل، وقد أمررته؛ أي: أدرت في الفتل بعضه إلى بعض، فإن قيل: على القول بتفسير المرة بالقول قد تقدّم كونه شديد القوى، فكيف تكون قواه شديدة وله قوة؟ أجيب: بأن إفراد مرة بالذكر ربما يكون لبيان أن قواه المشهورة شديدة، وله قوة أحرى خصّه الله تعالى بها، على أنا نقول: المراد: ذو شدة، وهي غير القوة، والتقدير: علّمه من قواه شديدة، وفي ذاته أيضًا شدة، فإن الإنسان ربما يكون كبير القوّة صغير الجثة، أو يقال: إنه أراد بقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ أي: قوة العلم، وبقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: شدة في الجسم، فقدّم العلمية على الجسمية، كما قال تعالى ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

قوله تعالى: ﴿... فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝﴾ [النجم: ٦، ٧] الفاء سببية، فإن التشكل له بشكله الذي فطر عليه تسبب عن شدة قوته، وقدرته على الخوارق، أو عاطفة على علمه؛ أي: علمه على غير صورته الأصلية، ثم استوى على صورته الأصلية، وهذا بناء على أن الضميرين لجبريل، وهو قول الجمهور، يعني: استقام جبريل على صورته الحقيقية، أو ظهر في صورته التي خلقه الله تعالى عليها؛ لأنه كان يأتي النبي ﷺ أن يريه نفسه في الصورة التي خلقه الله تعالى عليها، فأراه نفسه مرتين، مرة في الأرض، ومرة في السماء، فأمّا في الأرض ففي الأفق الأعلى، وكان النبي ﷺ بجبل حراء، فطلع له جبريل من

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٤/ ٢١٦)، وأبو داود (٥/ ١٨٢)، والترمذي (٣/ ١١٤).

المشرق فسدّ الأفق إلى المغرب، فخرّ النبي ﷺ مغشيًا عليه، فنزل جبريل إليه في صورة الآدميين، وضمّه إلى نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، فلمّا أفاق النبي ﷺ قال: يا جبريل ما ظننت أن الله تعالى خلق أحدًا على مثل هذه الصورة، فقال: يا محمد إنما نشرت جناحين من أجنحتي، وإن لي ستمائة جنح، سعة كل جناح يسد ما بين المشرق والمغرب، فقال: إن هذا لعظيم. فقال: وما أنا في جنب ما خلق الله تعالى إلا يسير، ولقد خلق الله تعالى إسرافيل له ستمائة جناح، كل جناح قدر جميع أجنحتي، وإنه ليتضاءل - بالضاد المعجمة والهمزة أحيانًا - من مخافة الله تعالى، حتى يكون قدر الوصع - بفتح الواو والصاد والعين المهملة - يعني: العصفور الصغير.

ويدل على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾ [التكوير: ٢٣] وهذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء بل قبلها ورسول الله ﷺ في الأرض أوائل البعثة بعد فترة الوحي كما قاله ابن كثير.

وأمّا في السماء فعند سدرة المنتهى ليلة الإسراء، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ [النجم: ١٣، ١٤] ولم ير جبريل عليه الصلاة والسلام أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا نبينا ﷺ تينك المرتين، وقيل: استوى بمعنى استولى بقوته على ما جعل له من الأمر، وهو مبتدأ عائد لجبريل كما تقدم، و﴿بِٱلْأُفُقِ﴾ خبره، والجملة حال من فاعل استوى، أو أنها جملة مستأنفة أخبر الله تعالى بذلك، والأفق بضمتين أو بضمة فسكون، مثل عسر، وعسر الناحية من الأرض ومن السماء، والجمع آفاق، والمراد به: مطلع الشمس كما قاله مجاهد، ووصف الأفق بالأعلى، قال الواحدي: ليس المراد به الأعلى في السماء، وإنما المراد جانب المشرق، وهو فوق جانب المغرب، فهو أعلى منه في صعيد الأرض لا في الهواء، وقيل: إن الضميرين في استوى وفي هو لله تعالى، وهو قول الحسن على معنى العظمة والقدرة والسلطان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ [النجم: ٨] الدنو هو القرب، إمّا حسًّا وإمّا معنىً، والتدلي هو الامتداد من علو إلى سفل، هذا أصله، ثم استعمل في القرب

من العلو، ويكون أيضًا حسًا أو معنى، فالقرب المستفاد من التدلي أخص من القرب المستفاد من الدنو، وبهذا يحسن عطفه عليه، وتقديم الدنو تقديمًا للأعم على الأخص. وهذا أولى من قول من قال: إن هذا من التقديم والتأخير. وإن المعنى: ثم تدلى من الأفق فدنا؛ لأن الأصل عدم ذلك. وأولى من قول من قال: إن معنى دنا فتدلى واحد؛ لأن التأسيس أولى من التأكيد، وقيل: بأن دنا بمعنى قصد القرب من النبي ﷺ وتحرك عن المكان الذي كان فيه. فتدلى فنزل إلى النبي ﷺ.

وقيل: فتدلى؛ أي: فتدلل من الدلال فتكون ألفه مبدلة من لام، قال الجوهري: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ أي: تدلل، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣﴾ [القيامة: ٣٣] أي يتمطط، والضمير المسند إليه دنا فتدلى عائد إلى جبريل، ما قاله الجمهور رأى دنا جبريل من النبي ﷺ بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فتدلى على النبي ﷺ والمعنى: إن النبي ﷺ لما رأى من عظمة جبريل ما رأى وهاله ذلك رده الله تعالى إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها، وقرب من النبي ﷺ.

وقال آخرون: الضمير عائد إلى الرب؛ أي: دنا الرب سبحانه وتعالى من سيدنا ومولانا محمد فتدلى، وهذا على سبيل المجاز؛ لأن دنو الله من العبد، ودنو العبد من الله تعالى بالرتبة والمكانة والمنزلة، وإجابة الدعوة وإعطاء الأمنية لا بالمكان والمسافة والنقلة. وهذا القول يحكى عن ابن عباس وأنس، ولم يقل أحد أن المراد الدنو من الله حسًا كما قد يتوهمه من يقول بالجهة، بل ما ذكرناه من تعظيم المنزلة، وتشريف الرتبة، وإشراق أنوار المعرفة، ومشاهدة أسرار الغيب والقدرة وبسط الأنس والإكرام.

قال ابن عطية: والصحيح عندي أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل بدليل قوله ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ فإن ذلك يقتضي نزلة متقدمة. وما روي قط أن سيدنا ومولانا محمدا رأى ربه قبل ليلة الإسراء. انتهى.

قال الإمام التقي السبكي: ليس في قوله: ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ صراحة بأنها قبل ليلة الإسراء، فقد يكون رآه فيها مرتين.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٩]، القاب يطلق على ما بين المقبض والسية من القوس، والسية هي الفرضة التي يوضع فيها الوتر. ولكل قوس قابان، وقيل: القاب حيث الوتر من القوس، قاله مجاهد، ويطلق القاب أيضًا في اللغة على القدر والقوس هي التي يرمى بها، وقيل: المراد بها الذراع؛ لأنه يقاس به الشيء، قال بعضهم: وليس المراد في الآية القاب، وإنما المراد القدر والقوس الذراع، ورجح هذا القول بما أخرجه ابن مردويه بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: القاب: القدر، والقوسان: الذراعان.

ويؤيده أنه لو كان المراد به القوس التي يرمي بها لم يمثل بذلك ليحتاج إلى التثنية، فكان يقال: قاب رمح أو نحو ذلك، وقد قيل: إن المراد القوس، ولكنه جاء في الآية على القلب، والمراد: فكان قابي قوس فقلبه؛ لأن لكل قوس قابين بناء على أنه ما بين القبضة إلى السية، وعلى كل ففي الآية مضافات محذوفات يضطر لتقديرها؛ أي: فكان مقدار مسافة قربه منه مثل مقدار مسافة قاب قوسين.

فإن قلت: من هو المحدث عنه في الآية الذي شبه قربه بقاب قوسين؟

قلت: هو جبريل كما نقله القاضي عن الجمهور، وقال الحافظ عماد الدين ابن كثير: إنه هو الصحيح في التفسير، كما دلّ عليه كلام أكابر الصحابة ﷺ.

وقد روى الشعبي عن مسروق ﷺ قال: قلت لعائشة: رضي الله عنها ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ قالت: ذاك جبريل.

قال ابن القيم: لأن جبريل هو الموصوف بما ذكر من أوّل السورة إلى قوله ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ هكذا فسّر النبي ﷺ في الحديث الصحيح لعائشة قالت عائشة ﷺ: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «**ذَاكَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا إِلَّا مَرَّتَيْنِ**»[1] رواه مسلم.

ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك، ثم ساق وجوهًا سبعة دالة على ذلك، وأمّا ما وقع في البخاري من رواية شريك عن أنس قال: «ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى» فقد تكلم الناس فيه وقالوا: إن شريكًا خلط فيه، وذكر أمورًا منكرة.

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٥٦/ ٣٥٥).

لكن قال ابن القيم: إن الدنو والتدلي الذي في حديث شريك غير هذا. وجزم ابن كثير بأن الدنو والتدلي في حديث شريك غير الذي في الآية، وقال الإمام الرازي في تفسيره: فكان قاب قوسين؛ أي: فكان بين جبريل وسيدنا ومولانا محمد مقدار قوسين أو أقل، وهذا على استعمال العرب وعادتهم، فإن الأميرين منهم أو الكبيرين إذا اصطلحا وتعاقدا خرجا بقوسيهما فجعل كل واحد منهما قوسه بطرف قوس صاحبه، ومن دونهما من الرعية يكون كفه بكف صاحبه فيمدان باعيهما لذلك. فسمي مبايعة.

وقوله ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ قال ابن القيم: أو هنا ليست للشك بل لتحقيق قدر المسافة، وإنها لا تزيد على قوسين البتة، كما قال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾ [الصافات: ١٤٧] تحقيقًا لهذا العدد، وإنهم لا ينقصون عن مائة ألف رجلاً واحدا، ونظيره قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾ [البقرة: ٧٤] أي: لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها، وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل أو في هذا الموضع بمعنى بل، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرائي، ومن قول من جعلها بمعنى الواو. فتأمله.

وأدنى أفعل تفضيل، والمفضل عليه محذوف؛ أي: أدنى من قاب قوسين؛ أي: أقرب، والمعنى: فيما تقدّرون أنتم والله تعالى عالم بالأشياء على ما هي عليه، لا تردد عنده، ولكنه خاطبنا على ما جرت عادة المخاطبة فيما بيننا إذا قدّرنا الشيء، تقول: هذا قدر رمحين أو أنقص.

إن قلت: إذا كان القرب المذكور بين جبريل وبين النبي ﷺ كما ذهب إليه الجمهور فأي فائدة في ذلك وقد علمنا أن جبريل كان يأتي النبي ﷺ، وفي بعض المرات قد أسند ركبتيه إلى ركبتيه وهو أقرب من قدر قوسين أو قوس واحد؟ وإن أريد قرب المكانة منه فذهب أهل السنة أن النبي ﷺ أفضل من جبريل فكيف يذكر في سياق تشريفه ذكر مكانته منه؟

قلت: قالوا إن جبريل مع عظمة أجزائه وكثرتها حتى سد الأفق بجناحه دنا من النبي ﷺ في غير تلك الصورة حتى قرب منه بعد ما رآه على الصورة الأولى.

وفي ذلك بيان قدرة الله تعالى، ومعنى الآية ذلك والله تعالى أعلم بمراده.

وأمَّا إذا كان القرب فيما بين النبي ﷺ وبين الله تعالى كما ذكر في حمل الآية على المكانة ففيه فائدة عظيمة، وبيان لشرف النبي ﷺ واختصاصه، وقد سئل أبو العباس بن عطاء عن هذه الآية فقال: كيف أصف لكم مقامًا انقطع عنه جبريل وميكائيل وإسرافيل ولم يكن إلا سيدنا ومولانا محمد وربه عز وجل.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١٠][1] الضمير في أوحى الأوّل لجبريل على نسق ما تقدم، وفي عبده لله، والمراد به سيدنا ومولانا محمد وفيه إضمار قبل الذكر؛ لأنه لم يتقدم ذكر الله تعالى لكنه معلوم، كقوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي: الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] فإنه لم يجر ذكر الأرض لكنه معلوم، والضمير في أوحى الثاني يجوز أن يكون لجبريل كما هو الموافق للنسق؛ أي: أوحى جبريل لعبد الله محمد، ما أوحى جبريل ففيه تفخيم وتعظيم للموحى، ويجوز أن يكون لله؛ أي: أوحى جبريل لعبد الله ما أوحى الله تعالى إليه، ويجوز أن يكون الضمير في أوحى الأوّل لله والمراد بعبده هو محمد؛ أي: أوحى الله تعالى إلى عبده سيدنا ومولانا محمد ويجوز أن يكون المراد بعبده جبريل ﷺ؛ أي: أوحى الله تعالى إلى عبده جبريل، والضمير في أوحى الثاني يجوز أن يكون لله؛ أي: أوحى الله تعالى إلى عبده سيدنا ومولانا محمد ما أوحى الله تعالى إليه، ففيه تفخيم وتعظيم أيضًا للموحى، ويجوز أن يكون لجبريل؛ أي: أوحى الله تعالى لعبده سيدنا ومولانا محمد ما أوحى جبريل إليه، فيكون إيحاء الله إليه بواسطة جبريل، وعلى أن المراد بعبده جبريل، والضمير في أوحى الثاني لله تعالى، فالمعنى: أوحى الله تعالى لعبد جبريل ما أوحى الله تعالى إليه ففيه تفخيم أيضًا، وعلى أن المراد بعبده جبريل والضمير في أوحي الثاني له، فالمعنى: فأوحى الله تعالى لعبده جبريل ما أوحى جبريل لمحمد أو ما أوحى جبريل إلى كل رسول، لأنه أمين الله تعالى على وحيه.

---

(١) قال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: ١١]؛ أي: لم يوهم القلب العين غير الحقيقة بل صدق رؤيتها، وقيل: ما أنكر قلبه ما رأته عينه، الشفا بتعريف حقوق المصطفى - (ج ١ / ص ١٩٥).

وما في ما أوحى يحتمل أن تكون مصدرية؛ أعني: المراد بها المصدر، فيكون المعنى تفخيم الوحي الذي أوحاه، ويحتمل أن تكون موصولة؛ أي: الذي أوحاه الله تعالى إليه من الأحكام وغيرها، وقد اختلف في المراد بما أوحى على وجوه فقيل: الصلاة، وقيل: إن أحدًا من الأنبياء لا يدخل الجنة قبلك ولا تدخل أمة قبل أمتك، وقيل: إن ما للعموم، والمراد: كل ما جاء به جبريل، وسُئل أبو الحسن النوري عنه فقال: أوحى إليه سرًا بسر من سر في سر، وفي ذلك يقول القائل:

بين المحبين سر ليس يفشيه ... قول ولا قلم للخلق يحكيه

سر يمازجه أنس يقابله ... نور تحير في بحر من التيه

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ [النجم: ١١] أخبر الله تعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه بهذه الآية، وقرأ الجمهور بتخفيف الذال من كذب، وهو متعد، و﴿مَا رَأَىٰ﴾ مفعوله، وما موصولة، والعائد محذوف؛ أي: الذي رآه، وفاعل رأى ضمير يعود على النبي ﷺ و﴿ٱلْفُؤَادُ﴾ هو القلب، والمراد فؤاد سيدنا ومولانا محمد والمعنى: ما كذب قلب محمد ما رآه محمد بعينه، وأن القلب صدق العين، وليس كمن رأى شيئًا على خلاف ما هو به فكذب فؤاده بصره.

وقرأ هشام وأبو جعفر بتشديد الذال من كذب أي ما كذّب الفؤاد ما رآه البصر، ولم يقل: إنما رآه البصر خيال لا حقيقة له، بل صدّقه على ما رآه، وهذا بناء على أن الرائي البصر، وأمَّا على القول بأن الرائي الفؤاد فالمعنى: ما كذب الفؤاد ما رآه الفؤاد؛ أي: لم يقل أنه جني أو شيطان، بل تيقن أن ما رآه بفؤاده صدق صحيح.

و«ال» في الفؤاد قال الرازي: لتعريف ما علم حاله لسبق ذكر سيدنا ومولانا محمد في قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ وفي قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ وغير ذلك، وقيل: أل للجنس؛ أي: جنس الفؤاد، ويكون المعنى: ما كذب الفؤاد ما رأى سيدنا ومولانا محمد؛ أي: القلوب تشهد بصحة ما رآه محمد واختلفوا في المرئي ما هو؟ فقيل: جبريل رآه وله ستمائة جناح كما ثبت عن ابن مسعود في الصحيح في تفسير هذه الآية.

وفي رواية عنه: «رأى جبريل عليه حلتان على رفرف أخضر قد ملأ ما بين السماء والأرض»، كما رواه الفريابي والترمذي وصححاه، وقيل: المرئي الآيات العجيبة وقيل: المرئي هو الله سبحانه وتعالى، وهو قول ابن عباس وأنس وأبي أمامة وغيرهم من الصحابة والتابعين.

ثم منهم من يقول: رآه بعينه وهو المشهور عن ابن عباس، ومنهم من يقول: رآه بقلبه وهو مروي عن ابن عباس أيضًا وعن غيره، وسيأتي الكلام على رؤية الله تعالى وما قيل فيها في الوجه التاسع والعشرين من فوائد القصة.

قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم: ١٢] أنكر تعالى عليهم مكابرتهم وجحدهم له على ما يراه كما ينكر على الجاهل مكابرته لعالم ومماراته على ما علمه، فقال مبتدئًا بهمزة الاستفهام الإنكاري: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أي: أفتجادلونه من المراء وهو الملاحاة والمجادلة، واشتقاقه من مريت الناقة مريًا إذا مسجت ضرعها لتدر، وعبّر بالمفاعلة في هذه القراءة إشارة إلى اجتهادهم في تشكيكه؛ لأن كلاً من المتجادلين يمري ما عند صاحبه؛ أي: يستخرجه من مري الشيء استخرجه، ومريت الفرس إذا استخرجت ما عنده من الجري بسوط أو غيره، وكان من حقه أن يتعدى بفي كقوله: جادلته في كذا، وإنما ضمن معنى الغلبة، فعدي تعديتها بعلى.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب: أفتَمْرُونه بفتح التاء وسكون الميم من غير ألف بعدها، أي: أفتجحدونه من مراه حقه إذا جحده، واختار هذه القراءة أبو عبيدة؛ لأن المنكرين كان شأنهم الجحد، وهو أكثر من المماراة، واختار غيره القراءة الأولى؛ لأن الجحود كان منهم في هذا وفي غيره، والذي اختص به الإسراء المجادلة؛ لأنهم قالوا: صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا التي في الطريق وغير ذلك مما جادلوه به.

وأيضًا فقد يجحد الشيء من لا يجادل فيه، ووضع الجدال ألّا يكون من جاحد، وإن اتفق من غير جاحد فهو متصور بصورة الجاحد، فكان الجدال أخص من الجحود.

وقال الزمخشري وتبعه البيضاوي: معنى أفتمارونه: أفتغلبونه في المراء،

من ماريته فمريته.

قال السبكي: وهو معنى جيد وورود «مريت» بمعنى: جحدت، في كلام العرب لا يدفع هذا لثبوت المعنيين لغة والتعدية بعلى على معنى الغلبة واضحة. وأمَّا على معنى الجحد فلتضمنه معنى الغلبة، فإن المماري والجاحد يقصدان بفعلهما غلبة الخصم.

وقال: على ما يرى بصيغة المضارع، والرؤية قد مضت، فإما أن يكون وضع المضارع موضع الماضي كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:١٠٢] في أحد تأويليه، ومذهب سيبويه جواز وضع المضارع موضع الماضي، وأمّا للإشارة إلى أنه ما نسي كما أنه لم يتهم، ولم يلتبس الأمر عليه، فالرؤية وإن مضت فهي عتيدة عنده؛ لتحققه بها وتيقنه إياها، فكأنه الآن ينظر، والمماراة في الشيء الحاضر المعاين أفحش وأشد جهلاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أخبر الله تعالى عن رؤيته لجبريل مرة بعد أخرى فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى. والثانية هذه كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى، قال الحافظ ابن كثير: هذه هي المرة الثانية الذي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله تعالى عليها، وكانت ليلة الإسراء، وقد روى الإمام أحمد بسند جيد كما قال الحافظ المذكور عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل على سدرة المنتهى له ستمائة جناح كل جناح منها قد سدّ الأفق تسقط من أجنحته التهاويل من الدر والياقوت ما الله به عليم، وأصل الحديث رواه مسلم. انتهى.

وأمَّا المرة الأولى فكانت في حراء أوائل البعثة كما تقدم، والواو في ولقد عاطفة، وجوز بعضهم أن تكون للحال، ورد بأن اللام تنافي ذلك؛ لأنها جواب القسم، والقسم لا يكون حالاً؛ لأن الحال خبر والقسم إنشاء والضمير المرفوع المستتر في ﴿رَآهُ﴾ للنبي وأمَّا البارز المنصوب ففيه خلاف حسبما تقدم.

فقال ابن مسعود وعائشة ومجاهد: هو عائد على جبريل، وقال ابن عباس وكعب الأحبار: هو عائد على الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: مرة أخرى. فعلة من النزول، أقيمت مقام المرة ونصبت نصبها على الظرف، إشعارًا

بأن الرؤية في هذه المرة كانت أيضًا بنزول ودنو، وحيث كان الضمير عائدًا على الله تعالى فالكلام في الدنوّ ما سبق من أنه على سبيل المجاز، والمراد: القرب المعنوي من الله تعالى مع تنزيهه تعالى عن الجهات، ولا يمتنع مع ذلك أن تتكرر رؤيته له في تلك الليلة.

وقيل: إن نزلة منصوبة نصب المصدر الواقع موقع الحال، والتقدير: ولقد رآه نازلاً نزلة أخرى، وإلى هذا ذهب الحوفي وابن عطية، والأول اقتصر عليه الزمخشري، وصدر به القاضي وحكى الثاني بقيل.

وقال الشهاب الحلبي المعروف بالسمين: وهذا - يعني الأوّل - ليس مذهب البصريين وإنما هو مذهب الفراء، ونقله عنه مكي، وقيل: إن نزلة منصوب على المصدر المؤكد، وقدره أبو البقاء مرة أخرى أو رؤية أخرى، قال الشهاب الحلبي: المذكور وفي تأويل نزلة برؤية نظر وقوله: ﴿أُخْرَىٰ﴾ يدل على سبق رؤية قبلها، وقد تقدّم ما يدل على ذلك، والمراد بالإتيان في هذه الآية، وهي: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ إلخ بالفعل المصدّر باللام القسمية، وكلمة قد المفيدة للتحقيق نفي الريبة عن المرة الأخيرة.

قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم: ١٤] عند: ظرف مكان لرآه، وظرف الفعل قد يكون فيه الفاعل أو المفعول أو كلاهما، ولا إشكال أن فيه ههنا النبي ﷺ وعند من يقول المرئي هو جبريل يصح أن يكون ظرفًا له، أو لهما معًا.

والسدرة: شجرة النبق رآها النبي ﷺ ليلة الإسراء، ورأى عندها جبريل في صورته الأصلية، وهي في السماء السابعة كما في حديث أنس رضي الله عنه، ووقع في حديث ابن مسعود أنها في السادسة، وحديث أنس هو قول الأكثر، وهو الذي يقتضيه وصفها بكونها التي ينتهي إليها علم كل نبي مرسل وكل ملك مقرب، وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله تعالى، أو من أعلمه.

ويترجح حديث أنس بأنه مرفوع، وحديث ابن مسعود بأنه موقوف، وقد جمع بينهما بأن أصلها في السادسة وأغصانها وفروعها في السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها.

قال مقاتل: وهي عن يمين العرش، قال الخليل: قد أظلت السموات

والجنة، قال بعضهم: وهي طوبى التي ذكرها الله تعالى في سورة الرعد، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام.

وفي «الكشاف» وهي رواية القصة: سبعين عامًا لا يقطعها ويستظل في الغصن منها مائة ألف راكب، ولو وضعت ورقة منها في الأرض لأضاءت لأهل الأرض، ورقها كآذان الفيلة ونبقها كقلال هجر، يخرج من أصلها أربعة أنهار، نهران ظاهران: النيل والفرات، ونهران باطنان في الجنة، فيها فراش من ذهب. وإنما قيل لها سدرة المنتهى؛ لأن علم الملائكة ينتهي عندها لا يجاوزها، ولم يجاوزها أحدًا إلا رسول الله ﷺ.

وقيل: لأنه ينتهي إليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله تعالى لا يعدوها.

وقيل: ينتهي إليها علم الخلائق وعلم كل عالم لا يعلم ما وراءها صعدا إلا الله تعالى، وقيل لأنه ينتهي إليها من مات على سنة نبينا سيدنا ومولانا محمد ﷺ وهم المؤمنون حقا وقيل غير ذلك.

والمنتهى: اسم مكان بمعنى موضع الانتهاء، أو مصدر ميمي بمعنى الانتهاء، كأنها في منتهى الجنة وآخرها.

وإضافة السدرة إلى المنتهى إمّا من إضافة الشيء إلى مكانه كقولك: أشجار بلدة كذا، فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعداه ملك ولا روح من الأرواح، أو من إضافة المحل إلى الحال فيه كقولك: كتاب الفقه، وعلى هذا فالتقدير سدرة عندها أو فيها منتهى العلوم، أو المراد بالمنتهى هو الله تعالى، وحينئذ يكون التقدير المنتهى إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢] فإضافة السدرة إلى المنتهى من إضافة الملك إلى مالكه، فالإضافة إليه كإضافة البيت إليه للتشريف والتعظيم، وسيأتي في الوجه الخامس والعشرين من فوائد القصة الكلام على السدرة أيضًا. وعلى ما يتعلق بها قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٥] أو عند سدرة المنتهى جنة المأوى، وهذه الجملة تحتمل الحال والاستئناف، والحال أظهر كما قاله السبكي، وهو تعريف لموضع جنة المأوى،

وإنها عندها سدرة المنتهى، وهي عن يمين العرش كما تقدم.

وقال ابن عباس وأكثر المفسرين: جنة المأوى التي تأوي إليها أرواح الشهداء، وقيل: أوى إليها آدم ﷺ إلى أن أخرج منها، وقيل: إن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها، وقيل: إن أرواح المؤمنين كلهم في جنة المأوى. وهي تحت العرش ينعمون بنعيمها.

وقالت عائشة وزر بن حبيش: جنة من الجنان، ومال إليه ابن عطية، والجنات كلها يأوي إليها المتقون. أراد الله تعالى أن يعظم مكان سدرة المنتهى بأن جعل الجنة عندها، وفي ذلك تعظيم لمكانها وتشريف له.

وقرأ علي بن أبي طالب وأبو الدرداء وجماعة من الصحابة والتابعين: «**جنة المأوى**» بالهاء في جنة، فعلاً ماضياً والهاء ضميراً مفعول يعود للنبي ﷺ والمأوى فاعل؛ أي: ضمه وستره إيواء الله تعالى وجميل صنعه، وقد أنكرت عائشة رضي الله عنها وجماعة معها هذه القراءة وقالوا: أجن الله تعالى من قرأها، وإذا ثبت قراءة هؤلاء فلا سبيل إلى ردِّها، ولكن المستعمل إنما هو أجنة رباعيًا، فإن استعمل ثلاثيًا تعدى بعلى، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾[الأنعام: ٧٦]، وقال أبو البقاء: هو شاذ والمستعمل أجنة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [النجم: ١٦]، قال ابن القيم: لما ذكر الله سبحانه وتعالى رؤية سيدنا ومولانا محمد لجبريل صلى الله عليهما وسلم عند سدرة المنتهى، استطرد منها وذكر أن جنة المأوى عندها، وأنها يغشاها من أمره وخلقه ما يغشى وهذا من أحسن الاستطراد وهو أسلوب لطيف جدًا في القرآن.

وإذ ظرف زمان لرآه نزلة أخرى ويغشى السدرة أي: يسترها، ومنه الغواشي أو من معنى الإتيان، يقال: فلان يغشاني كل وقت، أي: يأتيني بما يغشى، وفي التعبير بما تعظيم وتكثير لما يغشاها، وقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الدال على عظمة الله وجلاله ما لا يكتنهه النعت، ولا يحيط به الوصف، وقد جاء بيانه ففي «صحيح» مسلم وغيره، كما رواه ابن مسعود وابن عباس مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

قال: رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب، ورأيت على كل ورقة ملكًا يسبح الله تعالى، وقيل: ملائكة يغشونها كأنهم طيور يرتقون إليها متشوقين متبركين بها زائرين كما يزور الناس الكعبة.

وأخرج عبد بن حميد عن سلمة بن وهران. قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝﴾ [النجم: ١٦] قال: استأذنت الملائكة الرب تبارك وتعالى أن ينظروا إلى النبي ﷺ فأذن لهم، فغشيت الملائكة السدرة لينظروا إلى النبي ﷺ وروي مرفوعًا: غشيها من نور الله عز وجل حتى ما يستطيع أحد ينظر إليها. وقيل: لما غشيها ما غشيها تحولت ياقوتًا وزمردًا.

وفي الحديث مرفوعًا: «**يغشاهما ألوان لا أدري ما هي**»[١] وقيل: غير ذلك، ولا يقال إن هذا تكلف؛ لأن الله تعالى أبهم ما غشيها؛ لأن ما ثبت عن النبي ﷺ لا كلام فيه، وما ثبت عن الصحابة يكون توقيفيًا؛ لأن مثله لا يقال بالرأي. وإنما اختيرت السدرة لهذا الأمر دون سائر الأشجار؛ لأنها تختص بثلاثة أوصاف: ظل مديد، وطعم لذيذ، ورائحة ذكية. فشابهت الإيمان الذي جمع قولاً وعملاً ونية، فظلها كالعمل وطعمها كالنية ورائحتها كالقول، وأمَّا ما جاء من الأحاديث في النهي عن قطع السدر من قوله الذي رواه أبو داود وغيره: «**من قطع سدرة صوب الله برأسه في النار**»[٢] محمول على سدر الحرم كما زاده الطبراني في روايته في قوله يعني من سدر الحرم أو على من قطعه من فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثًا وظلما بغير حق يكون له فيه على ما قاله أبو داود.

وقد روى البيهقي أن أبا ثور سأل الشافعي ﷺ عن قطع السدر فقال: لا بأس به، وقد روي أن النبي ﷺ قال: «**اغسلها بماء وسدر**»[٣]، وقد احتج المزني بما احتج به الشافعي من إجازة النبي ﷺ أن يغسل الميت بالسدر، ولو كان حرامًا لم يجز الانتفاع به، والورق من السدر كالغصن، وقد سوى رسول الله ﷺ فيما حرم قطعه من شجر الحرم بين ورقة وغيره، فلمّا لم يمنع من ورق السدر دلّ على جواز قطع السدر.

---

(١) رواه ابن منده في الإيمان (٢/ ٧٢١)، والبغوي في شرح السنة (١١/ ١٥٠)، والآجري في الشريعة، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٩٤).

(٢) رواه أبو داود (٤/ ٣٦١)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ١٨٢).

(٣) رواه البيهقي في «الكبرى» (١/ ٧).

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧] وصف الله تعالى وتقدس في هذه الآية أدب النبي ﷺ في ذلك المقام وثبوته، ونفى عنه ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي العظماء إذا ورد على مقام يدهش فيه من التفاته يمينًا وشمالاً ومجاوزة بصره إلى ما بين يديه بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: ما مال، والزيغ: ميل البصر؛ أي: بصر النبي ﷺ ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: بصره؛ أي: ما تجاوز وامتد أمامه إلى حيث ينتهي.

قال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: ما زاغ البصر يمينًا ولا شمالاً، ولا جاوز ما أمر به، وكما أنه معنى الآية وصف أدب النبي ﷺ فهي متضمنة أيضًا لوصف قوة نظره ويقينه وقلبه لتحقيق الأمر ونفي وجوه الريب عنه، فلم يلتفت جانبًا يمينًا ولا شمالاً، ولا قصر عن كشف الأمر وحقيقته، ولا جاوزه ولا مد بصره إلى شيء غير المقصود مما رآه من الآيات، واستقبله من العجائب، وأثبت ما رآه إثباتًا مستقيمًا صحيحًا، وذلك غاية القوة والأدب، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها، وما جاوز ما أمر برؤيته، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه وإطراقه وإقباله على ما أريه دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يره مع ما في ذلك من ثبات الجأش وسكون القلب وطمأنينته، وهذا غاية الكمال.

وقد نزّه الله تعالى في هذه السورة علمه عن الضلال وقصده وعمله عن الغي ونطقه عن الهوى، وفؤاده عن تكذيب بصره، وبصره عن الزيغ والطغيان، وهكذا يكون المدح، هكذا هكذا وإلا فلا لا.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٨] قد أكدّ سبحانه وتعالى ما ذكره في هذه الآية بالقسم فقال: لقد رأى؛ أي: والله لقد رأى؛ أي: أبصر من آيات ربه وعجائبه الملكية والملكوتية ليلة المعراج، أو من آيات ربه الكبرى[1] الدالة على قدرته وعظمته، والآيات جمع آية وهي العلامة، ووصفها

(١) قال الإمام الرازي: في الكبرى وجهان:
أحدهما: أنها صفة لمحذوف تقديره لقد رأى من آيات ربه.
ثانيهما: صفة الآيات ربه، فيكون مفعول رأى محذوفًا تقديره: رأى من آيات ربه الكبرى آية أو شيئًا.

بالكبرى لتمييزها عن غيرها ولبيان نوعها، وآيات الله تعالى لا تحصى، أو لعظم الآيات الكبرى فلا يحاط بها، والشيء إذا لم يحط به فلا يدرك تعيينه، والكبرى: يجوز أن تكون مفعول رأى، ومن آيات ربه حال مقدمة على ذيها، وكلمة «**من**» للبيان؛ لأنه المناسب لمرام المقام، والتقدير: لقد رأى الآيات الكبرى من آيات ربه.

قال الشهاب الحلبي: وهذا هو الظاهر، ويجوز أن يكون الكبرى على إعراب كونها مفعولاً نعتًا لمفرد، والتقدير: لقد رأى من آيات ربه الآية التي هي كبراها وعظماها، بجعل الإسراء وما فيه من العجائب كالشيء الواحد، ويجوز أن تكون الكبرى نعتًا لآيات ربه، وهذا الجمع يجوز وصفه بوصف المؤنثة الواحدة، وحسنه هنا كونها فاصلة لتوافق الفواصل.

«وِمِنْ آيَاتِ رَبِّه»: مفعول رأى، و«**من**» للتبعيض، والتقدير: لقد رأى بعض آيات ربه الكبرى، ويحوز على كون الكرى نعتًا للآيات أن يكون المفعول الثاني لرأى محذوفًا، والتقدير: لقد رأى شيئًا عظيمًا من آيات ربه الكبرى، ومشى على ذلك البيضاوي، وأيّده بعضهم بأن المقام يقتضي التعظيم، وفيما ذكر تعظيم للمرئي.

واختلفوا في تعيين ما رآه من تلك الآية الكبرى، فقيل: جبريل في صورته، قال الإمام: والظاهر أن هذه الآيات غير تلك؛ لأن جبريل وإن كان عظيمًا لكن ورد في الأخبار أن لله ملائكة أعظم منه، و«**الكبرى**» تأنيث الأكبر، فكأنه تعالى قال: لقد رأى من آيات ربه الكبرى آيات هي أكبر الآيات، وقيل: المرئي السدرة، وقيل: ما رآه حين رقي به إلى السماوات، وما فوقها من عجائب الملكوت وغير ذلك.

وأمّا قول القرطبي: وقيل: هو ما رآه تلك الليلة في مسراه وعوده وبدئه، وهذا أحسن. فلا يناسب قوله في آية الإسراء: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

قال الإمام ما ملخصه: وهذه الآية تدل على أن النبي ﷺ لم ير الله تعالى ليلة المعراج، وإنما رأى آيات الله تعالى، وفيه خلاف، ووجه الدلالة أنه تعالى ختم قصة المعراج هاهنا برؤية الآيات.

وقال في أواخر قصة الإسراء ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن، فكانت الآية الرؤية، وكان أكبر شيء هو الرؤية. وقال ابن كثير: وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة إلى أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك، ولقال ذلك للناس.

قلت: لا دلالة في عدم ذكر الرؤية في الآيتين على عدم وقوعها؛ لاحتمال أنها وقعت وكتمت خوفًا من الإنكار، ومن توهم معارضتها للدلائل الدالة على عدم وقوعها في هذه الدار، ويحتمل دخولها فيما رآه من الآيات الكبرى، بل هي أكبرها، أو دلّ عليها قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء، ويستشهد بذلك، وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعة من الصحابة والتابعين ﷺ أجمعين.

وحيث انتهى الكلام على ذكر بعض فوائد هذه الآيات الشريفة فلنسق القصة على نسق واحد، وإن كانت مأخوذة من أحاديث متعددة؛ لتكون أبهج للسامعين وأنعش لقلوب المؤمنين، ونتكلم على بعض فوائدها إن شاء الله تعالى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال المصنف ﷺ: [فنقول: «بينما ....

قال الإمام الشارح ﷺ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله

وبعد. . . .

فهذه كلمات جمعتها على قصة المعراج رجاء أن ينتفع بها من يتصدّى إلى قراءتها ممن هو قاصر مثلي، جمعتها من الوجوه التي ذكرها مؤلفها العلامة النجم الغيطي ﷺ بعد ذكر القصة، ومتى قلت المؤلف فهو المراد، ومن شرح العلامة القليوبي وغيرهما.

ومما يفتح الله تعالى به مع عدم التطويل المؤدّي للسآمة، فأقول وأنا أفقر عباد الله تعالى حليف التقصير أحمد بن محمد الدرير، قال مؤلفه - نفعنا الله ببركاته - بعد أن تكلم على بعض فوائد آية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، إلخ [الإسراء: ١]، وآية: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، إلخ [النجم: ١]، وحيث انتهى الكلام على ذكر بعض فوائد هذه الآيات الشريفة فلنسق القصة على نسق واحد وإن كانت مأخوذة من أحاديث متعددة؛ لتكون أبهج للسامعين، وأنعش لقلوب المؤمنين، ونتكلم على بعض فوائدها - إن شاء الله تعالى - فنقول: بينما النبي ﷺ في الحجر عند البيت مضطجعًا بين رجلين إذ أتاه جبريل. . . إلخ.

أقول: «**بينما**»: ظرف زمان تضاف إلى الجمل الاسمية والفعلية وأصلها بين، فتولدت الألف من إشباع الفتحة ثم زيدت الميم وقد لا تزاد فيقال: بينا، ثم

النبي ﷺ عند البيت في الحجر مضطجعًا بين رجلين إذ أتاه جبريل وميكائيل

ضمنت معنى الشرط فلذا كانت لا بدّ لها من جواب، وجوابها لا بدّ أن يكون مقرونًا بإذ أو إذا الفجائيتين، والمعنى بين أوقات كون النبي ﷺ ... إلخ، ولم يقل بينما أنا مضطجعًا؛ لأن القصة مروية بالمعنى، ولذا كان غالب ضمائرها الغيبية، والنبي ﷺ فعيل بمعنى فاعل أو مفعول بهمز وبلا همز من النبأ؛ أي: الخبر أو النبوة بسكون الباء؛ أي: الرفعة.

وقوله: «**في الحِجْر**» - بكسر الحاء وسكون الجيم -؛ لأنه حجر عليه بجدار قصير مكان معروف ملاصق للبيت وفيه ستة أذرع من أصل البيت الشريف. وقيل: كله من البيت ورجح ويقال له: «الحطيم».

والصحيح: إن الحطيم ما بين البيت والمقام، إلا أن بعض الروايات في الحطيم بدل الحجر، فيتعين كما قال ابن حجر: إن المراد به الحجر؛ لأنه الذي ينام فيه، ويدل عليه رواية الحجر؛ لأنها تفسره.

سُمِّي حطيمًا؛ لأنه حطم عن مساواة البيت؛ أو لأن الذنوب تحطم؛ أي: تزال فيه أو غير ذلك.

وقوله: «**في الحجر**» خبر عن النبي ﷺ.

وقوله: «**عند البيت**» خبر بعد خبر أو حال، وفي نسخة: تقديم عند البيت على قوله في الحجر.

وقوله: «**مضطجعًا**» حال من ضمير النبي ﷺ؛ أي: واضعًا جنبه - أي: الأيمن - كما قيل بالأرض بين النوم واليقظة.

وقوله: «**بين رجلين**» ظرف مضطجعًا، والرجلان هما عمه حمزة وابن عمه جعفر بن أبي طالب تواضعًا منه مع علو مقامه، وفيه جواز نوم جماعة في محل واحد حيث لا تلاصق بعورة ولا ريبة.

وقوله: «**إذ أتاه**» جواب بينما وإذ للمفاجأة؛ أي: البغتة؛ أي: أوقات كون النبي ﷺ ...إلخ؛ إذ بغتة مجيء جبريل... إلخ، وقيل: بل هي لتوكيد المفاجأة المستفادة من بينما.

ومعهما ملك آخر، فاحتملوه حتى جاءوا به زمزم، فاستلقوه على ظهره، فتولاه منهم جبريل»، وفي رواية: ....

«**قوله: ومعهما ملَك**» بفتح اللام قيل: هو إسرافيل ويحتمل غيره.

«**وقوله: فاحتملوه**» أي: من غير إشعار الرجلين بذلك. وهذا الحمل مع الهيبة والوقار واللطف.

«**قوله: زمزم**» أي: إلى زمزم البئر المشهور قريبًا من البيت، وأصلها من ضرب جناح جبريل الأرض حين عطشت هاجر أم إسماعيل وعطش ابنها ﷺ وهو في المهد حتى حصل له الجهد، فصارت في تلك الأرض المعطشة التي ليس فيها أحد من الناس تطلع على الصفا تنظر هل أحد يمر بماء؟ ثم تنزل فتسير حتى تأتي المروة فتصعد عليها لتنظر أحدًا سبع مرات، فجاء جبريل فضرب الأرض بجناحه فتفجر الماء فصار يسيل على الأرض، فقالت له: زم زم يا مبارك فسميت زمزم.

«**قوله: فاستلقوه**» أي: طلبوا منه ذلك، أو ألقوه على ظهره بالهيبة والوقار.

«**قوله: فتولاه**» أي: تولى أمره منهم؛ أي: من بينهم، ولذا لم يقل منهما جبريل الذي هو أمين الوحي، ففيه إشارة إلى أنه الذي يستقل بالوحي حتى يمتلئ هذا الصدر الشريف الذي شقه جبريل علمًا، ويحيط بعلم الأولين والآخرين.

«**قوله: وفي رواية**» أي: أخرى عير المتقدمة فرج بالبناء للمفعول؛ أي: شق وفتح سقف بيتي، وفي الإتيان من السقف وشقه دون الإتيان من الباب إشارة إلى خرق العادة ابتداء، وإن ما سيكون في هذه الليلة كله خارق للعادة، وإنه يشق صدره وتشق له السماوات ويصعد به إلى العلو، والإضافة في بيتي لأدنى ملابسة إذ هو بيت أم هانئ بنت عمه أبي طالب - رضي الله عنها - وكان فيه، اشتهرت بكنيتها واسمها فاخته، وقيل: عاتكة، وقيل: هند، وفي رواية ثالثة: أتاني الملك وأنا في شعب أبي طالب، وجمع بين الروايات بأن البيت المذكور كان في شعب أبي طالب وكان نائمًا فيه؛ أي: مضطجعًا أو مستغرقًا في عجائب الملكوت لا نائمًا حقيقة بدليل رؤيته لانفراج السقف ونزول الملائكة منه.

«فرج سقف بيتي فنزل جبريل فشق من ثغره نحره إلى أسفل بطنه».

فاحتملوه حتى جاءوا به إلى المسجد وتركوه فيه، فجاء حتى اضطجع بين الرجلين فعادوا إليه واحتملوه إلى زمزم.

«**قوله: فشق من ثغره نحره**» مرتبط بقوله: فتولاه منهم جبريل أيضًا. لسان العرب ـ: والشق: القطع طولاً، والثُّغْرة[1] ـ بضم المثلثة وسكون الغين النقرة ـ والنحر: موضع القلادة، فثغره النحر هي المنخسف فوق الصدر الملاصق للنحر المسمَّاة باللبة[2] التي هي محل النحر؛ أي: الذكاة من الإبل.

«وقوله: **إلى أسفل بطنه**»؛ أي: إلى سرته، وفي رواية: إلى عانته والمراد قرب عانته فتوافق إلى سرته، وإنما بالغ في الشق؛ لأنه أبلغ في التعجب والمعجزة وقوّة فؤاده، وهذا من غير حصول ألم مع سرعة الالتئام. وظاهر الرواية أن الشق كان بآلة وهو كذلك عند جمع كالمنذري والنووي وغيرهم، وقيل بل ظاهر الروايات أنه كان بغير آلة، ولم يثبت أنه كان بسكين بيضاء مجلية، وما روي من أنه انتقع لونه أي صار كالنقيع أي: التراب فمحمول على المرّة الأولى وهو صغير عند مرضعته حليمة أي لينشأ مبرأ عما عليه الصبيان من اتباع الهوى والشيطان، وروي أنه شق ثانية عند بلوغه عشر سنين أي ليدخل سنّ المراهقة وهو على أكمل الأحوال، وفيها قال: جاءني ملكان فأضجعاني بلا قصر ولا هصر وفلقا صدري بلا دم ولا وجع، والقصر: الإرخاء بقوّة، والهصر بالهاء: الانثناء، وروي مرّة ثالثة عند بلوغه الحلم لكمال الرجولية، وروي رابعة عند مبعثه ليتلقى الوحي على أتم حالات الكمال وهذه هي الخامسة، وقيل: بل الوارد أربع مرّات ونظمها العلامة الأجهوري بقوله:

وشق صدر المصطفى وهو في ... دار بني سعد بغير مديه

---

(١) والثُّغْرةُ ثُغْرةُ النّحر وهي الهزْمةُ بين التّرْقوتيْنِ. لسان العرب - (ج ١ / ص ٢٢٧).
(٢) وقد قيل: والزّعْفرانُ على ترائبها... شرقٌ به اللّبّاتُ والنّحْرُ. لسان العرب - (ج ١ / ص ٢٢٧).

ثم قال جبريل لميكائيل: ائتني بطست من ماء زمزم كما أطهر قلبه

كشقه وهو ابن عشر ثم في ليلة معراج وعند البعثه

«**قوله: بطست من ماء زمزم**» أي: بملئه ماء من ماء زمزم، وهذا الطست من ذهب أخذًا مما سيأتي، وفيه لغات أربع كسر الطاء وفتحها مع السين المهملة والمعجمة وقد تبدّل التاء سينًا وتدغم في السين فيقال طس وهذه خامسة، وهو إناء معروف والغالب عليه كونه من النحاس واختير على غيره؛ لأنه أشهر آلات الاستعمال في الغسل وكان من ذهب؛ لأنه أصفى المعادن ولا يعلوه صدأ ولا تسلط عليه النار ولا التراب فهو مناسب في المعنى لقلبه الشريف؛ إذ هو أصفى القلوب ولا يعتريه الصدأ المعنوي ولا تسلّط للشيطان عليه، وأيضًا ليناسب ثقله ثقل الوحي، ولما فيه من المناسبة اللفظية أيضًا وهي ذهاب الرعونات البشرية عنه؛ أو لذهابه إلى الحضرة القدسية، وجواز استعماله إما خصوصية له وإما لكون حرمته لم تكن شرعت؛ لأنه إنما حرم بعد الهجرة، وإما لكونه من عالم الملكوت والمحرم إنما هو ما كان من عالم الملك، وإما لأنه من أواني الجنة وهي لا يحرم استعمالها، وإنما كان من ماء زمزم؛ لأنه أفضل المياه بعد النابع من أصابعه الشريفة؛ لأنه من ضربة جبريل بجناحه الأرض كما مرَّ ولما قيل من أنه يقوي القلب وأنه من ماء الجنة وقد اكتسب من بركة الأرض ويليه ماء الكوثر ثم نيل مصر، ونظم التقي السبكي ذلك بقوله:

وأفضل المياه ماء قد نبع من بين أصابع النبي ﷺ المتبع

يليه ماء زمزم فالكوثر فنيل مصر ثم باقي الأنهر

وورد: «**ماء زمزم لما شرب له**»[1].

«**قوله: كما أطهر قلبه**» إشارة الحكمة الغل أي: لأجل أن أطهر قلبه من الرعونات البشرية وأشرح أي أوسع صدره أي قلبه - بامتلائه من الأسرار القدسية، وليثبت على ما سيرد عليه من العجائب الغيبية والأهوال الدنيوية تكون نفسه راضية مرضية، والمراد زيادة التطهير والتوسعة وإلا فهو مخلوق على ذلك.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٩/ ٣٦٩).

وأشرح صدره، فاستخرج قلبه فغسله ثلاث مرات، ونزع ما كان فيه من أذى، واختلف إليه ميكائيل بثلاث طسات من ماء زمزم، ثم أتى بطست من

«**قوله: فاستخرج**» أي: أخرج قلبه المراد به هنا اللحمة، وفيما قبله السر الإلهي المتعلق بهذه اللحمة.

«**قوله: فغسله**» أي: القلب بعد أن شقه أيضًا بدليل نزع ما كان فيه، وهو المراد برواية: فغسل صدره ويحتمل أنه غسل الصدر أيضًا الذي هو محل القلب.

«**قوله: ثلاث مرات**» إشارة للتوحيد، ولأن شريعته تبنى على التثليث في الطهارة كالوضوء والاستجمار[1].

«**قوله: ونزع ما كان فيه**» أي: في القلب من أذى وهي العلقة السوداء التي هي حظ الشيطان، ففي رواية: أن جبريل أخرج من قلبه علقة سوداء وقال: هذه حظ الشيطان منك أي: محل وسوسته منك، وتسلطه لو كان له عليه سبيل، ولعله بقّى منها بقية من الغسلات الأولى وإلا فقد أخرجت في المرة الأولى وإنما خلق بها تكميلاً للخلقة الإنسانية، وأيضًا لو خلق سليمًا منها لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته فأظهره الله تعالى على يد جبريل؛ ليتحققوا كمال باطنه كما برز لهم مكمل الظاهر نقله المؤلف، وإنما ولد مختونًا؛ لئلا تنكشف عورته وهو لا يليق بكرامته، وقد ورد أن من رأى عورته عمي.

«**قوله: واختلف**» أي: تردد إليه؛ أي: لجبريل ميكائيل.

«**قوله: بثلاث طسات. . . إلخ**» دفع به بوهم كون الغسلات السابقة من طست واحد.

«**قوله: ثم أتى**» بالبناء للفاعل بوزن حكى ورمى، أو المفعول بوزن رمي؛ أي: جاء جبريل أو جيء له بعد الثلاثة الأول بطست آخر أي: غير الأول من ذهب لمناسبته للقلب معنى ولفظًا كما تقدم.

---

(١) الاستجمار: الجمر: الحجارة الصغار، والاستجمار: الاستنجاء بالحجارة، (معجم لغة الفقهاء - ج ١ / ص ٥٩).

ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا، فأفرغه في صدره وملأه حلمًا وعلمًا ويقينًا وإسلامًا، ثم أطبقه ....

«**وقوله: ممتلئ**» صفة للطست حكمة وإيمانًا منصوبان على التمييز لنسبة الامتلاء، واستشكل بأنّ الإيمان والحكمة من الأعراض والمعاني القائمة بمحالها، وهي لا يملأ بها شيء ولا تفرغ في شيء، وأجيب بأنه جعل في الطست شيء؛ أي: جسم يحصل به كمال العلم واليقين وبأن تجسد المعاني جائز، كما جاء أن سورة البقرة تجيء يوم القيامة كأنها الظلة والموت في صورة كبش وكذلك وزن الأعمال وغير ذلك، واختلف في تفسير الحكمة على أقوال كثيرة قال النووي: والذي صفا لنا منها أنها العلم المشتمل على معرفة الله تعالى مع نفاذ البصيرة وتهذيب النفس وتحقيق الحق للعمل به والكف عن ضده، والحكيم من حاز ذلك.

«**وقوله: فأفرغه**» أي: الطست الممتلئ حكمة وإيمانًا في صدره؛ المراد به: القلب فسماه باسم ما هو فيه وهو الصدر، قال الشيخ أبو محمد بن أبي حمزة: الحكمة في شق صدره مع القدرة على أن يمتلئ قلبه إيمانًا وحكمة بغير شق الزيادة في قوة اليقين؛ لأنه أعطي برؤية شق بطنه وعدم تأثره بذلك ما أمن معه من جميع المخوف العادية، فلذلك كان أشجع الناس حالاً ومقالاً، ولذلك وصف بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧]، انتهى المؤلف.

«**قوله: وملأه...إلخ**» تفريع على ما قبله فالأولى تفريعه بالفاء، والحلم ضدّ الغضب فقد كان لا يستفزه الغضب إلا إذا انتهكت حرمات الله تعالى، ومنشؤه كمال العلم والتسليم بالقضاء والقدر، والعلم إدراك الشيء على ما هو به في الواقع، واليقين كمال العلم بحيث لا يشوبه وهم، والإسلام الانقياد والخضوع والتسليم لتقدير العزيز العليم.

«**قوله: ثم أطبقه**» أي: أطبق الصدر أو القلب أو ما ذكر الشامل لهما فلتأم سريعًا من غير مشقة، وكل هذه الأمور يجب الإيمان بها والقدرة صالحة لذلك، وقد انخرقت العادات لكثير من أولياء الله تعالى المتطفلين على جناب هذا السيد العظيم المحبوب الأكبر، فكيف به عليه الصلاة والسلام؟

ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوّة].

«**قوله: ثم ختم**» أي: جبريل، بين كتفيه؛ أي: طبع بين كتفيه على الجهة اليسرى في محاذاة القلب بخاتم؛ أي: طابع بالفتح فقط، وأما خاتم النبيين ﷺ فيجوز فيه الفتح والكسر. انتهى قليوبي.

وإضافته إلى النبوة لكونه علامة عليها أو لإتمامها؛ أي: لكون نبوّته ختمت النبوة، قال المؤلف نقلاً عن السهيلي: الحكمة في وضع خاتم النبوّة على جهة الاعتياد أنه لما ملئ قلبه إيمانًا، ختم عليه كما يختم على الوعاء المملوء مسكًا أو درًا، فجمع الله تعالى أجزاء النبوّة لسيدنا رسول الله ﷺ وتممها وختم عليها بختمه، فلم تجد نفسه ولا عدوه سبيلاً إليه من أجل ذلك الختم؛ لأن الشيء المختوم محروس، وكذلك تدبير الله لنا في هذه الدار إذا وجد أحدنا الشيء بختمه زال الشك وانقطع الخصام فيما بين الآدميين، فلذلك ختم رب العالمين في قلبه ختمًا يطمئن له القلب الذي ألقى النور فيه، وتقوّت قوة القسب فظهر بين كتفيه كالبيضة. انتهى.

قال القليوبي: وظاهر ما ذكر أنه كان بآلة كما مرّ في الشق، ويدل له ما روي أن جبريل لما أراد أن يختم أخرج صرة من حرير أبيض ففكها وأخرج خاتمًا وختم به، وفي الختم إشارة إلى أنه خاتم النبيين ﷺ، قال المؤلف: ومقتضى الأحاديث التي فيها شق الصدر ووضع الخاتم أنه لم يكن موجود حين ولادته، وإنما كان أول وضعه لما شق صدره عند حليمة، خلافًا لمن قال: ولد به أو حين وضع. انتهى.

وبعضهم أثبت أنه ولد به ولا مانع من أن يكون ولد بأثره ولم يطهر بحيث يكون قدر بيضة الحمامة إلا بعد شق الصدر جمعًا بين الروايات، وقد كان بين كتفيه على الجهة اليسرى كما تقدم كزر الحجلة، والزر واحد الأزرار، والحجلة واحد الحجال وهي بيت كالقبة له أزرار كبار وعراوٍ كـ«البشخانة»[1] هذا هو

---

(١) الشحانة والسحانة فنهما نسوة فمه رأى في ذلك من زين أو شين يؤول فيهن، ومن رأى بشحانة جديدة فهي امرأة بكر يتزوجها، وإن كانت عتيقة فهي امرأة ثيب، وقيل رؤيـ

قال المصنف ﷺ: [ثم أُتي بالبراق مسرجًا ملجمًا - وهو دابة بيضاء

الأشهر في تفسيره، وفي رواية أنه كبيضة الحمامة، وأخرج الحاكم في «المستدرك» عن وهب بن منبه قال: «**لم يبعث الله نبيًا إلا وشامات النبوّة في يده اليمنى إلا نبينا محمد فإن شامة النبوّة كانت بين كتفيه**»[1]، قال في «المواهب»: وعلى هذا فيكون وضع الخاتم بين كتفيه بإزاء قلبه مما اختص به عن سائر الأنبياء والله أعلم، وقد روي أنه رفع عند موته وقد أشبع المؤلف الكلام هنا.

قال الشارح ﷺ: «قوله: ثم أُتي بالبراق» أُتي بالبناء للمجهول وقصر الهمزة بوزن رمي؛ أي: جيء له به، ويجوز البناء للفاعل؛ أي: ثم بعد طهارة باطنه وظاهره بالوضوء المناسب لشهود الحضرة القدسية وللصلاة الآتي بيانها، وإن لم يذكر طهارة الظاهر في القصة جاءه الملك بالبراق بضم الموحدة مأخوذ من البريق؛ بمعنى: البياض لما يأتي من أنه أبيض وهو أشرف الألوان، أو من البرق لسرعة سيره أرسله الله تعالى له من الجنة إجلالاً وتعظيمًا على عادة الملوك إذا استدعوا عظيمًا بعثوا إليه النجيب مهيأ مع أعز خواصه للحضور، فهو من عالم الغيب لا يوصف بذكورة ولا بأنوثة كالملائكة، وأما ضميره فتارة يذكر وتارة يؤنث كما يأتي في القصة.

«**قوله: مسرجًا ملجمًا**» حالان وهو بهذه الهيئة من خصوصياته، **كما قال** العلماء بخلاف ركوب غيره من الأنبياء له، قيل: وكان سرجه من لؤلؤة بيضاء ولجامه من ياقوتة حمراء، قيل: ومكتوب بين عينيه سطران:

أحدهما: «لا إله إلا الله».

والثاني: «محمد رسول الله»، ويؤخذ من كونه مسرجًا ملجمًا أنه من ذوات الأربع، وكذا من قوله: طويل فوق الحمار... إلخ.

الشخانة تؤول على عشرة أوجه. امرأة، ورياسة، وفرح، وحياة، وقدوم سفر، وولادة حامل، وحج، وزواج، وعلو منزلة، وقدر وجاه، الإشارات في علم العبارات - (ح ١ / ص ١٦٨).

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٥٧، رقم ١٤٨٩٢)، وابن ماجه (٢/ ١٠١٨ رقم ٣٠٦٢).

طويل فوق الحمار ودون البغل - يضع حافره عند منتهى طرفه، مضطرب الأذنين، إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه، وإذا هبط ارتفعت يداه

«**وقوله: فوق الحمار**» بيان لطوله وكونه بهذه الصفة. ولم يكن كالخيل إشارة لخرق العادة من وجوه؛ **الأوّل**: لم يكن على صفة دواب الدنيا.

الثاني: سرعة السير من دابة كذلك، ولم يكن كالخيل ولا أكبر.

الثالث والرابع: ما يأتي من وضع حافره عند منتهى طرفه، وطول يديه على رجليه تارة وعكسها أخرى وتساويهما أخرى وغير ذلك.

«**قوله: يضع حافره**» أي: يحط كل حافر من يديه المتقدّمتين عند؛ أي: مكان منتهى طرفه سكون الراء؛ أي: بصره، ثم يضع كل واحدة من رجليه مكان ذلك أو أسبق. وسمي حافر؛ لأنه يحفر به الأرض.

«**قوله: مضطرب الأذنين**» أي: مداوم على تحريكهما، وذلك إشارة لقوته ونشاطه، قال المؤلف: فإن قيل: هلا كان الإسراء على أجنحة الملائكة أو الريح كما كانت تحمل سليمان أو الخطوة كطي الزمان.

قلت: اطلاعه على الآيات الخارقة للعادة وما يتضمن أمرًا عجيبًا. ولا عجب في حمل الملائكة أو الريح بالنسبة إلى قطع هذه المسافة، بخلاف قطعها على دابة في هذا الحجم المحكي عن صفتها، ووقع من تعظيمه بالملائكة ما هو أعظم من حمله على أجنحتها، فقد أخذ جبريل بركابه وميكائيل بزمام البراق وهما من أكابر الملائكة فاجتمع له حمل البراق وما هو كحمل البراق من الملائكة وهو أتم في الشرف قاله في «فتح الصفا» انتهى.

«**قوله: إذا أتى على جبل...إلخ**» أي: إذا أقبل على صعود جبل في طريقه ارتفعت؛ أي: طالت رجلاه المؤخرتان، وإذا هبط؛ أي: شرع في الهبوط ارتفعت يداه المتقدمتان، فإذا استوت الأرض رجع لحاله من استواء قوائمه رفقًا براكبه أن يزال عن الاعتدال إلى أمامه أو خلفه وتعظيمًا له وتكريمًا، قال بعضهم: ويظهر أن هذه الحالة من خصوصياته ذكره القليوبي، وعبارة الأجهوري ثم إن من خصائصه ركوبه له وهو مسرج ملجم وكذا وضع حافره عند منتهى طرفه.

له جناحان في فخذيه يحفز بهما رجليه، فاستصعب عليه، فوضع جبريل يده على معرفته، ثم قال: ألا تستحي يا براق، فوالله ما ركبك خلق أكرم على الله منه، فاستحى حتى ارفض عرقًا، وقرَّ حتى ركبها، وكانت الأنبياء تركبها قبله].

«**قوله: له جناحان في فخذيه**» فليس على صفة الحيوانات ذوات الأربع ولا على صفة الطيور.

«**قوله: يحفز**» بفتح التحتية وسكون الحاء المهملة وكسر الفاء آخره زاي أي: يعين ويقوي بهما رجليه في سرعة السير.

«**قوله: فاستصعب**» أي: البراق عليه أي على النبي ﷺ السين والتاء للتوكيد أي: نفر نفورًا قويا للإشارة إلى قوته، وأنه متمكن من قطع المسافة الطويلة في أسرع زمن وليس بالضعيف، فلذا خاطبه جبريل مخاطبة العقلاء لما فيه من الإدراك عند أهل البصائر والإدراك بقوله: أما تستحيي بياءين، وروي بواحدة يا براق فإن أمام المخلوقين مما لا ينبغي بحضرته إلا مزيد الأدب لا إظهار القوة، وقيل: إنما استصعب عجبًا وتيهًا بركوب هذا الجناب العظيم، ولذا قال: فارفض عرقًا فكأنه أجاب بلسان الحال متبرئًا من الاستصعاب وعرق من خجل العتاب، وما قيل من أنّ نفرته لبعد عهده بركوب الأنبياء فما تستبعده النفس وإن ذكر المؤلف ما يؤيده، وقيل: ليعده الرسول بالركوب عليه يوم القيامة لما ورد أن الله أعدّ له في الجنة أربعين ألف براق ترعى في مروج الجنة، فلما وعد بذلك قر وسكن وفيه أن القصة تشير لذلك، وإن كان قريبًا في نفسه، فقد ورد أنه ﷺ قال: «**تبعث ناقة ثمود لصالح فيركبها من عند قبره حتى يوافي بها المحشر وأنا على البراق اختصصت به من دون الأنبياء يومئذٍ ويبعث بلال على ناقة من نوق الجنة ينادي على ظهرها بالأذان حقًا فإذا سمعت الأنبياء وأممها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله قالوا: ونحن نشهد على ذلك**»[1].

«**قوله: ارفض**» بسكون الراء وفتح الفاء وتشديد المعجمة، كابتل لفظًا ومعنى وقر أي: سكن وثبت.

---

(١) ذكره السيوطي في «جامع الأحاديث» (١٢/ ١٤٩).

قال المصنف ﷺ: [وقال سعيد بن المسيب وغيره: وهي دابة إبراهيم التي كان يركب عليها للبيت الحرام، فانطلق به جبريل وهو عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وعند أبي سعيد قوله: وعند أبي سعيد هكذا في نسخ «الكبير» وفي «الصغير»، وعند ابن سعد، وقد وقع في نسخ «الكبير» مخالفة في ألفاظ يسيرة لما في «الصغير» فلتحرر].

قال المصنف ﷺ: [وكان الآخذ بركابه جبريل، وبزمام البراق ميكائيل، فساروا حتى بلغوا أرضًا ذات نخل، فقال له جبريل: انزل فصل هاهنا

قال الشارح ﷺ: «قوله: سعيد بن المسيب» بكسر التحتية وقد تفتح من كبار التابعين.

«قوله: يركب عليها للبيت الحرام» أي: من الشام لزيارة ولده إسماعيل وأمه هاجر حين وضعهما هناك بأمر الله فيأتي للحرم في يوم واحد لما علمت من حال البراق.

فائدة: قالوا الدواب التي تدخل الجنة من دواب الدنيا عشرة: البراق، وناقة صالح، وحمار العزيز، وعجل الخليل، وكبش إسماعيل، وهدهد سليمان ونملته، وكلب أهل الكهف، وحوت يونس، وبقرة بني إسرائيل، ونظمها بعضهم بقوله:

براق شفيع الخلق ناقة صالح	وعجل لإبراهيم كبش لنجله
وهدهد بلقيس ونملة بعلها	حمار عزير كلب كهف كمثله
وحوت ابن متى ثم باقورة لمن	يبرّ لأم في رخاء ومحله
فهاتيك عشر في الجنان وغيرها	يصير ترابًا يوم حشر لكله

لكن في عدّ البراق من دواب الدنيا مسامحة وكذا كبش إسماعيل.

«قوله: وهو عن يمينه» أي: لو كان آخذًا بركابه، وقوله: وميكائيل عن يساره؛ أي: آخذ بزمام البراق فلا ينافي رواية ابن سعيد بعدها، والزمام: المقود بكسر الميم وفتح الواو وسكت عن الملك الثالث فيحتمل أنه فارقهم حال المسير.

ففعل، ثم ركب فقال له جبريل: أتدري أين صليت؟ قال: لا، قال: صليت بطيبة، وإليها المهاجرة، فانطلق البراق يهوي به يضع حافره حيث أدرك طرفه، فقال له جبريل: انزل فصل، ففعل، ثم ركب فقال: أتدري أين صليت؟ قال: لا، قال: صليت بمدين عند شجرة موسى، ثم ركب فانطلق البراق يهوي به ثم قال: انزل فصل، ففعل، ثم ركب فقال: أتدري أين صليت؟ قال: لا، قال: صليت بطور سيناء حيث كلَّم الله تعالى موسى، ثم بلغ أرضًا

قال الشارح ﷺ: «**قوله: ففعل**» أي: نزل فصلى الركعتين هذا هو الظاهر لا مجرّد الدعاء.

«**قوله: فقال له جبريل. . .إلخ**» لعل عدم سؤال النبي ﷺ ابتداءً لكونه أمره بالعبادة وشأن العبادة ألا يسأل عن مثلها فبين له جبريل حكمة النزول والصلاة في خصوص هذا المكان وإنما قال له: أتدري. . . إلخ، ولم يبين له المراد ابتداءً؛ لأنه أوقع في النفس، وطيبة - بمتح الطاء - المدينة المنوّرة، ويقال لها طابة سميت بذلك لطيبها بمهاجرته إليها وتوطنه بها، ونزول الوحي عليه فيها، والمهاجرة: الهجرة من مكة، وقوله: وإليها المهاجرة كالعلة لما قبله ومعنى يهوي يسير سيرًا حثيثًا قويًا كالهوى وقوله: به أي: بالنبي ﷺ مع الملائكة.

«**قوله: بمدين**» **اسم قرية من قرى الشام تلقاء غزة وقوله: عند شجرة موسى** أي: التي استظل تحتها حين خرج من مصر خائفًا من فرعون ولحقه التعب والجوع هناك، وليست التي كلمه الله منها، وكانت من شجرة العناب، وقيل: العنب وقيل: العوسج، كذا قالوا وفيه إشارة إلى التبرك بآثار الصالحين ومنازلهم.

«**قوله: بطور سيناء**» بالمد ويقال سينين كما في آية ﴿وَٱلتِّينِ﴾ وهو اسم للجبل المعروف بالشام، وقيل: طور اسم للجبل وسيناء اسم للوادي ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة؛ إذ ألفه للإلحاق بقرطاس وهي لا تمنع من الصرف مع علة أخرى بخلاف ألف الإلحاق المقصورة كذا قيل.

«**قوله: حيث كلم الله موسى**» أي: فهو مكان المناجاة والتجلي الخاص بأهل الاختصاص، وهذا هو علة النزول والصلاة.

فبدت له قصور فقال له جبريل: انزل فصل، ففعل، ثم ركب فانطلق البراق يهوي به، فقال له جبريل: أتدري أين صليت؟ قال: لا، قال: صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى].

قال المصنف ﷺ: [وبينما هو يسير على البراق؛ إذ رأى عفريتًا من الجن يطلبه بشعلة من نار كلما التفت رآه فقال له جبريل: ألا أعلمك كلمات تقولهن إذا قلتهن طفئت شعلته وخر لفيه، فقال رسول الله ﷺ بلى،

«**قوله: فبدت له قصور**» أي: ظهرت له في تلك الأرض قصور الشام.

«**قوله: ببيت لحم**»[1] اسم قرية تلقاء بيت المقدس سميت بذلك لسقوط عيسى ﵇ بها من بطن أمه بلحمه لعدم القابلة؛ أي: الداية، إذ ذاك وعدم وجود خرقة تلفه بها فهذه أربعة مواضع، وسيأتي خامس وهو بيت المقدس نزل للصلاة بها فيشير في سيره إلى ربه أن دينه ينبني على خمس صلوات.

قال الشارح ﷺ: «**قوله: وبينما هو يسير...إلخ**» إشارة إلى أحوال غريبة وقعت له حال سيره أعم من أن تكون بعد آخر موضع صلى فيه أو قبله ولذا غير الراوي الأسلوب بقوله: وبينما...إلخ.

«**قوله: عفريتًا**» هو العادي الخبيث من الجن يطلبه؛ أي: يقصد النبي ﷺ بها من خلفه والنبي ﷺ يلتفت إليه لينظر حاله لا لخوف ولا لفزع لما علمت من قوة يقينه أو ليعلم به جبريل فيرشده إلى وجه إهلاك هذا العادي؛ ليكون حرزًا لأمته يتمسكون به عند عداء شياطين الجنّ وكذا الإنس.

«**قوله: طفئت**» بفتح الطاء وكسر الفاء وهمزة مفتوحة وتاء التأنيث الساكنة من باب تعب وشعلته فاعل وخر لفيه؛ أي: انكب على فمه؛ أي: سقط على وجهه ميتًا فالمراد بإنكبابه لازمه وهو الهلاك.

«**قوله: بلى**» أي: علمني.

---

(١) بيت لحم: قرية على طرف فرسخ من نحو حبري، بها ولد عيسى، وثم كانت النخلة وليس يرطب النخيل بهذا الرستاق، ولكن جعلت لها آية وبها كنيسة ليس بالكورة مثلها. (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - ج ١ / ص ٦٤).

فقال جبريل: قل: أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار، إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن، فانكب لفيه وطفئت شعلته فسار].

قال المصنف ﷺ: [وأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون

«**قوله: أعوذ**» أي: أتحصن وأستجير بوجه الله؛ أي: ذاته المقدس، أو له تعالى وجه لا نعلم حقيقته منزه عن الجارحة والجسمية والعرضية، **والأول**: طريق الخلف، **والثاني**: طريق السلف، الكريم المعطي الوهاب المستحيل عليه ضده، وهو نعت للوجه أو لله، وبكلمات الله التي لا تنفد؛ أي: لا تفرغ وهو كلامه القديم أو القرآن العظيم أو صفاته العلية التامات التي لا يعتريها نقص ولا عيب، أو النافذات في خلقه التي لا يجاوزهن؛ أي: لا يتعداهن أيُّ صالح تقي ولا فاجر أي فاسق غوي من شر متعلق بأعوذ ما ينزل من السماء؛ أي: من البلاء، ومن شر ما تعرج فيها؛ أي: ما يصعد إليها من المعاصي الموجبة للغضب ونزول المحن والمصائب ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] ومن شر ما ذرأ بذال معجمة آخره راء؛ أي: ما خلق الله في الأرض من كل مؤذ عاقل أو غيره وحش أو غيره، ومن شر ما يخرج منها أخص مما قبله؛ أي: ما يظهر من الهوام كالحيات والعقارب، ومن فتن الليل والنهار وجمع فتنة وهي كل ما تعلقت به النفس واشتغلت به عن خالقها جل وعلا من مال وولد وزوجة وأولى غيرها من المعاصي واللهو، ومن طوارق الليل والنهار؛ أي: حوادثهما التي تصيب الإنسان بغتة، إلا طارقًا يطرق بضم الراء؛ أي: يأتي بخير؛ أي: فائدة فيها سلامة الدين والدنيا من علم ومال طيب لا يشغل عن الله تعالى، يا رحمن؛ أي: يا منعم بجلائل النعم وكيفًا يا رؤوفًا بعباده في كل حال. فانكب لفيه؛ أي: هلك، وانطفأت شعلته بضم الشين المعجمة.

قال الشارح ﷺ: «**قوله: على قوم يزرعون...إلخ**» أي: مثل له ذلك ليعلم منه حال الممثل له.

في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه].

قال المصنف ﷺ: [ووجد ريحًا طيبة فقال: يا جبريل ما هذه الرائحة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها، بينما هي

«**وقوله: في يوم**» أي: قطعة من الزمن ويحتمل بحقيقة اليوم فإنّ عالم الملكوت واسع لخرق العوائد الحسية كما يشاهد ذلك أهل البصائر القدسية، وعلى الثاني فظاهر أن اليوم الذي وقع فيه الزرع لا يقع فيه الحصاد، بل في يوم بعده.

«**وظاهر قوله: كلما حصدوا عاد**» أي: الزرع كما كان أن الزرع إنما وقع مرة فقط فتكون نسبة الزرع إليهم في غير المرة الأولى مجازًا.

«**قوله: ما هذا**» أي: الحال المشاهد أو المثل فلذا سأل بما دون من، ولما لم يكن هذا أمر العادة سأل النبي ﷺ عن حالهم دون ما مرّ فإنه لم يبادر بالسؤال.

«**قوله: قال**» أي: جبريل، هؤلاء؛ أي: مثل هؤلاء، مثل المجاهدين إشارة إلى تضعيف أجورهم على توالي الأوقات وتوفيتها إياها عاجلاً.

«**قوله: في سبيل الله**» أي: طريقه؛ أي: دينه؛ أي: لأجل إظهار دينه وتوحيده.

«**قوله: تضاعف لهم الحسنة**» تؤخذ بمضاعفة من عود الزرع المرة بعد المرة، وأما العدد المذكور فزائد على المثل إخبار بالواقع، أو هو كناية على الكثرة فلا يتقيد بحد وهذا هو الذي يفيده المثل.

«**قوله: وما أنفقوا من شيء**» أي: في سبيل الله على أنفسهم أو خيلهم أو عائلتهم أو اشتروا به سلاحًا أو بنوا به سورًا أو غير ذلك، فهو يخلفه عاجلاً أو آجلاً مع أن الأصل منه أيضًا.

قال الشارح ﷺ: «قوله: ووجد رائحة» أي: شمها.

«**قوله: بينما هي. . .إلخ**» جواب عن سؤال مقدر نشأ مما قبله، وكأنه قال:

تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط فقالت: بسم الله تعس فرعون، فقالت ابنة فرعون: أو لك رب غير أبي؟ قالت: نعم، قالت: أفأخبر بذلك أبي؟ قالت: نعم، فأخبرته فدعاها فقال: ألك رب غيري؟ قالت: نعم، ربي وربك الله، وكان للمرأة ابنان وزوج فأرسل إليهم، فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فأبيا، فقال: إني قاتلكما، قالت: إحسانًا منك إلينا إن قتلتنا أن تجعلنا في بيت فتدفنا جميعًا، قال: ذاك لك بما لك علينا من الحق، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمر أن تلقى فيها هي وأولادها،

ما شأنها وأولادها؟

«**قوله: تمشط**» بضم الشين وكسرها؛ أي: تسرح بنت؛ أي: شعر رأس بنت فرعون.

«**قوله: إذ سقط**» جواب بينما، والمشط مثلث الميم.

«**قوله: تعس**» بفتح التاء وكسر العين وقد تفتح كتعب ونصر؛ أي: خسر وخاب.

«**قوله: ابنان**» قيل: غير الرضيع.

«**قوله: وزوج**» قيل: وكان زوجها خازن فرعون.

«**قوله: فراود**» أي: طلب منهما الرجوع عن دينهما بلطف أولاً والأولاد تبع.

«**قوله: إني قاتلكما**» أي: إن لم ترجعا.

«**قوله: إحسانًا**» أي: أحسن إحسانًا منك.

«**قوله: في بيت واحد**» أي: قبر واحد.

«**قوله: ذاك لك**» بكسر الكاف؛ لأنه خطاب للمؤنث.

«**قوله: الحق**» أي: حق الخدمة والصحبة والبقرة هي القدر الكبير.

«**قوله: فأحميت**» أي: بزيت أو ماء.

«**قوله: هي وأولادها**» أي: وزوجها، فألقوا بضم الهمزة؛ أي: طرحوا

فألقوا واحدًا واحدًا حتى بلغوا أصغر رضيع فيهم، فقال: يا أمه قَعي ولا تقاعسي[1] فإنك على الحق، فألقِيَت هي وأولادها].

قال المصنف ﷺ: [قال: وتكلم أربعة وهم صغار: هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم].

واحداً واحدًا من الكبار، والباقي ينظر لعلهم يرجعون، وأخروا المرأة لتتعذب بالتحسر على أولادها أو لأنها السبب.

«**قوله: حتى بلغوا أصغر رضيع**...إلخ» ظاهره أن الرضيع متعدد، ويمكن أن الإضافة بيانية؛ أي: أصعر هو رضيع، ويحتمل أن الذي فوقه كان رضيعًا أيضا لإضافة ظاهرة، وفي رواية حتى بلغوا إلى صغير رضيع فيهم وهي ظاهرة قيل: كان عمره سبعة أشهر، فلما أخذها من الشفقة عليه لصغره حتى كادت أن ترجع لموافقة فرعون، قال لها الرضيع: يا أمه؛ أي: يا أمي قعي؛ أي: ارمي نفسك في النار، ولا تقاعسي؛ أي: لا تتأخري لأجلي، فدعيهم يلقوني أوّلاً ثم ارمي نفسك فإنك على الحق، وصون الدين أولى من صون النفس والأولاد.

قال الشارح ﷺ: «**قوله: قال**» أي: الراوي وتكلم؛ أي: نطق خرقًا للعادة، وهم صغار أربعة؛ **أوّلهم**: هذا بما تقدم.

وثانيهم: شاهد يوسف حيث قال لسيد زليخا؛ أي: زوجها إن كان قميصه... إلخ؛ أي: قميص يوسف ﷺ.

والثالث: صاحب جريج العابد واسمه جرجيس، وكان من خبره أنه كان يعبد الله تعالى في صومعته؛ أي: متعبده فجاءته أمه ونادته من خارج الصومعة: يا جريج، وهو يصلي فقال: يا رب أمي وصلاتي، فلم يجبها ودام على صلاته، فانصرفت ثم جاءته من الغد وهو يصلي فنادته: يا جريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي، فدام على صلاته ولم يجبها فانصرفت، فجاءت من الغد أيضًا فقالت مثل ذلك، فانصرفت وقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه المومسات؛ أي: الزانيات، وفي الحديث «**لو كان جريج فقيهًا لقطع صلاته**

---

(١) ومعنى تقاعسَ: ثبت وانتصب، لسان العرب - (ج ٦ / ص ١٨٥).

....

وأجاب أمه»[١] ثم اتفق أن تذاكر بنو إسرائيل في أمر جريج وكثرة عبادته وكان فيها إذ ذاك امرأة بغي – أي زانية – لا يراها أحد إلا افتتن بها، فقالت: إن شئتم فتنته لكم فأتته وتعرّضت له بما تقدر عليه فلم يلتفت إليها؛ فلما أيست منه جاءت لراع ومكنته منها فحملت فلما ولدت قالت لهم: إنه من جريج فجاءوا إليه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه، فقال لهم: ما شأنكم فقالوا له قد وقعت بهذه المرأة وهذا الولد منك، فقال لهم: قربوه مني ودعوني أصلي ركعتين ففعلوا فلما انصرف من صلاته أتى الولد وطعنه بيده في بطنه، وقال له: من أبوك يا غلام؟ فقال: أبي فلان الراعي، فعلموا أن المرأة قد كذبت عليه فأقبلوا عليه يقبلون أعضاءه ويعتذرون إليه وسألوه أن يبنوا له صومعته من ذهب، فقال: ابنوها من طين كما كانت ففعلوا وعاد إلى عبادته حتى مات.

والرابع: عيسى عليه السلام **في قوله: إني عبد الله آتاني الكتاب. . . . إلخ**، وزاد بعضهم عليهم سبعة جمعهم الجلال السيوطي في قوله:

تكلم في المهد النبي ﷺ محمد	**ويحيى وعيسى والخليل ومريم**
ومبرئ جريج ثم شاهد يوسف	**وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم**
وطفل عليه مرّ بالأمة التي	**يقال لها تزني ولا تتكلم**
وماشطة في عهد فرعون طفلها	**وفي زمن الهادي المبارك يختم**

وزاد بعضهم اثنين بقوله:

ونوح ببطن الغار في يوم وضعه	**وموسى من التنور النار تضرم**

وأما سيدنا ومولانا محمد فأشار به إلى ما ذكره في الخصائص عن الحافظ ابن حجر أنه تكلم أوائل ولادته، وأن أول ما تكلم به: الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلاً. وروي أنه عطس حين ولادته فحمد اله فشمتته الملائكة وردّ عليهم.

---

(١) لم أقف عيه.

....

وأما يحيى بن زكريا -عليهما السلام -فشأنه أنه كان في غرفة وهو ابن سنة وشهر فلما ولد عيسى قال أشهد أنك عبد الله ورسوله فسمع أبوه شهادته فخرج مهرولاً إليه فلم يجد عنده أحدًا.

والسابع: إبراهيم الخليل ﷺ **روي أنه حال ولادته نهض قائمًا على قدميه** قائلاً: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحمد لله الذي هدانا لهذا فبلغ هذا المشارق والمغارب وسائر الحيوانات.

والثامن: مريم عليها السلام، وذلك أن زكريا لما كفلها وضعها في غرفة في المسجد وكان عمرها دون سنتين ولم يكن يصعد إليها غيره ولم تطعم من يدي أبدًا فكان يجد عندها رزقًا فاكهة الشتاء في الصيف وعكسه فقال لها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

التاسع: صاحب قصة الأخدود فذكر مسلم فقال عن صهيب: إن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ مَلِكٌ فِيمنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وكَانَ لهُ ساحِرٌ، فلمّا كبر قال لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعثْ إِليّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سلكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وقَعدَ إِلَيْه فإِذَا أَتى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فشكا ذلِكَ إِلى الرَّاهِبِ، فقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذا خشيتَ أَهْلَكَ فقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتى عَلى دَابَّةٍ عظيمَةٍ - وفي رواية على حية عظيمة - قَدْ حَبستِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أم الرَاهبُ أَفْضلُ؛ فأَخذ حجرًا فَقالَ: اللهُمّ إنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحبَّ إِلَيْكَ منْ أَمْرِ السَّاحِر فاقْتُلْ هذهِ الدَّابّة حتّى يَمْضِيَ النّاسُ، فرمَاهَا فَقتلها ومضى النَّاسُ فأتى الرَّاهب فَأَخْبرهُ، فقال لهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيّ أَنْت الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي قَدْ بلَغَ منْ أَمْرِكَ ما أَرَى وَإِنَّكَ ستُبْتَلى فإِنِ ابْتُلِيت فلا تَدُلَّ عليّ، وكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمهَ والأبْرص وَيُداوِي النَّاسَ مِنْ سائِرِ الأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جليسُ لِلْمَلِكِ كَانَ قدْ عَمِيَ فأتاهُ بِهدَايا كثيرَةٍ، فَقَالَ: ما ها هُنَا لَكَ أَجْمعُ إِنْ أَنْت شَفَيْتني فَقالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنّمَا يَشْفي اللهُ فَإِنْ أَنْتَ آمنْت باللّه دعوْتُ اللّه

....

فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله فأتى الْمَلِكَ فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الْمَلِكُ: مَنْ ردّ عليك بصرك؟ قال: ربّي، قال: ولك ربٌّ غيري؟ قال: ربّي وربُّكَ الله، فأخذه، فلم يزلْ يعذِّبُهُ حتى دلّ على الْغُلام فجيء بالْغُلام فقال له: الْملكُ: أي بُنيّ قد بلغ من سحرك ما تُبرئ الأكمه والأبرص وتفعلُ وتفعلُ، فقال: إنّي لا أشفي أحداً إنّما يشفي الله، فأخذه فلم يزلْ يعذِّبُه حتى دلّ على الرّاهِب فجيء بالرّاهِب فقيل له: ارْجِعْ عَنْ دينك فأبى فدعا بالْمِنْشار فوضع الْمِنْشار[1] في مفرق رأسه فشقّه حتى وقع شقّاه، ثمّ جيء بجليس الْملك فقيل له: ارْجِعْ عَنْ دينك فأبى فوضع الْمِنْشار في مفرق رأسه فشقّه به حتى وقع شِقّاه، ثُمّ جيء بالْغُلام فقيل له: ارْجِعْ عَنْ دِينك فأبى فدفعه إلى نفرٍ مِنْ أصْحابه، فقال: اذْهبُوا به إلى جبلِ كذا وكذا فاصْعدُوا به الْجبل فإذا بلغْتُم ذرْوته فإنْ رجع عَنْ دِينه وإلّا فاطْرحُوهُ فذهبُوا بِهِ فصعدُوا بِهِ الْجَبل، فقال: اللّهُمّ اكْفِنِيهِمْ بما شئْتَ؛ فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَل أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفانِيهمُ الله، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفرٍ مِنْ أصْحابه، فقال: اذْهَبُوا به فاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ[2] فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلّا فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا به فقَالَ: اللّهُمّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فانْكفأتْ بهِمُ السّفِينةُ فغرقُوا؛ وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمِلكِ، فَقَالَ لهُ الْمَلِكُ: مَا فعَلَ أصْحَابُك؟ قالَ: كَفانِيهمُ اللهُ، فقالَ لِلْمَلِكِ: إنّكَ لسْتَ بِقَاتِلِي حتّى تَفْعل ما آمُرُك بِه، قالَ: وما هُوَ؟ قالَ: تجْمعُ النّاس فِي صَعيدٍ واحدٍ وتَصْلُبُني عَلى جِــذْعٍ ثُمّ خُذْ سهْما مِنْ كِنانتي ثُمّ ضع السّهْمَ فِي كَبِدِ الْقوْسِ، ثُمّ قُلْ: بِسْم الله ربِّ الْغُلام، ثُمّ ارْمِنِي فَإِنّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النّاس في صعيدٍ واحِدٍ وصَلبهُ على جذْعٍ ثُمّ أخذ سهْمًا منْ كنانتِهِ ثُمّ وضع السّهْم في كَبِدِ الْقوْسِ، ثُمّ قَالَ: بِسْمِ اللهِ ربِّ الْغُلَام، ثُمّ رَماهُ فوقَعَ السّهْمُ في صُدْغِهِ؛ فوضع

(١) المنشار: ما أشر به، قال ابن السكيت يقال: للمنشار الذي يقطع به الخشب ميشار، وجمعه مواشيرُ من وشرْتُ أشر، ومِنْشارٌ جمعه مآشِيرُ من أشرْتُ آشر. (لسان العرب ٤/ ٢٠).

(٢) القُرْقُورُ من أطول السفن، وجمعه قراقير، ومنه قول النابغة: قراقيرُ النّبيط على التّلال. (لسان العرب - ٥/ ٨٢).

....

يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمات، فقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بربِّ الْغُلامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ آمنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ؛ فَأُتِيَ الْمَلِكُ فقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بك حَذَرُكَ قَدْ آمنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بالأُخْدُودِ فِي أفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وأَضْرَمَ النِّيرانَ. وَقالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فأَحْمُوهُ فيها، أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ، فَفَعلُوا حَتّى جاءَتِ امْرَأَةٌ وَمعها صَبِيٌّ لَها فَتَقاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَها الْغُلامُ: يا أُمَّهِ اصْبِرِي فإنَّكِ على الْحَقِّ»[1] قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ [البروج: ٤][2].

العاشر: مبارك اليمامة، واليمامة اسم بلد باليمن، فقصته ما ذكر في «المواهب» عن معيقب اليماني قال: حججت حجة الوداع، فدخلت دارًا بمكة فرأيت رسول الله ﷺ ورأيت منه عجبًا، جاءه رجل من أهل اليمامة بغلام يوم ولد، فقال له رسول الله ﷺ: «**يا غلام من أنا؟**» فقال: أنت رسول الله ﷺ. قال: «**صدقت بارك الله فيك**»[3] ثم إن الغلام لم يتكلم بعد ذلك حتى شب، فكنا نسميه مبارك اليمامة.

الحادي عشر: مبرئ الأمة التي رميت بالزنا روي أن امرأة كانت جالسة بصغير في حجرها يمص ثديها فمرّ عليها رجل ذو هيئة حسنة وصفات جميلة راكب على دابة فارهة فقالت: اللهم اجعل ابني مثل هذا؛ فترك الولد ثديها ونظر إليه وقال: اللهم لا تجعلني مثل هذا، وأقبل يمص ثديها، ثم مرّ عليها بجارية يضربها الناس ويقولون: إنها زنت وسرقت وهي لا تتكلم سوى أنها تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت المرأة: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه؛ فترك الولد ثديها وقال: اللهم اجعلني مثلها، فسألته أمه عن ذلك؟ فقال لها: أما الراكب فهو من الجبابرة وأما الأمة فلم تزن ولم تسرق وإنما هم يكذبون عليها.

وأما نوح عليه السلام فمن شأنه أنه لما ولدته أمه وضعته في غار خوفًا عليه من

---

(١) رواه مسلم (١٩/ ١٠٦).

(٢) الأخدود: الشَّقُّ في الأرض، وجمعه الأخاديد.

- ومنه حديث مسروق [أنهار الجنة تجري في غير أُخْدُود] أي في غير شق في الأرض. (النهاية في غريب الأثر، ٢ / ٣٢).

(٣) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٠٠).

قال المصنف ﷺ: [وأتى على قوم ترضخ رؤوسهم كلما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم من الصلاة المكتوبة.

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الإبل والغنم، ويأكلون الضريع والزقوم ....

الأعداء ثم أرادت تركه والخروج عنه فحزنت عليه، فقال لها: يا أمّه لا تخافي علي ولا تحزني فإن الله خلقني وهو يحفظني.

وأما موسى ﷺ فمن شأنه أنه لما ولد قال لأمه: لا تخافي ولا تحزني ـ أي من فرعون ـ فإن الله معنا، وروي أنها وضعته في التنور خوفا عليه وخرجت لحاجة فجاءت أخته وأحمت التنور للخبز ولم تعلم أنه فيه، فجاء جماعة فرعون وفتشوا البيت حتى وصلوا للتنور وفيه النار وحرجوا؛ فجاءت أمه فوجدت التنور مسجورًا بالنار، فقالت: يا حسرتاه قد حرقتم ابني فناداها من داخله: لا تخافي ولا تحزني فإن ربي قد منع النار عني فمدّت يدها وأخرجته سالمًا، والله أعلم.

قال الشارح ﷺ: «**قوله: ترضخ رؤوسهم**» بضم الفوقية وسكون المهملة وفتح المعجمة وآخره خاء معجمة؛ أي: تكسر وتدغدغ الحجارة أو غيرها كلما رضخت عادت - أي رجعت صحيحة - كما كانت قبل الرضخ، ولا يفتر بوزن يصر كذا في ضبط وفي آخر بضم أوّله وتشديد الفوقية مفتوحة بوزن يؤخر ومعناه.

«**قوله: المكتوبة**» أي: المفروضة؛ أي: يتركونها كسلا أو يؤخرونها عن أوقاتها وهذا إخبار بما سيكون.

«**قوله: رقاع**» جمع رقعة؛ أي: بقدر ستر القبل أو الدبر.

«**قوله: الضريع**» بفتح المعجمة نوع من الشجر الشائك لا يطيق الدواب أكله لخبثه، وقيل: الشوك اليابس، وقيل: نبت أحمر منتن الريح، والزقوم نبت شديد المرارة يوجد بتهامة، انتهى قليوبي.

وقال الأجهوري: ثمر شجر كريه الطعم قيل: إنها لا توجد في شجر الدنيا وإنما هي في النار يكره أهلها على أكله.

ورضف جهنم وحجارتها، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدُّون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله شيئًا].

قال المصنف ﷺ: [ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدور، ولحم آخر نيئ خبيث، فجعلوا يأكلون من النيئ الخبيث، ويدعون النضيج الطيب، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيبة، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيبًا فتأتي رجلاً خبيثًا فتبيت معه حتى تصبح.

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمرّ بها ثوب ولا شيء إلا خرقته، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق

«**قوله: رضف جهنم**» بالراء المفتوحة وسكون المعجمة، جمرها أو حجارتها المحمّاة فعلى هذا يكون قوله: وحجارتها تفسيرًا.

قال الشارح ﷺ: «**قوله: نضيج**» أي: وطيب أجدًا من المقابل، وقوله: نيء بكسر النون وآخره همزة بوزن تين، وقوله: خبيث؛ أي: لونه وطعمه وريحه ضدّ الأول، وهذا باعتبار المآل وإلا فالزناة يرون الحرام أشهى وألذ أو باعتبار حكم الشرع.

«**قوله: هذا الرجل**» أى: مثل الرجل.

«**قوله: الطيبة**» أي: شرعًا لحلها.

«**قوله: خبيثة**» أي: شرعًا لتجريمها.

«**قوله: خشبة على الطريق**» أي: ملقاة على جانب الطريق.

«**قوله: إلا خرقته**» أي: إن كان ثوبًا ونحوه أي: أو جرحته أو كسرته بشعبها أو بشوكها لكونها مؤذية لكل مار.

«قوله: مثل أقوام» بفتحتين أو بكسر فسكون وقد صرح هنا بما أضمره في نظيره فيقدّر مثل في كل ما تقدم وما يأتي.

فيقطعونه وتلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ورأى رجلاً يسبح في نهر من دم يلقم الحجارة فقال: من هذا؟ فقال: آكل الربا. ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك تكون عنده أمانات الناس لا يقدر على أدائها ويريد أن يتحمَّل عليها].

قال المصنف ﷺ: [وأتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض[1] من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ ....

«**قوله: وتلا**» أي: جبريل أو النبي ﷺ استدلالاً لما ذكر.

«**قوله: بكل صراط**» أي: طريق توعدون؛ أي: يتخوّفون الناس بأخذ ثيابهم أو المكث معهم وتصدون؛ أي: تصرفون عن سبيل الله؛ أي: دينه، من آمن به بتواعدكم إياه القتل.

«**قوله: يسبح**» أي: يعوم.

«**قوله: يلقم**» بالبناء للمفعول؛ أي: يرمى بالحجارة في فيه فيلتقمها به ويبلعها، وهذا إشارة إلى نوع من عذابه في الآخرة مجاراة على ما كان يسبح في الدنيا ويأخذ أموال الناس بالباطل.

«**قوله: حزمة**» بكسر الحاء المهملة وسكون الزاي، انتهى قليوبي. وقل الأجهوري: بضم الحاء.

«**قوله: لا يقدر على أدائها**» أي: لا يستطيع ذلك لطمعه ورقة ديانته. وإن كان قادرًا في الواقع، وقوله: ويريد... إلخ؛ أي: هو يطمع ويحب أن أحدًا يجعل عنده أمانة أخرى ليأكلها على أربابها فلا يزداد إلا ثقلاً على ثقله وسيرى جزاءه في الآخرة.

قال الشارح ﷺ: «قوله: مقاريض» جمع مقرض، وهو المقض المعروف.

---

(١) المقَطّع بين شيئين وقد قرَضتُه وقرّضْتُه، وأصله من أقرض وهو التّخميش، المخصص (٣/ ١٣٥).

قال: هؤلاء خطباء الفتنة، خطباء أمتك يقولون ما لا يفعلون.

ومرَّ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم.

وأتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها، فلا يستطيع أن يردَّها.

وبينما هو يسير إذ دعاه داع عن يمينه: يا محمد ....

«**وقوله: خطباء الفتنة**» هم الذين يوعظون الناس ويعلمونهم ولا يعملون بمقتضى علمهم، بل يتوصلون لذلك إلى تحصيل الدنيا وحب الرئاسة والتعظيم.

«**قوله: يقولون ما لا يفعلون**» ولما كان القول باللسان والشفه كان محل العذاب.

«**قوله: يخمشون**» بضم الميم؛ أي: يخدشون ويجرحون.

«**قوله: ويقعون في أعراضهم**» كالتفسير لأكل لحومهم، والأعراض بفتح الهمزة جمع عرض بكسر العين، محل الذم والمدح من الإنسان وبفتح العين مقابل الطول وبالضم الجانب والطرف.

«**قوله: على حجر**» بضم الجيم وسكون المهملة الثقب المستدير بخلاف الشق فهو المستطيل، ويسمى سربا بوزن جبل.

«**قوله: ثور**» بفتح المثلثة ذكر البقر.

«**قوله: بالكلمة العظيمة**» أي: الموبقة إما في الدنيا وإما في الآخرة، كما قال الشاعر:

يموت الفتى من عثرة من لسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجل

فعثرته بالقول توجب قتله ... وعثرته بالرجل تبرأ على مهل

فينبغي لمن أراد أن يتكلم بكلمة التأمّل في عاقبتها قبل أن يتلفظ بها، فإن زلق لسانه فلا دواء لها إلا التوبة والاعتذار وطلب المسامحة سواء كانت في

انظرني أسألك، فلم يجبه، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا داعي اليهود، أما إنك لو أجبته لتهوّدت أمتك].

قال المصنف ﷺ: [وبينما هو يسير إذ دعاه داع عن شماله: يا محمد انظرني أسألك، فلم يجبه، فقال: ما هذا يا جبريل، قال: هذا داعي النصارى، أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك.

وبينما هو يسير إذ هو بامرأة حاسرة عن ذراعيها، وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى، فقالت: يا محمد انظرني أسألك، فلم يلتفت إليها، فقال: من هذه يا جبريل؟ قال: تلك الدُّنيا، أما إنك لو أجبتها لاختارت أمتك الدُّنيا على الآخرة.

وبينما هو يسير فإذا هو بشيخ يدعوه متنحيًا عن الطريق، يقول: هلم يا محمد، ....

حق الله أو حق المخلوق.

«**قوله: انظرني**» بضم همزة الوصل والظاء من النظر بالعين؛ أي: انظر إليّ أو المراد: قف ليّ، فقال وقوله: أسألك مجزوم على أنه جواب الأمر.

«**قوله: فلم يجبه**» توفيقًا من الله تعالى، وإشارة إلى أن أمته لم تزل عىى الحق والتوحيد إلى يوم القيامة.

«**قوله: داعي اليهود**» هو هواهم ولما ضلوا به ومالوا إليه، وكذا يقال في داعي النصارى ولا شك أن هذه الأشياء أمثلة مثلت له بما سيكون.

«**قوله: لتهودت أمتك**» أي: باتباعها لدين اليهود، ولو عند الموت وحضور الفتانات فإن الشياطين يأتون للمحتضر على صفة من مات من أقاربه وأحبابه فيقولون له: نحن سبقناك ووجدنا دين اليهود أو النصارى هو الدين الحق فمت عليه، فيؤخذ من هذا أنه يحصل لأمته الثبات وعدم الالتفات إلى الفتانات فلله الحمد والمنة.

قال الشارح ﷺ: «قوله: حاسرة» أي: كاشفة عن ذراعيها لأنها جاءت أمامه، وقوله: فلم يلتفت إليها؛ أي: لا برأسه ولا بعينه ولا بقلبه.

فقال جبريل: بل سر يا محمد، فقال: من هذا؟ قال هذا عدوّ الله إبليس، أراد أن تميل إليه.

وسار فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقالت: يا محمد انظرني أسألك فلم يلتفت إليها، فقال: من هذه يا جبريل؟ قال: إنه لم يبق من عمر الدنيا إلا ما بقي من عمر هذه العجوز.

وسار حتى أتى مدينة بيت المقدس، ودخله من بابه اليماني، ثم نزل عن البراق ....

«**قوله: بل سر يا محمد**» إنما عاجله جبريل بقوله: بل سر...إلخ، دون غيره إشارة إلى أن الشيطان خداع يجري مجرى الدم في العروق، وأنه ينبغي التحرز عنه أكثر من غيره بل هو رأس كل خطيئة وذو حيل عظيمة، وأنه ينبغي لأمته الحذر منه في جميع الخطوات وإلا فالنبي ﷺ مطهر لا يمكن أن يميل إليه بأدنى ميلة، ولم يقل: أما أنك لو أجبته لمالت إليه أمتك، على طريق ما تقدم إشارة إلى أن لأمته لا تخلو عن ميل إليه.

«**قوله: بعجوز**» أي: بصورة عجوز، قوله: إنه لم يبق من عمر الدنيا؛ أي: برزت لك الدنيا ثانيًا بصورة العجوز، إشارة إلى أنه قرب زوالها وأنك آخر النبي ﷺ ين، وأما سؤالها فهو على وجه سؤالها المتقدم فلم يتعرض له هنا اكتفاءً بما مر، والله أعلم.

«**قوله: بيت المقدس**» من إضافة المسمى للاسم؛ أي: محل القدس؛ أي: التطهير بعبادة العليم الخبير والتنزيه عن الأرجاس النفسية.

«**قوله: من بابه اليماني**» أي: باب المدينة ووجده مفتوحًا إمّا لكونه ترك تلك الليلة وإما لكونه فتح له في تلك الساعة وهو الأقرب، ووصفه اليماني لكونه من جهة اليمن، والظاهر بالنسبة للداخل من طريق مكة وفيه إشارة لليمن والبركة.

«**قوله: ثم نزل عن البراق**» أي: ثم لما دخل المدينة من بابها اليماني استمر سائرًا حتى وصل المسجد، فنزل عن البراق على باب المسجد وربطه بباب المسجد؛ أي: فيه بالحلقة بفتح الحاء وسكون اللام وقد تفتح، والجمع حلق

وربطه بباب المسجد بالحلقة التي كانت تربط بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي رواية: «إن جبريل أتى الصخرة فوضع إصبعه فيها فخرقها وشدَّ بها البراق، ودخل المسجد من باب تميل فيه الشمس والقمر»، ثم صلى هو وجبريل كل واحد ركعتين، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى اجتمع ناس كثير فعرف النبيين من بين قائم وراكع وساجد، ثم أذَّن مؤذن وأقيمت الصلاة فقاموا صفوفًا ينتظرون من يؤمّهم، فأخذ جبريل بيده فقدمه فصلى بهم ركعتين].

بفتح الحاء واللام، سواء كانت من الحديد ونحوه أو من الناس كحلقة العلم، قال المؤلف رحمه الله تعالى: قال النوويّ: وفي ربط البراق الأخذ بالاحتياط في الأمور وتعاطي الأسباب، وإن ذلك لا يقدح في التوكل إذا كان الاعتماد على الله تعالى.

«**قوله: تربطه**» بضم الباء الموحدة، وقوله: وفي رواية أن جبريل أتى الصخرة... إلخ، جمع بين هذه الرواية وما قبلها بأنه ربطه أولاً بالباب بالحلقة تأدّبًا وتأسيًا بالأنبياء، فأخذه جبريل وحله من الحلقة ودخل به المسجد فحرق الصخرة فشدّه بها كأنه يقول له: أنت لست ممن يكون مركوبه بالباب، بل أنت أعلى وأغلى فلا يكون مركوبك إلا في داخل المحل، وهذا أمر مشاهد في العادة بين الأكابر، انتهى المؤلف.

«**قوله: من باب تميل فيه الشمس والقمر**» أي: يميلان إليه عند طلوعهما بظهورهما عليه، أو يميلان عند زوالهما عن الاستواء، فيزول ضوءهما عنه فهو على كل حال من جهة المشرق وهذا أقرب إلى كلامه، انتهى قليوبي.

«**قوله: ثم صلى هو وجبريل كل واحد ركعتين**» تحية المسجد.

«**قوله: ثم أذن مؤذن**» هو جبريل على ما يأتي.

«**قوله: فقدّمه فصلى بهم ركعتين**» أي: قبل عروجه على المعتمد الراجح، قال المؤلف: تظافرت الروايات أنه صلى بالأنبياء في بيت المقدس قبل عروجه، وهو أحد احتمالين للقاضي عياض، وقال الحافظ ابن حجر: إنه الأظهر، والاحتمال الثاني: إنه صلى بهم بعد أن هبط من السماء فهبطوا أيضًا، وصححه

قال المصنف ﷺ: [وعن كعب: فأذّن جبريل ونزلت الملائكة من السماء، فحشر الله تعالى له المرسلين، فصلى النبي ﷺ بالملائكة والمرسلين، فلما انصرف قال جبريل: يا محمد أتدري من صلى خلفك؟

الحافظ ابن كثير وقال بعضهم: وما المانع من أنه صلى بهم مرتين فإنّ في بعض الأحاديث ذكر الصلاة بهم بعد المعراج، وهذه الصلاة التي صلاها النبي ﷺ بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الصواب: إنها المعروفة ذات الركوع والسجود؛ لأن النص يحمل على حقيقته الشرعية قبل اللغوية إلا إذا تعذر حمله على الشرعية ولم يتعذر هنا، فوجب حمله على الشرعية ويؤيده ما في القصة فأخذه جبريل بيده فقدّمه فصلى بهم ركعتين، والظاهر أنها كانت فريضة وأيده بعضهم بقوله: في بعض طرق القصة ثم أقيمت الصلاة فأمّهم، وفي رواية فأذن جبريل والآذان والإقامة يؤذنان بأنها فريضة ولا يشكل على هذا أنّ بدء الآذان إنما كان بعد الهجرة؛ لأنه لا مانع من وقوعه ليلة الإسراء قبل مشروعية الصلوات الخمس. ثم قال: والذي يظهر والله أعلم أنها كانت من النفل المطلق. أو كانت مفروضة عليه قبل ليلة الإسراء، وفي «فتاوى» النوويّ ما يؤيد الثاني، وهل قرأ فيهما بأمّ القرآن؟ بمقتضى قوله: «**لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأمّ القرآن**»[1] أو كان ذلك قبل مشروعية هذا الحكم محل نظر، وقال بعضهم: لم يرد في تعيين القراءة في تلك الصلاة فيما وقفت عليه خبر صحيح أو حسن يعتمد عليه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦] .انتهى.

قال الشارح ﷺ: «**قوله: وحشر له جميع المرسلين والأنبياء**» ظاهره حشر الأجساد بالأرواح وصلى بهم وهو الأقرب، ويؤيده حديث: «**وبعث الله تعالى آدم فمن دونه من الأنبياء**»[2] وحديث البزار والطبراني: «**وَنُشِرَتْ لِيَ الأَنْبِيَاءُ مَنْ سَمَّى اللهُ فِي كِتَابِهِ وَمَنْ لَمْ يُسَمِّ، فَصَلَّيْتُ بِهِم**»[3] ويحتمل أنها كانت للأرواح خاصة

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٧٥، رقم ٢٦٣٩٩)، وابن أبي شيبة (١/ ٣١٧، رقم ٣٦٢٠)، وابن ماجه (١/ ٢٧٤، رقم ٨٤٠)، والبيهقي في القراءة خلف الإمام (١/ ٤٨، رقم ٩١).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٧/ ٣٣٦).

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٣٩٦)، والبزار في «مسنده» (٢/ ٣٣٠).

قال: لا، قال: كل نبي بعثه الله تعالى، ثم أثنى كل نبي من الأنبياء على ربه بثناء جميل، فقال النبي ﷺ كل منكم أثنى على ربه وأنا مثن على ربي، ثم شرع يقول: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيرًا ونذيرًا، وأنزل عليّ القرآن فيه تبيان لكل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي وسطًا، وجعل أمتي هم الأوّلون والآخرون،

وأنها تشكلت بصورة الأجساد في علم الله تعالى، ويؤيده حديث أبي هريرة: «**فلقي أرواح الأنبياء**»[1] قال المؤلف: وأمّا رؤيته لهم في السماء فمحمولة على رؤية أرواحهم وأنها تشكلت بصور أجسادهم إلا عيسى ﷺ لما صح أنه رفع بجسده، وكذلك إدريس أيضًا أو أحضرت أجسادهم لملاقاته تشريفًا له وتكريمًا. انتهى.

«**قوله: كل نبيّ بعثه الله**» أي: أظهره الله أو أوحى الله إليه ليعمّ غير المرسلين أيضًا أو المراد بالبعثة ولو إلى نفسه وعلم من ذلك أنه أفضلهم وأنه إمامهم في الدنيا والآخرة.

«**قوله: أرسلني رحمة للعالمين**» العالم هو ما سوى الله تعالى ويطلق على كل جنس أو نوع أو صنف منه وجمعه بهذا الاعتبار، ولا شك أن من جملة العالمين الأنبياء والملائكة فيكون رحمة لهم فيكون أفضل منهم بيقين.

«**قوله: وكافة للناس**» عطف على رحمة؛ أي: لجميع الناس بخلاف غيره فيكون أفضل منهم.

«**قوله: القرآن**» الذي هو أفضل الكتب المنزلة وإلا لما صح الافتخار عليهم به، وقد بين ذلك بقوله: فيه تبيان؛ أي: مزيد بيان لكل شيء من علوم الدنيا والآخرة وكل أحد يفهم منه ما أعطاه الله منه فيكون المنزل عليه أفضل من غيره.

«**قوله: وجعل أمّتي خير أمّة أخرجت... إلخ**» وما ذاك إلا لكون نبيها خير نبيّ بعثه الله.

«**قوله: هم الأوّلون**» أي: في ابتداء تقدير الخلق وفي مواطن القيامة والآخرون في الوجود الشاهدون على غيرهم من الأمم القائمون بتوحيد الله

---

(١) رواه الطبري في «تهذيب الآثار» (٦/ ٢٧٠) بنحوه.

وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني خاتمًا فاتحًا، فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: بهذا فضلكم محمد ﷺ.

قال المصنف ﷺ: **[وأخذ النبي ﷺ من العطش أشدّ ما أخذه، فجاء جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاختار اللبن، فقال له جبريل: اخترت الفطرة، ولو شربت الخمر** ....

تعالى حتى يأتي يوم القيامة بخلاف غيرهم.

«**قوله: وشرح لي صدري**» أي: فتحه ووسعه للأسرار والمعارف التي لم يطلع على بعضها نبيّ مرسل ولا ملك مقرّب.

«**قوله: ووضع عني وزري**» أي: كل ما يثقلني عن المقامات السنية والرتب العلية ومن ذلك شق الصدر مرارًا وغسله.

«**قوله: ورفع لي ذكري**» فلا يذكر الله تعالى إلا وأذكر معه، وجعلني فاتحًا للوجود خاتمًا للدّاعين إلى الله بحيث تستمر شريعتي الناسخة لغيرها إلى يوم القيامة لا تتغير، ويصير قبري بسبب ذلك معروفًا باليقين إلى يوم القيامة، ويصير علم كل نبيّ لا يُعلم إلا من طريقتي ومن جهتي فما عُرف نبيّ ولا ذكر ولا صلي عليه إلا من جهتي فلي الفضل في الكل على الكلّ فلذا قال إبراهيم بحضرة الكلّ: بهذا فضلكم محمد معشر الأنبياء فليكن إمامكم وأنتم أتباعه فأنتم من جملة أمته.

قال الشارح ﷺ: «**قوله: وأخذ النبي** ﷺ» أي: أصابه من العطش بيان لما بعده مقدّم عليه أو متعلق بأخذ.

«**قوله: أشدّ**» فاعل أخذ.

«**قوله: ما أخذه**» أي: عطش شديد لسر يعلمه الله تعالى وليأتي له جبريل بالأواني المذكورة.

«**قوله: اخترت الفطرة**» بكسر الفاء هي الخلقة فالمراد: اخترت ما ينبت به اللحم ويشتدّ به العظم؛ أي: ما تقوم به الخلقة الأصلية حين الرضاع، أو المراد بها الإسلام وفي الكلام حذف مضاف؛ أي: علامة الإسلام، وإنما كان اللبن علامة على الإسلام والاستقامة؛ لأنه طيب طاهر سائغ للشاربين ولذا لا يغص شاربه أبدًا.

لغوت أمتك، ولم يتبعك منهم إلا القليل، وفي رواية: «إن الآنية كانت ثلاثة، والثالث فيه ماء، وإن جبريل قال له: لو شربت الماء لغرقت أمتك»، وفي رواية: إن أحد الآنية التي عرضت عليه كان فيه عسل بدل الماء، وإنه رأى عن يسار الصخرة الحور العين، وسلَّم عليهن فرددن عليه السلام، ....

«**قوله: لغوت أمتك**» من الغواية بفتح الغين، ودلك لأنها وإن لم تكن إذ ذاك محرّمة إلا أن ترك ما هو أصل في تربية البدن والميل إلى ما تهواه النفس يشعر بالغواية والميل عن الحق في المستقبل وأحوال النبي ﷺ في ذلك الموطن تشير إلى أحوال أمته وظاهر أن الطاهر لا يختار ما تهواه نفسه ولو مباحًا على غيره.

«**قوله: لغرقت أمتك**» إن كان المراد لماتت بالغرق في الماء كان المعنى والله أعلم أن من قصر أجله منهم فالغالب عليه موته في الماء بالغرق لما في اختيار الماء من الإشارة إلى ذلك، وإن كان المراد لغرقت في بحر المعاصي كان فيه نوع ظهور عن الذي قبله؛ إذ أمته مستمرّة طائفة بعد طائفة وأكثرها لا يرى البحر إلا أن يحمل على ما يشمل الآبار والعيون والمطر، ورأيت في عبارة نقلاً عن المناوي أنّ المراد الغرق في الشهوات واللذات.

«**قوله: عسل بدل الماء**» وهل قال فيها: ولو اخترت العسل لغرقت. . . . إلخ.

«**قوله: الحور العين**» سموا بذلك لسعة أعينهنّ وشدّة سوادها وبياضها.

«**قوله: عن يسار الصخرة**» بأن نزلت في جملة من نزل من الملائكة.

«**قوله: إن الآنية كانت ثلاثة**» الآنية جمع إناء وأصله أأنية بهمرة ساكنة بعد المفتوحة قلبت ألفًا كقناع وأقنعة، وتحمع آنية على أوان فأوان جمع الجمع، قال المؤلف إن أكثر الروايات أن تقديم الآنية كان قبل العروج وفي بعضها أنه بعده، ففي رواية بعد ذكر رؤية إبراهيم في السماء السابعة ثم انطلقنا فإذا نحن بثلاث آنية مغطاة، وفي رواية كان ذلك بعد أن رفع إلى سدرة المنتهى، وفي رواية كان ذلك بعد رؤية البيت المعمور، قال ابن كثير وغيره: ولعله قدّم مرّتين؛ لأنها ضيافة له وتبعهم على ذلك الحافظ ابن حجر جمعًا بين الروايات، قال ابن كثير وابن حجر: وأمّا الاختلاف في عدد الآنية وما فيها فيحمل على أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر ومجموعها أربعة آنية فيها أربعة أشياء من الأنهار الأربعة التي

وسألهن فأجبنه بما تقر به العين].

قال المصنف ﷺ: [ثم أُتي بالمعراج ....

تخرج من أصل سدرة المنتهى، وإذا قلنا بعرض الآنية مرّتين ففائدة عرض الخمر مع إعراضه عنه في المرة الأولى وتصويب جبريل له تكرير التصويب والتحذير مما سواه؛ أي: مما سوى ما صوّب اختياره له، وهل كانت من خمر الجنة أو من جنس خمر الدنيا؛ فإن كان الأوّل فسبب تجنبها صورتها ومضاهاتها للخمرة المحرّمة؛ أي: التي ستحرم ويكون ذلك أبلغ في الورع وأدق، وإن كانت من الثاني فاجتنابها واضح؛ أي: لأنه ترك ما سيحرم بالفعل.

«**قوله: وسألهن فأجبنه بما تقرّ به العين**» أي: بما يحصل به السرور، وذلك لأنّ قرار العين برودها والقرة البرد وعين المسرور باردة وعين المحزون حارّة، فاستعمل قرّة العين في السرور على سبيل الكناية، روي أنه قال لهنّ: «**لمن أنتن؟ فقلن نحن الخيرات الحسان نساء قوم نقوا من الذنوب فلم يدرنوا منها، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا**»[١].

قال الشارح ﷺ: «قوله: ثم أتي بالمعراج»[٢] بالبناء للمفعول أو الفاعل على ما مرّ... إلخ؛ أي: جيء له أو جاء له جبريل، والمعراج بكسر الميم وجمعه معاريج ومعارج مأخوذ من العروج؛ أي: الصعود نصبه جبريل أسفله على الصخرة وأعلاه فوق السماوات على ما يأتي، قال المؤلف ظاهر قوله: ثم أتي بالمعراج أن العروج لم يكن على البراق، وفي ذلك خلاف، قال الحافظ ابن كثير: إنه لما فرغ النبي ﷺ من أمر بيت المقدس نصب له المعراج وهو السلم فصعد عليه إلى السماء ولم يكن الصعود على البراق كما توهمه بعض الناس بل كان البراق مربوطًا على باب بيت المقدس؛ ليرجع عليه إلى مكة، وقال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى: إنه الصحيح الذي تقرّر في الأحاديث الصحيحة. انتهى.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٧).

(٢) المِعْراجُ: السلم ومنه ليلة المعراج والجمع معارجُ ومعاريجُ قال الأخفش إن شئت جعلت الواحد مِعْرجٌ ومَعْرجٌ بكسر الميم وفتحها كما تقول مرقة ومرقاة والمعارجُ أيضًا المصاعد. (مختار الصحاح (١/ ٤٦٧)).

الذي تعرج عليه أرواح بني آدم، فلم تر الخلائق أحسن منه له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب، وهو من جنة الفردوس، منضد باللؤلؤ عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة، فصعد هو وجبريل حتى انتهيا إلى باب من أبواب سماء الدنيا يقال له: باب الحفظة، وعليه ملك يقال له: إسماعيل، وهو صاحب سماء الدنيا،

«**قوله: الذي تعرج عليه أرواح بني آدم**» أي: المؤمنين عند خروجها من البدن حالة الموت تعرج عليه إلى الجنة فهو لجسد النبي ﷺ خاصة ولأرواح المؤمنين عامة.

«**قوله: له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب**» المرقاة بفتح الميم موضع الرقي، ويجوز كسرها باعتبار أنه آلة الرقي، وهذه المراقي عشرة يقال لها معاريج أيضًا. قال الحلبي: وكان جملتها عشرة، سبعة إلى السموات السبع، والثامنة إلى سدرة المنتهى، والتاسعة إلى ما سمع فيه صريف الأقلام، والعاشرة إلى العرش والرفرف. انتهى.

أي: فكل مرقاة تسقط من محلها حتى يضع النبي ﷺ قدميه عليها فترتفع به إلى محلها فتسقط الأخرى وهكذا قال المؤلف.

تنبيه: اعلم أنه قد ورد أنّ بين الدرجة والدرجة في الجنة خمسمائة عام، وأن الدرجة تهبط كالإبل ليصعد عليها وليّ الله ثم ترتفع به إلى مكانها، والظاهر كما قال بعضهم: إن درجة المعراج كذلك، والله أعلم.

واعلم أن المعاريج العشرة بعد أن خرج من مكة إلى بيت المقدس تشير إلى أن سني الهجرة بعد خروجه من مكة إلى المدينة عشرة، ولكل معراج منها حكمة ومناسبة للسنة التي تشير إليه، فالمعراج الأوّل إلى سماء الدنيا ووجود آدم فيها يشير إلى حكمة ومناسبة تقع في السنة الأولى من الهجرة وهكذا. انظر ما في المؤلف في الوجه الثالث والعشرون.

«**قوله: مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب**» أي: وأحد جانبيه ياقوتة حمراء والأخرى زمرّدة خضراء.

«**قوله: منضد**» أي: مرصع ومكلل.

«**قوله: فصعد**» بكسر العين.

«**قوله: حتى انتهيا إلى باب...إلخ**» قال ابن المنير: ذكر ابن حبيب أن بين

يسكن الهواء لم يصعد إلى السماء قط، ولم يهبط إلى الأرض إلا يوم مات النبي ﷺ وبين يديه سبعون ألف ملك، مع كل ملك جنده مائة ألف، فاستفتح جبريل باب السماء، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ وفي رواية: «بعث إليه»، قال: نعم، قيل:

السماء والأرض بحر يسمى المكفوف - أي المحبوس - لأنه كف عن أن يسقط على الأرض تكون بحار الدنيا بالنسبة إليه كالقطرة في البحر المحيط فعلى هذا يكون ذلك البحر انفلق له تلك الليلة حتى جاوزه فهو أعظم من انفلاق البحر لموسى ذكره المؤلف.

فائدة: السماء الدنيا قيل إنها من ذهب ومغاليقها من النور ومفاتيحها اسم الله الأعظم.

«**قوله: يسكن الهواء**» أي: يقيم فيه هو وجنوده ومعنى كونه صاحب السماء الدنيا أنه موكل بحفظها من نحو استراق الشياطين السمع.

«**قوله: إلا يوم مات النبي ﷺ**» هذا لا يعلم إلا بالنص من النبي ﷺ فلعله كان أخبر بذلك؛ أي: إنه سينزل يوم موتي في جملة الملائكة وظاهر هذا أنه لم ينزل مع الملائكة للصلاة مع النبي ﷺ في بيت المقدس وقوله: سبعون ألف ملك؛ أي: لخدمته.

«**قوله: فاستفتح جبريل**» أي: طلب الفتح ولم تكن مفتوحة من قبل لأجل ما يحصل من الترحيب والتأهيل، وفيه زيادة تشريف واعتناء ولبيان أنه كان معروفًا عند أهل السماء، ولذا لما سُئل جبريل عمن معه، وقال: محمد، فقالوا: أبُعث إليه؟ ولم يقولوا: مَنْ محمد؟ مثلا.

«**قوله: قال: جبريل**» إنما اقتصر جبريل على مجرّد اسمه؛ لأنه معروف عندهم وليس فيهم من يسمى بهذا الاسم غيره، ولم يقل أنا؛ لأنه ضمير مبهم محوج إلى السؤال مرة أخرى بأن يقال: ومن أنت، ولذا أنكر النبي ﷺ على من قال حين استأذن في الدخول عليه وقال له النبي ﷺ من هذا؟ فقال: أنا، فجعل النبي ﷺ يقول: أنا أنا منكرًا عليه، وكان المستأذن جابرًا ﷺ.

«**قوله: قيل ومن معك**» أي: قال الخازن الموكل بالباب: ومن معك؟ قال

مرحبًا به وأهلاً، حياه الله من أخ ....

المؤلف: قول الخازن لجبريل ومن معك يشعر بأنهم أحسوا معه برفيق، وإلا لكان السؤال: أمعك أحد؟ وذلك الإحساس إما بمشاهدة لكون السماء شفافة، وإما لأمر معنوي بزيادة النور، وفي قول جبريل حين سُئل عمن معه: «**محمد**»، دليل على أن الاسم أرفع من الكنية؛ لأنه أخبر باسمه ولم يخبر بكنيته وهو مشهور في العالم العلوي والسفلي؛ أي: بالاسم والكنية فلو كانت الكنية أرفع من الاسم لأخبر بها، وقول الخازن: وقد بُعث إليه؟ أراد الاستفهام فحذف الهمزة؛ أي: أو قد أرسل إليه؟ قال العلماء: ليس هذا استفهامًا عن أصل البعث؛ أي: الرسالة؛ لأنه كان مشهورًا في الملكوت الأعلى بل المراد به البعث للمعراج، وقيل: بل سألوه تعجبًا من نعمة الله تعالى بذلك واستبشارًا به، وقد علموا أن بشرًا لا يترقى هذا الترقي إلا بإذن الله، وأن جبريل لا يصعد بمن لا يرسل إليه. انتهى.

وقد يقال: إن الملائكة تعلم جبريل ومن معه من صلاتهم في بيت المقدس، ومن نصب المعراج خصوصًا والسماء شفافة فلا معنى حينئذ للسؤال إلا قصد التودد والتبسط وإلقاء البشرى كما لو قدم عليك محبوبك الذي شأنه مخالطتك مع محبوب أجل وأغلى تشتهي اللقى معه، فتقول له على وجه السرور والتبسط: أنت من؟ فيقول لك على وجه الدّلال: فلان، فتقول له: ومن معك مع كونك تعرفه غاية المعرفة وتتمنى نظرة في وجهه؟ فيقول لك: فلان، فتقول له لإظهار السرور أهلاً وسهلاً ومرحبًا، وهذا المعنى يقع كثيرًا بين المحبين. فافهم.

«**قوله: مرحبًا**» بفتح الميم مصدر بمعنى الرحب بالضم؛ أي: السعة منصوب بمحذوف وجوبًا؛ أي: صادفت رحبًا؛ أي: سعة أو اسم مكان؛ أي: قدمت مكانًا متسعًا لا ترى فيه ضيقًا ولا مكدرًا وقوله: «به» أي: بسيدنا ومولانا محمد ولم يقل بك؛ لأن المخاطب جبريل لا هو.

«**قوله: وأهلاً**» أي: وأتيت أهلا فلا وحشة عليك.

«**قوله: حياه الله**» أي: أكرمه وعظمه وأطال حياته وأبقاه وقوله: من أخ حال من ضمير حياه والمراد إخوة الإيمان.

ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء، جاء ففتح لهما، فلما خلصا فإذا فيها آدم عليه الصلاة والسلام كهيئته يوم خلقه الله تعالى على صورته، تعرض عليه أرواح الأنبياء وذريته المؤمنين فيقول: روح طيبة ونفس طيبة، اجعلوها في عليين، ثم تُعرض عليه أرواح ذريته الكفار فيقول: روح خبيثة ونفس خبيثة، اجعلوها في سجِّين، ....

«**قوله: ومن خليفة**» أي: لله على تبليغ أحكامه.

«**قوله: فنعم الأخ ونعم الخليفة**» المخصوص محذوف؛ أي: هو وقوله: ونعم المجيء جاء؛ أي: الذي جاءه فجاء صلة الموصول محذوف ففيه الاكتفاء بالصلة عن الموصول المخصوص بالمدح، ويحتمل أن جاء مؤخر من تقديم والأصل جاء ونعم المجيء مجيؤه فالمخصوص بالمدح محذوف وهو المبتدأ المخبر عنه بنعم وفاعلها. انتهى قليوبي.

وبعبارة أصل التركيب وجاء مجيئًا نعم المجيء هو؛ أي: مجيؤه، فنعم وما بعدها نعت للمصدر المفهوم من جاء على تقدير القول؛ أي: جاء مجيئًا مقولاً فيه نعم المجيء هو، وإنما قدرنا القول؛ لأن نعم لإنشاء المدح فإذا وقعت صفة قدّر القول كما هو معلوم. انتهى.

«**قوله: خلصا**» بفتح اللام وضمها.

«**قوله: على صورته**» أي: صورة آدم؛ أي: لم يتغير بشيء أي من البياض المشرب بحمرة والحسن والنضارة، والمراد بالهيئة الطول والعرض وطوله ستون ذراعًا وعرضه سبعة أذرع؛ أي: بذراعنا لا بذراعه هو كما وهم؛ لأن قامة كل إنسان أربعة أذرع بذراع نفسه تقريبًا ويجوز أن يكون مراده بالهيئة والصورة شيئًا واحدًا.

«**قوله: تعرض عليه**» بالبناء للمجهول؛ أي: حقيقة الأرواح أو مثالها.

«**قوله: عليين**» اسم لأعلى مكان في الجنة أو لنفس الجنة وهو الأنسب هنا؛ لأن مقر الأرواح فيها مختلف فأعلاه للأنبياء ودونه للأولياء، وهكذا وقيل اسم لوح من زبرجد معلق بالعرش مكتوب فيه أعمالهم وقيل للسماء السابعة. انتهى قليوبي.

«**قوله: سجين**» اسم لأسفل جهنم أو لمكان فيها أوّلها؛ لأن أرواحهم فيها

وعن يمينه أسودة، وباب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله أسودة، وباب يخرج منه ريح خبيثة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر قبل شماله حزن وبكى، فسلم عليه النبي ﷺ فرد عليه السلام، ....

متفاوتة أو لصخرة تحت الأرض السابعة. انتهى قليوبي.

«**قوله: ورأى عن يمينه أسودة. . . . إلخ**» إشارة إلى رؤية جملة الأرواح بعد استقرارها في أماكنها أو مثالها، والأسودة جمع سواد كأزمنة وزمان وأمكنة ومكان. والسواد الشخص وقيل: الجماعة. والمراد بها هنا الأرواح أو أمثلتها. قال المؤلف: وظاهر قوله: في آدم تعرض عليه أرواح ذريته. . . . إلخ. أن أرواح بني آدم من أهل الجنة والنار في السماء، قال القاضي هو مشكل فقد جاء أن أرواح المؤمنين منعمة في الجنة، وأن أرواح الكفار في سجين فكيف تكون مجتمعة في السماء؟ وأجاب: بأنه يحتمل أنها تعرض على آدم أوقاتًا فصادف وقت عروضها مرور النبي ﷺ ويدل على كونهم في الجنة أو النار إنما هو في أوقات قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] واعترض بأنّ أرواح الكفر لا تفتح لهم أبواب السماء كما هو نص القرآن. وأجيب بما أبداه القاضي احتمالاً بأن الجنة كانت في جهة اليمين والنار في جهة الشمال، وكان يكشف له عنهما، قال الحافظ ابن حجر: ويحتمل أنّ النسم المرئية هي التي لم تدخل الأجساد بعد، وهي مخلوقة قبل الأجساد ومقرها يمين آدم وشماله، وقد أعلم بما سيصيرون إليه. فإذا كان يستبشر إذا نظر إلى من كان على يمينه ويحزن إذا نظر إلى من كان على يساره بخلاف التي في الأجساد فليست مرادة قطعًا، وبخلاف التي نقلت من الأجساد إلى مستقرها في الجنة أو النار فليست مرادة أيضًا فيما يظهر، وبهذا يندفع الإيراد ويعرف أن قوله: نسم بنيه عام مخصوص أو عام أريد به الخصوص. قال: وظهر احتمال آخر وهو أن يكون المراد بها من خرجت من أجسادها حين خروجها لأنها غير مستقرّة ولا يلزم من رؤية آدم لها وهو في سماء الدنيا أن تفتح لها أبواب السماء أو تحلها؛ لأنها تعرض عليه ويكشف له عنها على بعد، ثم قال: ويحتمل أن تكون مثلت له حالتهم في الآخرة. انتهى أي فيكون المرئي إنما هو أمثلتها لا ذواتها، قال الحلبي: هذا الاحتمال هو الظاهر ويدفع به جميع ما تقدّم. انتهى.

ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح، فقال النبي ﷺ يا جبريل من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم، وهذه الأسودة نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، وأهل الشمال منهم أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى وهذا الباب الذي عن يمينه باب الجنة، إذا نظر من يدخله من ذريته ضحك واستبشر، والباب الذي عن شماله باب جهنم إذا نظر من يدخله من ذريته بكى وحزن، ثم مضى هنيهة فوجد آكلي الربا وأموال اليتامى والزناة وغيرهم على حالة شنيعة بنحو ما تقدم وأشنع].

قال المصنف ﷺ: [ثم صعد إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل، قيل: من هذا قال جبريل؟ قيل: ومن معك؟ قال: محمد؟ قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به وأهلاً حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء، جاء ففتح لهما، فلما خلصا فإذا هو بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا شبيه أحدهما بصاحبه بثيابهما وشعرهما،

«**قوله: بالابن الصالح والنبي ﷺ الصالح**» وصفه بالصلاح، وكذا في جميع ما يأتي أن الصلاح مجمع كل خير كما أن اللؤم مجمع كل خبث؛ لأن الصالح هو القائم بحقوق الله وحقوق عباده فلذا اختاره على غيره، ولا شك أن صلاح الأنبياء أتم وأعلى من صلاح غيرهم وصلاحه منهم أتم وأعلى من صلاح بقيتهم فهو الغاية القصوى في مراعاة حق الله وحق العباد والصالح الأوّل للنبوة والثاني للنبوّة.

«**قوله: هنيهة**» تصغير هنة مؤنث هن، وأصل هن هنو، وأصل هنة هنوة أبدلت الواو ياءً وأدغمت في ياء التصغير فقيل هنية بالتشديد، ثم أبدلت الياء هاء شذوذ فقيل هنيهة أي قليلاً، وقوله: بنحو ما تقدّم وأشنع؛ أي: لما روي أنه رأى بطون أكلة الربا مثال البيوت ورأى الغمازين تقطع لحومهم من جنوبهم وتطعم لهم.

قال الشارح ﷺ: «قوله: ثم صعد إلى السماء الثانية» أي: هو وجبريل على مرقاة المعراج الثانية فارتفعت بهما إلى السماء الثانية قيل وهي من زمردة بيضاء.

«**قوله: إذ هو بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى**» أي: جالسين على سرير من ياقوت فأم يحيى أخت مريم كانت تحت زكريا - عليهم الصلاة والسلام -

ومعهما نفر من قومهما، وإذا عيسى جعد مربوع إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس كأنما خرج من ....

ويقال: ابنا خالة ولا يقال: ابنا عمة، ويقال: ابنا عم، ولا يقال: ابنا خال لندرة ذلك، ومن صوره أن يتزوج كل من الرجلين أخت الآخر فولداهما ابنا خال، ولو تزوج كل ابنة الآخر فإن جاءت كل واحدة من البنتين ببنت فإن كلاً من البنتين خالة الأخرى، وإن جاءت كل واحدة بذكر فكل منهما خال الآخر، فإن جاء كل منهما أيضًا بذكر فكل من الذكرين ابن خال الآخر، ولو تزوج كل بأم الآخر، ثم أتت كل واحدة ببنت فكل من البنتين عمة الأخرى أو بذكر فكل عم الآخر، وقد نظم ذلك الأجهوري فراجعه إن شئت.

وما تقدّم من أنّ يحيى وعيسى ابنا خالة هو الصحيح، وقيل: إن أمّ مريم وهي حنة أخت أمّ يحيى، فمريم بنت خالة يحيى وأمّ يحيى اسمها إيشاع بنت فاقود، وقال القيسي: امرأة زكريا إيشاع بنت عمران بأخت مريم بنت عمران، وهو القول الأول ونسبوا عيسى لأمّه؛ لأنه لا أب له، وأمّا يونس بن متى فالصحيح أنّ متى اسم أبيه لا اسم أمّه قال العلامة الأجهوري لعل وجه عدم سؤاله جبريل عن عيسى ويحيى حين مرّ بهما بخلاف غيرهما أنه رأى عيسى في بيت المقدس حيًا ورآه في السماء كما رآه في الأرض؛ لأن ذاته لم يحصل فيها تغير ويعلم أنّ عيسى قرينه يحيى - عليهما الصلاة والسلام - في محل واحد، فلم يحتج للسؤال عنهما حين مرّ بهما بخلاف غيرهما فإنّ الذي رآه في الأرض تغيرت حالته في السماء، فلذا سأل عنه؛ أي: لأنهم لما لم يكونوا أحياء بالحياة المعهودة وارتفعوا إلى الملكوت العلوي لم يجدهم على الحالة التي رآها في الأرض، وإنما هم على صفات روحانية يشكلهم الله تعالى بها تشكيلاً لائقًا للملكوت الأعلى.

وأما إدريس عليه السلام فإنه وإن كان حيًا؛ لأنه ردت له الروح بعد ما قبض في السماء الرابعة إلا أنه التحق بأهل الجنة فكان حكمه حكم غيره من الأنبياء.

«**قوله: ومعهما نفر من قومهما**» أي: كل واحد معه جماعة من قومه.

«**قوله: جعد**» بسكون العين؛ أي: جعد البدن؛ أي: ليس بالطويل بل

ديماس؛ أي: حمام شبيه بعروة بن مسعود الثقفي، فسلَّم عليهما فردا عليه السلام، ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ودعيا له بخير].

قال المصنف ﷺ: [ثم صعد إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به وأهلاً حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء، جاء ففتح لهما، فلما خلصا فإذا هو بيوسف عليه الصلاة والسلام، ومعه نفر من قومه، فسلَّم عليه فرد عليه السلام، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ودعا له بخير، وإذا هو قد أعطي شطر الحُسن، وفي رواية: أحسن ما خلق الله قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قال: من هذا يا جبريل؟ قال: أخوك يوسف].

متوسط قوي في ذاته ويجوز كسر العين، وليس المراد جعد الشعر بدليل قوله: سبط بفتح أوله وكسر الموحدة أو سكونها، الشعر أي: ليس فيه جعودة أي تثن.

«**قوله: ديماس**» بكسر الدال؛ أي: حمام فيه إشارة إلى أن بياضه مشرب بحمرة مع بريق ولمعان[1].

قال الشارح ﷺ: «قوله: إلى السماء الثالثة» قيل من حديد؛ أي: من صافي الحديد.

«**قوله: شطر الحسن**» أي: حسنه مثل نصف حسن سيدنا ومولانا محمد لا أنه أخذ النصف وترك له النصف كما وهم، لكن نبينا قام به الجلال صغيرًا وكبيرًا فلم يتمكن أحد من إتمام النظر إليه فلذا لم يفتتن به أحد بخلاف يوسف

---

(١) قال السهيلي في الروض الأنف (٢/ ١٩٧): والدِّيماسُ الْحمّامُ وأصْلُهُ دماسٌ ويُجْمعُ على دَماميس وقدْ قيل في جمْعه دياميسُ ومثْلُهُ قيراطٌ وديبارٌ وديباجٌ الأصْلُ فيه كُلّها: التّضْعيفُ ثُمّ قُلب الْحرْفُ الْمُدْغمُ ياء فلمّا جمعُوا وصغّرُوا، ردّوهُ إلى أصْله فقالُوا: قراريطُ ودنانيرُ [وقُريْريطٌ ودُنيْنيرٌ]، غيْر أنّهُمْ لمْ يقُولُوا: دبابيرُ ولا قيْرِيط، كما قالُوا: دياميسُ وقالُوا: ديابيجُ ودبابيجُ وأصْلُ الدّمْس التّغْطيةُ ومنْهُ ليْلٌ دامسٌ وفي هذه الصّفة منْ صفات عيسى عليْه السّلامُ إشارةٌ إلى الرّيّ والْخصْب الّذي يكُونُ في أيّامه إذْ أُهْبط إلى الأرْض والله أعْلمُ.

قال المصنف: ﷺ [ثم صعد إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به وأهلاً حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء، جاء ففتح لهما، فلما خلصا فإذا هو بإدريس عليه الصلاة والسلام، قد رفعه الله مكانًا عليًا، فسلم عليه فرد عليه السلام، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم دعا بخير].

قال المصنف ﷺ: [ثم صعد إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به وأهلاً حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء، جاء ففتح لهما، فلما خلصا فإذا هو بهارون عليه الصلاة والسلام، ....

- عليهما الصلاة والسلام - وإنما كان يسارق النظر إليه بعض صغار الصحابة قال سيدنا عمر بن الفارض ﷺ:

بِجَمَالٍ حَجَبْتَهُ بِجَلَالٍ ... هامَ واستَعْذَبَ العذابَ هُناكا

قال الشارح ﷺ: «قوله: السماء الرابعة» قيل من نحاس.

«قوله: رفعه الله مكانًا عليًا» خصه بذلك لما قيل أنه رفع حيًا للسماء الرابعة على يد الملك الموكل بالشمس، وكان صديقًا له؛ لأنه سأله أن يدعو له أن يخفف له ثقل حملها فدعا له إدريس بذلك، فاستجيبت دعوته وقيل على يد الملك المقرب، فلما رفعه بإذن الله تعالى سأل ربه دخول الجنة فقيل له: لا يدخلها إلا من ذاق الموت، فسأل ربه الموت فقبضه عزرائيل ثم أحياه الله وطلب أن يرى النار فرآها فلما دخل الجنة، قيل له: اخرج، فقال: لا أخرج قد مت ورأيت النار ودخلت الجنة ومن دخلها بعد موته لا يخرج منها أبدًا، فأذن الله له في المقام فيها فقد رفع في حياته مكانًا عليًا واستمر وهذا لا ينافي رؤيته في السماء الرابعة ولا ينافي كون غيره أعلى منه والله أعلم بحقائق الأحوال وهذا لم يسأل فيه النبي ﷺ جبريل عنه كأنه؛ لأنه حي وما تقدّم عن الأجهوري فباعتبار قصته التي وقعت له.

قال الشارح ﷺ: «قوله: السماء الخامسة» قيل إنها من فضة.

ونصف لحيته بيضاء ونصف لحيته سوداء، تكاد تضرب إلى سرته من طولها، وحوله قوم من بني إسرائيل، وهو يقص عليهم، فسلم عليه فرد عليه السلام، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم دعا له بخير، فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل المحبب في قومه هارون بن عمران].

قال المصنف ﷺ: [ثم صعد إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به وأهلاً حيَّاه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء، جاء ففتح لهما، فجعل يمر بالنبي والنبيين معهم الرهط والنبي والنبيين معهم القوم والنبي والنبيين ليس معهم أحد، ثم مرَّ بسواد عظيم فقال: من هذا؟ قيل: موسى وقومه،

«**قوله: نصف لحيته بيضاء ونصف لحيته سوداء**» لم يقل أبيض وأسود كما هو الظاهر إذ المبتدأ وهو نصف مذكر؛ لأنه اكتسب التأنيث من المضاف إليه قيل سبب ذلك قبض موسى لها حين غضب عليه وألقى الألواح، قال القليوبي: ولعل الأبيض هو الأعلى؛ أي: مكان وضع موسى يده ولعل الأسود هو الأسفل.

«**قوله: وهو يقص عليهم**» أي: أخبار الأمم الماضية، ويعظهم ويذكرهم إشارة إلى أن شأنه كان ذلك.

«**قوله: المحبب في قومه**» أي: المحبوب عندهم وهو زيادة عما في السؤال اعتناءً بشأنه.

قال الشارح ﷺ: «**قوله: إلى السماء السادسة**» قيل إنها من ذهب.

«**قوله: بالنبي**» أي: المنفرد والنبيين؛ أي: الجماعة منهم وكذا يقال فيما بعده.

«**قوله: ومعهم الرهط**» أصله ما دون العشرة الشامل للواحد، ولعل المراد الجماعة القليلة، ولو زادوا على العشرة بدليل مقابلته بالقوم المشعر بالكثرة.

«**قوله: بسواد عظيم**» أي: جماعة كثيرة ترى من البعد كالسواد لكثرتهم.

ولكن ارفع رأسك، فإذا بسواد عظيم قد سدَّ الأفق من ذا الجانب ومن ذا الجانب، فقيل له: هؤلاء أمتك، وسوى هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب، فلما خلصا فإذا هو بموسى بن عمران رجل آدم طوال كأنه من رجال شنوءة كثير الشعر، لو كان عليه قميصان لنفذ شعره دونهما، فسلَّم عليه النبي ﷺ فردَّ عليه السلام، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم دعا له بخير، وقال: يزعم الناس أني أكرم على الله من هذا، بل هذا أكرم على الله مني،

«**قوله: ولكن ارفع رأسك**» استدراك الدفع ما عساه أن يقع في ذهنه أنه أكثر أمة منه أو يساويه فيغبطه[1] على ذلك.

«**قوله: الأفق**» أي: النواحي من كل جهة وإلا فليس هناك أفق.

«**قوله: من ذا الجانب... إلخ**» كناية عن الجهات الأربع.

«**قوله: وسوى هؤلاء سبعون ألفًا.... إلخ**» روي: أنه استزاد ربه فأعطاه مع كل واحد من السبعين ألفًا سبعين ألفًا.

«**قوله: رجل آدم**» أي: أديم اللون؛ أي: بياضه يميل إلى الحمرة وطوال بضم الطاء معناه طويل، فإن طال حتى خرج عن العادة شددت الواو وبكسر الطاء جمع طويل وبفتحها الزمن الطويل.

«**قوله: من رجال شنوءة**» بفتح الشين المعجمة وضم النون وواو ساكنة بعدها همزة، اسم قبيلة من اليمن شأنهم الطول والأدمة سُموا بذلك لشنا بينهم، أو لأن شنوءة لقب جدهم عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نضر بن أزد بفتح الهمزة وسكون الزاي، وقيل: لقب بذلك لشنوئه؛ أي: بعده من الأدناس فهم خير الناس حسبًا.

«**قوله: الشعر**» بفتح العين على الأفصح.

«**قوله: لنفد شعره**» أي: لخرق الثوبين وخرج منهما لقوته ولم يسأل عنه؛ لأنه عرفه مع قومه كما سبق.

---

(١) الغَبْط ضرب من الحسد وهو أخف منه ألا ترى أن النبي ﷺ لما سئل هل يضرُّ الغَبْط؟ قال نعم كما يضرُّ الخبْط فأخبر أنه ضارٌّ وليس كضرر الحسد الذي يتمنى صاحبُه زيَّ النعمة عن أخيه، لسان العرب (٧/ ٣٥٨).

فلما جاوزه النبي ﷺ بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي؛ لأن غلامًا بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل الجنة من أمتي، يزعم بنو إسرائيل أني أكرم بني آدم على الله، وهذا رجل من بني آدم خلفني في دنيا وأنا في أخرى، فلو أنه في نفسه لم أبال، ولكن معه أمته].

قال المصنف ﷺ: [ثم صعد إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به وأهلاً حيَّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء، جاء ففتح لهما، فلما خلصا فإذا النبي ﷺ بإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام جالس عند باب الجنة على

«**قوله: فلما جاوزه بكى... إلخ**» لم يبك حال كونه معه خشية أن يتكدر خاطره ولم يكن بكاؤه حسدًا؛ لأنه رسول معصوم من ذلك بل أسفًا على ما فات بني إسرائيل من الحظ الأوفر حيث قل الإيمان فيهم وكثر طغيانهم مع كثرتهم جدًا، وأيضًا لما فات موسى ﷺ من كثرة أتباعه مع طول مدتهم، ولما قالوا فيه: إنه أكثر تبعًا مع أنه في الواقع ليس كذلك فوصفوه بما لم يكن في الواقع، والبكاء على فوات الحظوظ الأخروية سنة متبعة وفي الحقيقة إنما يبكيه اتهامه بما ليس فيه كما يدل عليه كلامه.

«**قوله: لأن غلامًا... إلخ**» ليس قوله: غلامًا... إلخ، على سبيل التنقيص بل على سبيل التنويه بقدرة الله تعالى حيث أعطى الصغير ما لم يعطه الكبير في السن، وقال ابن أبي جمرة: العرب إنما يطلقون على المرء غلامًا إذا كان سيدًا فيهم، فلأجل ما في هذا اللفظ من الاختصاص والإشعار بالأفضلية اختاره دون غيره من الألفاظ، فلذا كان في إسماعه البكاء بعد مفارقته إدخال السرور عليه، والبشارة له بقوله: يدخل الجنة من أمته... إلخ، ولو فعل ذلك بعدما بعد عنه لم يكن ما ذكر من السرور. انتهى بالمعنى.

قال الشارح ﷺ: «قوله: إلى السماء السابعة» قيل إنها من ياقوتة حمراء.

«**قوله: جالس عند باب الجنة**» أي: من خارجها قريبًا منها أو محاذيًا لها؛ لأنها أعلى منه لكونه في السماء السابعة عند البيت المعمور.

كرسي مسند ظهره إلى البيت المعمور، ومعه نفر من قومه، فسلَّم عليه النبي ﷺ فرد عليه السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم قال: مُر أمتك فلتكثر من غراس الجنة، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة، فقال: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وفي رواية: أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وإن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء، فقام هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فدخلوا نهرًا فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهرًا فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهرًا فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم، فجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم، فقال: يا جبريل من هؤلاء البيض الوجوه؟ ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء؟ وما هذه الأنهار التي دخلوها؟ فقال: أمَّا هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأمَّا الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا فتابوا فتاب الله عليهم، وأمَّا هذه الأنهار فأوّلها رحمة الله،

«**قوله: تربتها طيبة**» أي: للغرس فيها.

«**قوله: وأرضها واسعة**» أي: فليغرسوا ما شاءوا.

«**قوله: أمثال القراطيس**» أي: في البريق واللمعان والبياض، وخص الوجوه لكونها المرئية ولكونها مظهر الجمال.

«**قوله: في ألوانهم شيء**» أي: مغير لألوانهم ومكدر لبياضهم.

«**قوله: لم يلبسوا إيمانهم بظلم**» أي: بمعاص فلم يفعلوها وهم المتطهرون.

«**قوله: فتاب الله عليهم**» أي: تقبل توبتهم، كما هو شأنه تعالى قابل للتوب ولو وقع العبد في الذنب ألف مرة وتاب؛ تاب الله عليه.

«**قوله: فأوّلها رحمة الله**» أي: يسمى بذلك.

والثاني نعمة الله، والثالث سقاهم ربهم شرابًا طهورًا].

قال المصنف ﷺ: [وقيل له: هذا مكانك ومكان أمتك، وإذا هو بأمته شطرين: شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس، وشطر عليهم ثياب رمد، فدخل البيت المعمور، ودخل معه الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمد، وهم على خير، فصلى ومن معه من المؤمنين في البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وإنه بحذاء الكعبة، لو خرَّ منه حجر لخرَّ عليها آخر ما عليهم ثم خرج ومن معه، وفي رواية: «أنه عرضت عليه الآنية الثلاثة المتقدمة، فأخذ اللبن، فصوَّب جبريل فعله كما تقدم، وقال

«**قوله: نعمة الله**» أي: يسمى بذلك.

«**قوله: والثالث... إلخ**» أي: يسمى بذلك فاسم كل نهر يشعر بقدر مسماه.

قال الشارح ﷺ: «**قوله: رمد**» الأرمد الذي على لون الرَّماد، وهو غبرة فيها كدرة.

«**قوله: فدخل**» أي: النبي ﷺ البيت المعمور؛ أي: بذكر الله وكثرة الملائكة، ويقال له: الضراح بضم المعجمة وآخره حاء مهملة، ويسمى أيضًا الضريح ومعناه البعيد؛ أي: من الأرض لا بالصاد المهملة خلافًا لمن غلط وأكثر الروايات أنه في السماء السابعة.

«**قوله: وهم على خير**» دفع به ما يتوهم أنهم ليسوا على خير لحجبهم.

«**قوله: وإذا هو يدخله... إلخ**» إخبار عن حاله.

«**قوله: آخر ما عليهم**» خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذا آخر ما عليهم؛ أي: إن دخولهم البيت المعمور وعدم عودهم له بعد خروجهم منه آخر ما عليهم بالنسبة للبيت وهذا كما تقول لمخاطبك اذهب فافعل الشيء الفلاني آخر ما عليك؛ أي: هذا آخر ما عليك بالنسبة لفعلك له وليس بلازم أن يكون قد سبق ذلك الفعل شيء؛ لأنها كلمة تقال لمن تحتم عليه فعل شيء ولا محيص له عنه.

«**قوله: الآنية**» تقدم أنه جمع إناء وجمع الآنية أوان.

كما في رواية: هذه الفطرة التي أنت عليها وأمتك].

قال المصنف ﷺ: [ثم رفع إلى سدرة المنتهى، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوق فيقبض منها،

«**قوله: هذه الفطرة التي أنت عليها**» أي: علامة الفطرة أي: دين الإسلام الذي أنت عليه.

فائدة: سأل الملك الظاهر برقوق عن البيت المعمور من أي شيء هو؟ فقال بعض الحاضرين نقلاً عن بعض التماسير: إنه من عقيق، قاله المؤلف والأجهوري وغيرهما.

قال الشارح ﷺ: «قوله: إلى سدرة المنتهى» هذا هو المعراج الثامن والمراد إلى أعلاها بالمرقاة الثامنة حتى بلغ أعالي غصونها في الفلك الثامن المسمى بالكرسي الذي هو من لؤلؤة بيضاء كذا في القليوبي، وهو ظاهر القصة لكن ينافيه قوله الآتي: ثم أخذ على الكوثر؛ لأن الكوثر كبقية الأنهار في أصلها لا في أعلاها، ثم قال: بعد ذلك ثم رفع إلى سدرة المنتهى فيقتضي أن الرفع إليها تعدد ولا شك في إشكاله لمن تأمل، ثم رأيت في قصة الأحهوري هنا ثم أتى سدرة المنتهى، وإليها ينتهي... إلخ وهو الصواب؛ إذ لم يعبر بالرفع فهي ظاهرة في أنه أتى إليها ورأى في أصلها الأنهار الآتي بيانها وسار سيرًا لكوثر، ثم قال: ثم رفع إلى سدرة المنتهى... إلخ، وحينئذٍ فقوله: الآتي ثم رفع... إلخ إشارة إلى المعراج الثامن، وأما ما هنا فهو بيان لكونه أبى عليها في أصلها وسدرة المنتهى في السماء السابعة.

وفي رواية أنها في السماء السادسة وجمع بينهما بأن أصلها في السادسة وأغصانها وفروعها في السابعة، وأما القول بأن أصلها في الأرض فلا يلتفت إليه وهل أصلها معلق في الهواء أو مغروس في تراب أو في جرم السماء؟ احتمالات **أظهرها**: آخرها، بل هو لا ينافي ما قبله، والظاهر قول القليوبي، ثم رفع بالمرقاة الثامنة إلى الكرسي فغاية ارتفاعه إلى مقابلة فروع سدرة المنتهى؛ إذ غصونها في الكرسي.

وإذا هي شجرة يخرج من أصلها ....

قال المؤلف: السدر: شجر النبق واحده سدرة، وقيل لها: المنتهى؛ لأنها ينتهي إليها ما يهبط من فوقها أي من التقادير فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض؛ أي: من أعمال العباد وما يقع فيها، وقيل غير ذلك، قال ابن دحية: اختيرت السدرة دون غيرها؛ لأن فيها ثلاثة أوصاف: ظل ممدود، وطعم لذيذ، ورائحة ذكية، فكانت بمنزلة الإيمان الذي يجمع القول والعمل والنية فالظل بمنزلة العمل والطعم بمنزلة النية والرائحة بمنزلة القول.

وقد وقع في حديث ابن مسعود عن مسلم أنّ السدرة في السماء السادسة، وظاهر حديث أنس أنها في السابعة، قال القرطبي: وهو تعارض لا شك فيه وحديث أنس قول الأكثر، وهو الذي يقتضيه وصفها بكونها التي ينتهي إليها علم كل نبي مرسل أو ملك مقرب، ويترجح أيضًا بأنه مرفوع وحديث ابن مسعود موقوف، قال الحافظ ابن حجر: ولم يعرج القرطبي على الجمع بل جزم بالتعارض ولا تعارض؛ لأنه يحمل على أن أصلها في السادسة وأغصانها وفروعها في السماء السابعة.

«**قوله: وإذا هي شجرة**» لها ساق؛ أي: هو أصلها الآتي، ولها فروع فوق السماء السابعة في جوف السماء الثامنة، وهو المسمى بالكرسي، قاله القليوبي.

«**قوله: يخرج من أصلها أنهار**... إلخ» حاصله أنه يخرج من أصلها؛ أي: من جدرها، ويحتمل من قرب أصلها، وقيل من قبة خضراء، ويمر من أصلها؛ أي: من جوانب أصلها والأوّل هو ظاهر ما في القصة أنها أنهار أربعة هي الأصول الماء واللبن والخمر والعسل، وكل منها يتفرّع منه أنهار؛ فلذا قال أنهار من ماء وأنهار من لبن وأنهار من خمر وأنهار من عسل، أمّا نهر الماء فيظهر منه في الأرض سيحان بأرض مصيصة وهو غير سيحون، ويظهر من اللبن جيحان بأرض أذنة وهو غير جيحون، ويظهر من العسل نيل مصر، ومن الخمر الفرات بالكوفة والنيل والفرات يزيدان، ويزرع عليهما بزيادتهما والنيل أعظم في الزيادة من الفرات، ويبطن من كل في الجنة ما يعلمه الله تعالى.

﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ ....

وأمّا سيحون وجيحون فنهر الهند وبلخ، وقال القرطبي في «التذكرة»: إن الله أنزل في الأرض خمسة أنهار: سيحون وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة أسفل درجة من درجاتها على جناح جبريل ﷺ فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض لمنافع الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون:١٨] فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله جبريل فيرفع جميع الأنهار الخمسة. انتهى وهو يخالف ما تقدم.

والذي رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعا: «**سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ وَالْفُرَاتُ وَالنِّيلُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ**»[1] وفي البيهقي في «الشعب» عن كعب قال: «**نهر النيل نهر العسل في الجنة، ونهر دجلة نهر اللبن، ونهر الفرات نهر الخمر، ونهر سيحان نهر الماء**»[2].

قال الحلبي: ودجلة هو جيحان، قال المؤلف: وقد استدل على فضيلة النيل والفرات بكون منبعهما من الجنة وأنهما ينبعان من أصل سدرة المنتهى بخلاف غيرهما، وإن كان من أنهار الجنة كسيحان وجيحان فلا يتبعان من أصل السدرة، فامتاز النيل والفرات عليهما بذلك، فإن قيل: قد ورد أن من شرب من ماء الجنة لا يموت ولا يفنى وأنه ليس له فضلة تخرج على المعهود في الدنيا بل خروجه رشحات مسك على البدن، والنيل وما ذكر من المياه التي ورد أنها من الجنة ليس فيها ما ذكر أجيب بأن هذه الخاصة لماء الجنة ما دام فيها فلما نزل إلى الأرض نزعت منه وبقي جوهره بحاله وكل الخواص مثله في هذا المعنى إن شاء الله أبقاها وإن شاء سلبها مع بقاء جوهرها. انتهى.

«**قوله: أنهار من ماء...إلخ**» أي: أنهار أربعة هي الأصول وتجري منها إلى أن تصب في الجنة.

«**قوله: غير آسن**» بالمدّ على وزن صارب وبالقصر على وزن فطن؛ أي:

(١) رواه مسلم (١٨/١٨٦)، وأحمد في «مسنده» (١٧/١٣٦).
(٢) رواه الحرث في «مسنده» (٢/ ٩٤٤).

لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ **[محمد: ١٥] يسير الراكب في ظلها سبعين عامًا لا يقطعها، وإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها كآذان الفيلة، تكاد الورقة تغطي هذه الأمة، وفي رواية: الورقة منها تظل الخلق على كل ورقة منها ملك، فغشيها ألوان لا يدرى ما هي، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، وفي رواية:** ....

غير متغير طعمًا أو لونًا أو ريحًا، وإذا شرب منه أهله خرج على أجسادهم عرقًا كالمسك ما دام في الجنة ومنه سيحان بأرض مصيصة.

«**قوله: لم يتغير طعمه**» أي: ولا لونه ولا ريحه ما دام في الجنة، واقتصر على الطعم؛ لأنه الأظهر والأسبق في اللبن ومنه نهر جيحان بأرض أذنة، وقال النووي: وهما غير سيحون وجيحون خلافًا للقاضي، وهما بأرض خراسان. قليوبي.

«**قوله: وأنهار من خمر... إلخ**» ومنه الفرات بالعراق.

«**قوله: من عسل مصفى**» أي: من شمعه؛ أي: خلقه الله كذلك.

«**قوله: الراكب**» هو في الأصل راكب الإبل وراكب الخيل خيال وراكب الحمار حمار، وفي رواية القليوبي: إن الراكب للجواد المضمر في شدة جريه يسير في ظلها سبعين عامًا لا يقطعها فهو أكثر من ذلك بما لا يعلمه إلا الله تعالى.

«**قوله: مثل قلال هجر**» جمع قلة بالضم ما يقله الرجل؛ أي: يحمله البعير تسع قربتين ونصفًا من قرب الحجاز، والقربة مائة رطل بغدادية تقريبًا، فالقلة مائتان وخمسون رطلاً بغدادية، وهجر قرية بقرب المدينة.

«**قوله: كآذان الفيلة**»[1] أي: في الشكل، وأما في القدر فأشار إليه بقوله: تكاد الورقة تغطي هذه الأمة؛ أي: أمة الدعوة فهو بمعنى الرواية التي بعدها فالمراد بالخلق الناس.

«**قوله: فغشيها**» أي: أصابها.

---

(١) قال السهيلي: أي سقط إلى الارض، وليس من شأن الفيلة أن تبرك، وقد قيل إن منها ما يبرك كالبعير.

تحولت ياقوتًا وزبرجد، فما يستطيع أحد أن ينعتها من حسنها، فيها فراش من ذهب، وإذا في أصلها أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران، فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: أمَّا الباطنان فنهران في الجنة، وأمَّا الظاهران فالنيل والفرات.

وفي رواية: إنه رأى جبريل عند السدرة، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سدَّ الأفق، يتناثر من أجنحته التهاويل الدر والياقوت مما لا يعلمه إلا الله تعالى].

«**قوله: تحوّلت**» بمعنى تغيرت.

«**قوله: فراش**» بفتح الفاء؛ أي: جراد وأصل الفراش هو ما يلقى نفسه في السراج من الطير وهو أكبر من الذباب.

«**قوله: وإذا في أصلها أربعة أنهار**» هذه رواية أخرى غير المتقدمة فظاهرها المنافاة لما تقدمت، والجواب إن هذا عدد لا مفهوم له؛ إذ كل أصل من الأصول الأربعة المتقدمة يظهر منه نهر؛ أي: إلى الأرض والباطن ما بطن في الجنة ولم يظهر إلى الأرض وهو أكثر مما ظهر فهذه الرواية لم تستوعب جميع الأصول ولا تنافي ما تقدم لما علمت من أنه لا مفهوم لها.

«**قوله: باطنان**» أي: الكوثر والسلسبيل أو الزنجبيل وبقي من الباطنة الريان والتسنيم والبيدخ، أما الكوثر والسلسبيل فمن الماء وانظر الباقي، قال بعضهم: وليس في الدنيا نهر أطول من نهر مصر؛ إذ مسيره شهران في الإسلام وشهران في النوبة وأربعة أشهر في الخراب.

«**قوله: عند السدرة**» أي: بصورته الأصلية.

«**قوله: سد الأفق**» أي: النواحي المرئية أو التقدير أن لو كان هناك أفق؛ إذ الأفق ما يرى من أطراف السماء على الأرض من النواحي ولعل الأجنحة تراكمت وتداخلت لكونها نورانية.

«**قوله: التهاويل**» أي: الأمور المهولة العظيمة وقوله: الدر... إلخ، بيان للتهاويل وقوله: مما لا يعلمه إلا الله بيان لمحذوف؛ أي: وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله... إلخ.

قال المصنف ﷺ: [ثم أخذ على الكوثر حتى دخل الجنة، فإذا فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فرأى على بابها مكتوبًا: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر، فقال: يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده شيء، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجته، فسار فإذا هو بأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا رمانها كالدلاء، وفي رواية: فإذا فيها رمان كأنه جلود الإبل المقتبة، وإذا بطيرها كالبخاتي، ....

«**قوله: أخذ على الكوثر**» أي: سار على شاطئ الكوثر مصاحبًا لجريه جهة الجنة.

قال الشارح ﷺ: «**قوله: والقرض بثمانية عشر**» قال بعضهم: والحكمة في كون درهم القرض بثمانية عشر لا أكثر ولا أقل أنّ درهم القرض بدرهمين من دراهم الصدقة فله عشرون حسنة، فإذا ردّ إليه درهمه وهو بدرهمين كان الفاضل له ثمانية عشر وهو المضاعفة، قال المؤلف: لكن رجح كثيرون الصدقة عى القرض لما ورد في الصدقة من الأدلة الكثيرة.

«**قوله: فسار**» أي: في الجنة فإذا هو بأنهار من لبن... إلخ، وسكت عن الرابع وهو أنهار الماء إما اكتفاء بذكر الكوثر لكونه من الماء، وإما للعلم به مما تقدم مع كون الأصل في الأنهار الماء.

«**قوله: جنابذ**» بجيم مفتوحة فنون؛ أي: قبابه وفي رواية ورأى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم.

«**قوله: كالدلاء**» جمع دلو والمراد الدلو الكبير؛ ليناسب الرواية التي بعدها وهي قوله: كأنها جلود الإبل المقتبة؛ أي: التي عليها أقتابها؛ أي: الرجل الذي يكون تحت الأحمال ليقي ظهورها من الدبر أي كأنها جمل بجلده وقتبه وأتى بالقتب؛ لدفع توهم إرادة الجلد ولعله إنما خص الجلد لكونه الذي يظهر.

«**قوله: كالبخاتي**» جمع بخت وهو البعير الخراساني ذو السنامين.

فقال أبو بكر: يا رسول الله ﷺ إن تلك الطير لناعمة، قال: أكلتها أنعم منها، وإني لأرجو أن تأكل منها، ورأى نهر الكوثر على حافتيه قباب الدر المجوف، وإذا طينه مسك أذفر].

قال المصنف ﷺ: [ثم عرضت عليه النار، فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، ولو جرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها، فإذا فيها قوم يأكلون الجيف، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ورأى مالكًا خازن النار، فإذا هو رجل عابس يُعرف الغضب في وجهه، فبدأه النبي ﷺ بالسلام ثم أغلقت دونه.

«**قوله: فقال أبو بكر**» أي: حال سماعه حكاية النبي ﷺ.

«**قوله: إن**» أي: الطير الناعمة أي منعمة في الجنة فقال النبي ﷺ أكلتها أنعم أي منعمة أكثر وإني لأرجو أي ورجاؤه محقق.

«**قوله: قباب الدر**» جمع قبة والدر كبار اللؤلؤ والمجوف كالوصف الكاشف وهي الجنابذ المتقدم ذكرها.

«**قوله: مسك أذفر**» بالذال المعجمة شديد الرائحة.

قال الشارح ﷺ: «**قوله: ثم عرضت عليه النار**» أي: ليتم له علم ما في الملكوت بعين اليقين وليعلم حالها فيعلم ما أعده الله لأعدائه كما أعلمه ما أعده لأحبابه فيزداد طمأنينة وقوله: عرضت... إلخ؛ أي: وهو في الجنة بأن رفع عنه الحجاب حتى رآها، وإن كانت في أسفل سافلين ولا مانع من ذلك.

«**قوله: فإذا فيها غضب الله.... إلخ**» أي: أثر غضبه؛ إذ الغضب معنى من المعاني عبارة عن إرادة الانتقام وهو قائم بالذات العية أو نفس الانتقام وهو اعتبار من الاعتبارات وعلم من ذلك كله أن الجنة والنار موجودتان الآن، وأن سدرة المنتهى خارجة عن الجنة وأن الأنهار مجرى من أصولها إلى الجنة.

«**قوله: فإذا هو رجل عابس**» أي: على صورة رجل عابس وقوله: **يعرف الغضب**... إلخ، كالتفسير لقوله: رجل عابس.

«**قوله: فبدأه النبي ﷺ**» هذا هو الذي يوافق ما يأتي من قوله: غير واحد

ثم رُفع إلى سدرة المنتهى فغشيته سحابة فيها من كل لون، فأخر جبريل

سلمت عليه فرد عليّ السلام ورحب بي ولم يضحك لي. . . . إلخ وهو ما في بعض الروايات لكن الرواية الصحيحة، كما قال المؤلف وغيره: إن مالكًا هو الذي بدأ النبي ﷺ ليزيل عنه وحشة رؤيته إياه عابسًا ويمكن الجمع بينهما بأنه رآه أكثر من مرة فمالك بدأ النبي ﷺ في الأولى كما تقدم والنبي ﷺ بدأه في الثانية لإزالة الوحشة وحصول الألفة، واعلم أن رؤية النبي ﷺ مالكًا لم تكن على الصورة التي يراه عليها المعذبون كما ذكره بعضهم ونقله المؤلف.

«**قوله: ثم رفع إلى سدرة المنتهى**» أي: ثم بعد أن رأى الجنة وما فيها وعرضت عليه النار ليرى ما فيها رفع ثانيًا إلى سدرة المنتهى بأن رجع إليها. وقيل: المعنى رفع عنها فإلى بمعنى عن، ولعل الأولى لراوي القصة أن يحذف قوله: ثم رفع إلى سدرة المنتهى من هنا؛ لأنه قد تقدم ويقول ثم عرج به لمستوى. . . إلخ. وهذا على ما تقدم من قوله: رفع إلى سدرة المنتهى وقد تقدم عن الأجهوري أنه روى ثم أتى سدرة المنتهى بدل رفع، وأنه الصواب دون عبارة المؤلف إلا أن يحمل قوله: رفع على معنى أتى إليها. وحينئذ فقوله: هما ثم رفع. . . إلخ معناه ثم رفع إلى أعلى غصونها في الفلك الثامن المسمى بالكرسي ويكون هذا هو المعراج الثامن.

«**قوله: فغشيته سحابة. . . إلخ**»[1] ظاهره أن غشيانها من تتمة هذا الثامن وليس كذلك بل السحابة في الواقع هو العاشر الذي رأى فيه ربه وخرّ ساجدًا إلى آخر ما يأتي ويدل على ذلك قوله: فيما يأتي ثم انجلت عنه السحابة وأخذ بيده جبريل. . . . إلخ، فكان عليه أن يؤخر قوله: فغشيته سحابة. . . إلخ، عن قوله: ثم عرج به لمستوى. . .إلخ، وسميت سحابة لانسحابها في الهواء، وفي هذا العاشر تأخر جبريل عن النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: هنا يترك الخليل خليله؟! فقال له جبريل: هذا مقامي لو جاوزته لاحترقت من الأنوار، وهذا العاشر هو الذي رأى فيه الرجل المغيب في نور العرش الآتي بيانه، هذا ما ذكره ابن المنير

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (٩/ ٢٧١).

....

وغيره وإن كان المؤلف اعترض عليه.

وعبارة المؤلف: اعلم أن الإمام ابن المنير قال في كتابه «المقتفى في شرف المصطفى»: إن سني الهجرة العشرة بجملتها مطابقة للمعاريج التي كانت ليلة الإسراء ومقابله لها بالمناسبة، وقد كانت المعاريج ليلة الإسراء عشرة على عدد سني الهجرة منها سبعة معاريج إلى السموات السبع، والثامن إلى سدرة المنتهى، والتاسع إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام في تصاريف الأقدار، والعاشر إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب وهو حقيقة اللقاء، وبهذا اختتمت سنو الهجرة العشرة بالوفاة وهي لقاء الحق جل جلاله، كما اختتمت معاريج الإسراء باللقاء والحضور بحضرة القدس على ما تقدم الكلام عليه في الحديث التام، ثم إنه ذكر مناسبة لقيه لكل نبي في السماء التي هو فيها إلى انتهاء السماوات، ثم ذكر ماسبة المعراج الثامن وهو سدرة المنتهى إلى السنة الثامنة، ثم ذكر مناسبة المعراج التاسع وهو المستوى إلى السنة التاسعة، ثم قال المعراج العاشر إلى الرفرف وحينئذٍ لقي الله عز وجل بحضرة القدس وقام بمقام الأنس ورفع الحجاب وسمع الخطاب وكان قاب قوسين أو أدنى لا بالصورة ولكن بالمعنى والمناسبة بين هذا المعراج العاشر والعام العاشر من سني الهجرة أمر بيّن واضح؛ إذ اجتمع في هذا العام اللقاءان اللذان:

أحدهما: لقاء البيت وحج الكعبة ووقوف عرفة وإكمال الدين وإتمام النعمة على المسلمين.

واللقاء الثاني: لقاء رب البيت وكانت فيه الوفاة في اللقاء والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصدق وإلى الموعد الحق وإلى الوسيلة وهي المنزلة الرفيعة التي لا تُبتغى إلا لعبد واحد اختاره الله تعالى على خلقه وهو سيدنا ومولانا محمد إلى أن قال وقوله: إن المعراج العاشر إلى العرش والرفرف... إلخ، في ذكر عروجه إلى العرش نظر؛ لأنه لم يرد في أحاديث المعراج الثابتة أنه عرج به إلى العرش تلك الليلة بل لم يرد فيه حديث أنه

ثم عرج به حتى ظهر لمستوى سُمع فيه صريف الأقلام، ....

جاوز سدرة المنتهى بل انتهى إليها، وفي بعض الأحاديث لم يذكر السدرة بل ذكر فيها أنه انتهى إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام فقط. وأما الرفرف فيحتمل أن المراد به السحابة التي غشيته وفيها من كل لون التي رواها ابن أبي حاتم عن أنس وعندما غشيته تأخر عنه جبريل عليه السلام لكن ظاهر السياق والقصة يقتضي أنها قبل عروجه إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام، وصنيع تعداد ابن المنير للمعاريج يخالف ذلك فلو جعل المعراج العاشر هو حضرة القدس التي حصل فيها اللقاء والمناجاة والرؤية وحذف العرش والرفرف لكان أولى لما ذكرنا. انتهى.

ويجاب على ابن المنير بأن مراده بالرفرف هي السحابة ولا شك أنها التي سمع فيها الخطاب فيكون آخر المعاريج، وأما حضرة القدس فظاهر أنها ليست بمعراج وقوله: إلى العرش معناه إلى نور العرش الذي رأى فيه الرجل المغيب. ولا يلزم منه الانتهاء إلى العرش، وإن كان ظاهر سياق القصة أنه رفع إلى سدرة المنتهى فغشيته السحابة فرفعته حتى ظهر لمستوى... إلخ، فتأمل فإن المقام من مزال الأقدام.

فائدة: اتفق المحققون على أنّ ما يذكره بعض الناس من أنه وطئ العرش بنعله، وما قيل: إنه أتى البساط فهمّ بخلع نعله فنودي: لا تخلع نعلك، لا أصل له وإنما ذلك شيء وقع في نظم بعض القصاص الجهلة.

«**قوله: ثم عرج به حتى ظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام**»[١] المستوى المحل العالي المشرف وهو المقعد، وقيل: المكان المستوي وصريف الأقلام صوت حركتها وجريانها على المكتوب فيه من أقضية الله تعالى ووحيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ أو ما شاء الله تعالى من ذلك أن يكتب ويرفع بما أراده الله تعالى من أمره، وتدبيره بالأقلام التي هو يعلم جنسها وكيفيتها على ما جاءت به الآيات في كتابه والأحاديث الصحيحة فالإيمان به واجب، والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهذا هو المعراج التاسع على ما تقدم.

(١) انظر: عيون الأثر (١/١٩٣).

ورأى رجلاً مغيبًا في نور العرش، فقال: من هذا أملك؟ قيل: لا، قال: أنبي؟ قيل: لا، قال: من هو؟ قيل: هذا رجل كان في الدنيا لسانه رطب بذكر الله تعالى، وقلبه معلق بالمساجد، ولم يتسبَّ لوالديه قط].

قال المصنف ﷺ: [فرأى ربه سبحانه وتعالى فخرَّ النبي ﷺ ساجدًا، وكلَّمه ربه عند ذلك، فقال له: «يا محمد، قال: لبيك يا رب، قال: سل، فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً ....

«**قوله: ورأى رجلاً**» أي: مثال رجل.

«**قوله: رطب بذكر الله**» أي: متحرك دائمًا بذكر الله، وهذه مزية عظيمة ولا تقتضي الأفضلية على الملائكة والأنبياء.

«**قوله: معلق بالمساجد**» أي: بالصلاة أو حقيقة المساجد لأجل الصلاة.

«**قوله: ولم يتسب لوالديه**» أي: لم يفعل ما يقتضي سبهما من سبِّ والدي أحد أو غير ذلك مما لا ينبغي فعله شرعًا.

قال الشارح ﷺ: «**قوله: فرأى ربه**» أي: لا في جهة ولا بانحصار منزهًا عن صفات الحوادث لا بقلبه فقط بل وبعينيه أيضًا على الصحيح المشهور وهو مذهب ابن عباس. ورؤيته في ذلك المكان لا تقتضي الحلول في المكان ولا التقييد ولا الاستقرار كما بين في محله، وقد أوضح المؤلف رحمه الله تعالى الكلام في هذا المقام بما لا مزيد عليه فراجعه أن شئت.

«**قوله: لبيك**» من التلبية وهي الإجابة ولم تستعمل إلا بلفظ التثنية على معنى التكرار؛ أي: إجابة بعد إجابة وهو منصوب على المصدرية بعامل محذوف وجوبًا.

«**قوله: إبراهيم خليلاً**» من الخُلة بالضم صفاء المودة وقوله: وأعطيته ملكًا عظيمًا، قال ابن دحية: لا يعهد لإبراهيم ملك عرفي، فأمّا أن يراد بالملك الإضافة إليه نفسه وذلك لقهره لعظماء الملوك وناهيك بالنمرود وقد قهره الله تعالى بخليله وعجزه عنه، وقهر الملك العظيم ملك عظيم فالقاهر أعظم من المقهور، ويحتمل أن المراد بالإضافة إلى بنيه وذرّيته، وذلك نحو ملك يوسف

وأعطيته ملكًا عظيمًا، وكلَّمت موسى تكليمًا، وأعطيت داود ملكًا عظيمًا وألنت له الحديد وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكًا عظيمًا وسخرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الرياح، وأعطيته ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وعلَّمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئ ....

الصديق وهلم جرا كداود وسليمان، وفي التنزيل: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤] والإشارة هنا إلى ذرّيته وعليه فقوله: وأعطيت إبراهيم... إلخ، على حذف مضاف؛ أي: وأعطيت ذرّية إبراهيم أو آل إبراهيم، وأمّا أن يراد بذلك النفس في مظنة الاضطرار مثل ملكه لنفسه، وقد سأله جبريل أي حال رميه في النار: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا. انتهى قاله الأجهوري.

«**قوله: وأعطيت داود ملكًا عظيمًا**»[1] أي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]... إلخ، وعليه فقوله: وألنت... إلخ، من عطف الخاص على العام وكان الحديد في يده كالعجين يعمل منه الدروع السابغات وغير ذلك.

«**قوله: الجن**» سُموا بذلك لخفائهم أو لقوتهم.

«**قوله: والشياطين**» من عطف الخاص على العام؛ لأنهم من الجن وقيل: بل نوع مخصوص فالعطف مغاير.

«**قوله: وسخرت له الرياح**» يحمل عليها ما شاء وكانت تحمل بساطه إلى حيث شاء وكان سعته فرسخًا في فرسخ نسجه له الجن من ذهب وإبريسم؛ أي: حرير وكان إذا جلس على كرسي الحكم في غير وقت الحكم تجلس الأنس قريبًا منه على كراسي الذهب وخلفهم الجن على كراسي الفضة. وإذا جلس عليه للحكم يجلس معه عليه ألف من أشراف بني إسرائيل على كراسي الذهب عن يميه، وألف من أشراف الجن على كراسي الفضة عن يساره. انتهى قليوبي.

«**قوله: وعلمت عيسى التوراة**» أي: التي أنزلت على موسى فتعلمها ليقضي بما فيها أو يعمل بها؛ لأنها أوسع من الإنجيل الذي أنزل عليه.

---

(١) انظر: الخصائص الكبرى (١/ ٢٩٨).

الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل، فقال الله سبحانه وتعالى: قد اتخذتك حبيبًا - قال الراوي: وهو مكتوب في التوراة حبيب الله - وأرسلتك للناس كافة بشيرًا ونذيرًا، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، لا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطًا، وجعلت أمتك هم الأوّلون والآخرون، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أمتك أقواما قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أوّل النبيين خلقًا وآخرهم بعثًا، وأوّلهم يقضى له، وأعطيتك سبعًا من المثاني لم أعطها نبيًا قبلك، ....

«**قوله: الأكمه**» هو الذي خلق أعمى ولا مدخل للحكماء في إبرائه، والأبرص من قام به داء البرص وقل أن يبرأ على يد طبيب، وكان يمسح على الداء ويدعو له بالشفاء فيبرأ بإذن الله تعالى بشرط إيمان من قام به الداء وغير هذين الداءين بالأولى.

«**قوله: من الشيطان**» من شطن إذا بعد لبعده عن رحمة الله، أو من شاط إذا احترق، والرجيم فعيل بمعنى الراجم للناس بالوسوسة، أو المرجوم أي: المطرود باللعنة.

«**قوله: حبيبًا**» أي: محبوبًا، وهذا يدل على أن مقام المحبة أعلى من مقام الخلة.

«**قوله: أقوامًا**» جمع قوم بمعنى جماعة فيشمل الأنثى، والأناجيل جمع إنجيل هو كتاب العلم والحكمة فقلوبهم وعاء العلم عبارة عن جملة الكتاب والسنة وأرباب الأسرار الإلهية.

«**قوله: وآخرهم بعثًا**» أي: فأنت الذي تقوم بديني وتوحيدي إلى يوم القيامة، ولا يتطرق لشرعك نسخ بخلاف غيرك.

«**قوله: وأوّلهم يقضى له**» يوم القيامة؛ أي: في الحساب والصحف والميزان والصراط ودخول الجنة؛ لأن شأن العظيم أن يقدم في أموره على غيره.

«**قوله: من المثاني**» هي سورة الفاتحة؛ لأنها تثنى أي تتكرّر في الصلاة.

وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبيًا قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والصدقة، وصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك»، وفي رواية: وأعطي رسول الله ﷺ الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئًا المقحمات].

«**قوله: وأعطيتك خواتيم سورة البقرة**» أي: قدرت لك إعطاءها وسأنزلها عليك بعد هجرتك فلا ينافي أنها مدنية، والإسراء وهو في مكة قبل الهجرة وأوّلها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾[البقرة: ٢٨٥]، وقيل: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾. . . . إلخ.

«**قوله: من كنز تحت العرش**»[1] لا يخفى أنها من كلامه القديم القائم بذاته العلية، فما معنى من كنز تحت العرش فلعل المراد والله أعلم أنّ الكلام على التشبيه - أي في العزة والنفاسة - تشبه الكنز العالي الغالي الذي شأنه أن يدخر تحت العرش، وفيه إشارة إلى استجابة مضمونها من الغفران وعدم المؤاخذة والنصرة على الكافرين وما بين ذلك، وقوله: ﴿إِصْرًا﴾ أي: أمرًا يشق علينا حمله، ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ بني إسرائيل من قتل النفس في التوبة، وإخراج ربع المال في الزكاة وقرض موضع النجاسة. انتهى سيوطي. وإن كان عليهم من الصلاة ركعتان في الغداة ومثلها في العشي.

«**قوله: ثمانية أسهم**» السهم النصيب والمراد ثمانية خصال؛ أي: المجموع خاص بك وإن كان البعض لغيرك أيضا.

«**قوله: الإسلام**» أي: الاستسلام والخضوع لا العمل مع التصديق وإلا لشمل جميع ما بعده.

«**قوله: وإني يوم خلقت السماوات... إلخ**» أي: يوم قدرت خلقهن كناية عن القدم أو المراد يوم أوجدتهما أظهرت ذلك وهذا؛ أي: فرض الصلاة هو السهم الثامن.

«**قوله: المقحمات**» بضم الميم وكسر الحاء؛ أي: المهلكات من الذنوب أو

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (٣/ ٩١).

قال المصنف ﷺ: [ثم انجلت عنه السحابة، وأخذ بيده جبريل فانصرف سريعًا، فأتى على إبراهيم فلم يقل شيئًا، ثم أتى على موسى، قال: ونعم الصاحب كان لكم، فقال: ما صنعت يا محمد؟ ما فرض ربك عليك وعلى أمتك؟ قال: فرض عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة كل يوم وليلة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف عنك وعن أمتك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد خبرت الناس قبلك، وبلوت بني إسرائيل، وعالجتهم أشد المعالجة على أدنى من ذلك، فضعفوا عنه وتركوه، فأمتك أضعف أجسادًا وأبدانًا وقلوبًا وأبصارًا وأسماعًا، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل يستشيره فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت، فرجع سريعًا حتى انتهى إلى الشجرة فغشيته السحابة،

الملقيات صاحبها في النار، قيل: المراد بغفرانها عدم الخلود في النار وليس المراد أنه لا يعذب أصلاً لما علم من نصوص الشرع وإجماع أهل السنة من إثبات عقاب العصاة. انتهى فليتأمّل.

«**قوله: فأتى على إبراهيم فلم يقل شيئًا**» أي: لأن مقامه الخلة وشأن الخليل التسليم وعدم المكالمة، وأما مقام موسى فهو مقام المكالمة؛ لأنه كليم الله ومقامه الدلال والانبساط ولا يخفى ما في طلب موسى من التخفيف لأمة سيدنا ومولانا محمد من الاعتناء بها ومزيد المحبة والشفقة حيث قال له آخر الأمر: اهبط بسم الله، من إظهار مزيد المحبة والتلطف الدال ذلك على أن بكاءه الأوّل إنما هو؛ لإظهار أنه المفضول وأن النبي ﷺ هو الأفضل ليزداد سروره.

«**قوله: خبرت**» بفتح الخاء والباء؛ أي: امتحنت، وقوله: بلوت هو مرادف لخبرت.

«**قوله: على أدنى من ذلك**» أي: ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي، وقيل: ركعتان بالزوال.

«**قوله: أضعف أجسادًا**» أي: في النحافة، وقوله: أبدانًا أي: في الطول وقوله: وقلوبًا أي: في الرقة والسمع والبصر تابعان لما ذكر لكن ربما قام الضعيف بما لم يقم به القوي. ولكن جزى الله سيدنا موسى عنا كل خير إذ كان

وخرَّ ساجدًا، وقال: رب خفف عن أمتي فإنها أضعف الأمم، قال: قد وضعت عنهم خمسًا، ثم انجلت السحابة ورجع إلى موسى، فقال: وضع عني خمسًا، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك، فلم يزل يرجع بين موسى وبين ربه يحط عنه خمسًا خمسًا حتى قال: يا محمد، قال: لبيك وسعديك، قال: هن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة لا يبدل القول لدي ولا ينسخ كتابي،

سببًا في التخفيف، وحبه فينا أداه إلى الشفقة علينا صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين وسلم تسليمًا.

«**قوله: وخر ساجدًا ثمّ قال**» ظاهره في حال سجوده، وثم موضع الفاء ويحتمل بعد فراغه من السجود أو بعد قيامه وهو الأظهر الأقرب لما بعده. قليوبي.

«**قوله: يحط عنه خمسًا خمسًا**» أي: خمسًا بعد خمس هذه في الرواية المعتدة، وأما في رواية عشرًا عشرًا فقد أوّلت بأنّ المراد عشرًا في كل مرتين، وأمّا رواية فحط عني شطرها فحملت على أن المراد بالشطر الخمس؛ لأنه يراد بالشطر مطلق جزء والمراد نصفها في مرات.

«**قوله: كل صلاة بعشر**» أي: في المضاعفة فتلك خمسون وهذا ظاهر في أن كل صلاة من الخمس كانت تتكرّر عشر مرّات بأن تصلي الصبح عشر مرات والظهر كذلك وهكذا، وفي قوله: هنّ خمس. . . . إلخ، فيه إشارة على التحديد وعدم العود بعد ذلك ويفهم ذلك من الحط خمسًا خمسًا؛ لأنه إذا فصل خمس لم يبق للحط شيء بعد وإلا لحط الباقي فلم يكن هناك شيء بعد.

«**قوله: ولا ينسخ كتابي**» أي: مكتوب من كونها خمسين واستشكل قوله: لا يبدل القول لديّ بأنه قد تبدّل حيث جعل الخمسين خمسًا، ونسخ الحكم الأوّل ويجاب بأنّ قوله تعالى وإلى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة مجمل؛ لأنه يصدق بالخمسين ولو باعتبار الثواب؛ أي: فرضت عليك ما بقي بالخمسين وأجمله لحكمة المراجعة فلما انتهى للمعلوم المراد في الواقع، قال له: هذا هو من أدى بالخمسين فحاصله أنّ مرادي

ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فنزل حتى انتهى إلى موسى فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك، فقال: قد راجعت ربي حتى استحييت منه، ولكن أرضى وأسلم، فنادى مناد: أن قد أمضيت فريضتي ....

بالخمسين ما بقي بها ولو كانت في الظاهر خمسًا كما يشير إليه جوابه تعالى بقوله: هنّ خمس كل صلاة بعشرة.

«**قوله: ومن همَّ بحسنة**» أي: ترجح عنده قصد فعلها، وأما المتردد في الفعل والترك على السواء، فلا يكتب له ولا عليه وأولى ما يهجس في النفس بأن يخطر مع سكون ما وهو المسمى بالهاجس، وأولى منهما مجرّد الخطور وإنما يكتب له قصد الحسنة ونية فعلها؛ لكن إن فعلها ضوعفت، وإن لم يفعلها كتبت واحدة أي من غير مضاعفة ولا تركها كسلاً.

«**قوله: ومن همَّ بسيئة**» أي: قصد وترجح عنده ذلك لم تكتب تلك السيئة عليه، وأمّا إن صمم وعزم على الفعل لا محالة كتبت عليه السيئة لكن لا تكتب كبيرة بخلاف ما لو فعلها فإنها تكتب كبيرة، وهذا إذا تركها لمانع أو كسل، وأمّا لو تركها خوفًا من الله فإنها تكتب حسنة، واعلم أن الصغائر لو فعلها تغفر باجتنابه الكبائر وبفعل الحسنات من صلاة وصوم وصدقة وغير ذلك وأولى بالتوبة، وأمّا الكبائر فلا تغفر إلا بالتوبة وهي الندم والعزم على أن لا يعود خوفًا من ربه أو بعفو الله عنه وربما كان الاشتغال بالحسنات سببًا في عفو الله والكفر الأصلي أو الطارئ لا يكفره إلا الإسلام.

«**قوله: فنادى مناد**» أي: من قبل الله؛ أي: ليعلم موسى كما علم سيدنا ومولانا محمد أوّلاً حين قال له: ما تقدّم، وإنما قال النبي ﷺ لموسى قد راجعت ربي حتى استحييت، ولم يقل له إن ربي قد قال لي هنّ خمس بخمسين... إلخ، خوفًا من أن يحصل لموسى الخجل لو قال له ذلك وبعبارة؛ لأن ما ذكره لموسى فيه كمال الأدب مع الله تعالى؛ إذ اللائق بحال الكريم الذي لا يرد سائله أن لا ينسب إليه ما يدل على رد سائله، وإن علم منه سائله ذلك.

وخففت عن عبادي، فقال له موسى: اهبط بسم الله، ولم يمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا: عليك بالحجامة، وفي رواية: مُر أمتك بالحجامة، ثم انحدر، فقال لجبريل: ما لي لم آت أهل سماء إلا رحبوا بي وضحكوا لي غير واحد سلمت عليه فرد عليّ السلام ورحب بي ودعا لي ولم يضحك لي، فقال: ذلك مالك خازن النار لم يضحك منذ خُلق، ولو ضحك لأحد لضحك لك.

«**قوله: وخففت عن عبادي**» أي: أزلت عنهم مشقة التكاليف.

«**قوله: اهبط بسم الله**» أي: مصحوبًا ومحروسًا بسم الله وهو من كلام موسى، وقيل: من كلام جبريل.

«**قوله: بالحجامة**» لما فيها من صحة البدن ويؤخذ منه أن التداوي من الأمر المطلوب شرعًا وهو كذلك، والدّواء قسمان: **الأوّل**: الرقى بأسماء الله تعالى أو بشيء من كتابه وهو أنجح لأرباب القلوب الصادقة.

والثاني: بالعقاقير أو الفصد أو غير ذلك، مما اقتضاه علم الطب وهو أنجح للضعفاء.

فائدتان: الأولى: قال خط في شرح أبي شجاع: فإن قيل قد تقدم أنّ الصلوات الخمس فرضت ليلة الإسراء فلم لم يبدأ بالصبح؟ أجيب بجوابين: **الأوّل**: أنه قد حصل التصريح بأن أوّل وجوب الخمس من الظهر قاله النووي في «المجموع».

الثاني: أن الإتيان بالصلاة متوقف على بيانها ولم تتبين إلا عند الظهر.

الفائدة الثانية: أوّل صلاة صلاها رسول الله ﷺ بالركوع صلاة العصر فصلى الظهر بلا ركوع، وكذا ما كان يقع منه من الصلاة قبل الإسراء. انتهى أجهوري.

«**قوله: غير واحد سلمت عليه فردّ عليّ السلام ورحب بي ودعا لي... إلخ**» صريح في أن النبي ﷺ هو الذي بدأ مالكًا بالسلام، والرواية الأخرى أن مالكًا هو الذي بدأ النبي ﷺ وهو الأصح وقد تقدم الجمع بينهما.

«**قوله: فإذا هو بوهج**» بفتح الراء والهاء وقد تسكن الهاء نظير نهر، وهو الدخان الكثير والأصوات المزعجة، فقوله: ودخان وأصوات مزعجة تفسير.

فلما نزل إلى سماء الدنيا نظر إلى أسفل منه فإذا هو بوهج ودخان وأصوات، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم لا يتفكرون في ملكوت السماوات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب، ثم ركب منصرفًا، فمرّ بعير لقريش بمكان كذا وكذا فيها جمل عليه غرارتان، غرارة سوداء وغرارة بيضاء. فلما حادي العير نفرت واستدارت وصرع ذلك البعير وانكسر].

قال المصنف ﷺ: [ومرَّ بعير قد ضلّوا بعيرًا لهم قد جمعه فلان،

«**قوله: لرأوا العجائب**» أي: في مصنوعات الله ومن طلوع الملائكة السماء وهبوطهم.

«**قوله: ثم ركب منصرفًا**» أي: ثم هبط لبيت المقدس فركب البراق حيث ربطه حال كونه منصرفًا؛ أي: راجعًا إلى مكة.

«**قوله: فمر بعير**» بكسر العين المهملة تذكر وتؤنث وأصلها الإبل الحاملة للميرة، ثم غلب إطلاقها على القافلة مطلقا فالمراد على قافلة وأمّا بفتح العين فهو الحمار.

«**قوله: لقريش**» أي: لتجارهم ذاهبة من الشام إلى مكة.

«**قوله: بمكان**» كذا وكذا لم يسم المكان لكون الراوي قد نسبه، وقوله: وفيها جمل عليه غرارتان تثنية غرارة بفتح الغين المعجمة في التثنية والمفرد.

«**قوله: وصرع ذلك البعير**» أي: المعبر عنه بالجمل، والحاصل أن البعير يطلق على ذكر الإبل وأنثاه ويخص الجمل بالذكر والناقة بالأنثى فما سيأتي في الآخر في سؤالهم، هل انكسر لكم ناقة؟ صوابه جمل أو بعير.

قال الشارح ﷺ: «**قوله: ومرّ بعير قد ضلوا... إلخ**» أي: قافلة عير الأولى وسيأتي أن هذه كانت بالروحاء، وأنها قبل التي فيها الجمل الحامل للغرارتين المذكورتين، وظاهر ما هنا أن قافلة الجمل متقدّمة على قافلة الروحاء فبين ما هما وما يأتي تعارض، ويجاب بأن الراوي لم يرتب هنا والواو في قوله: ومر بعير قد ضلوا.... إلخ، لا ترتب فالعبرة بما سيأتي وقوله: قد ضلوا بعيرًا يعني ناقة أخذًا

فسلَّم عليهم فقال بعضهم: هذا صوت محمد ثم أتى أصحابه قبيل الصبح بمكة، فلما أصبح قطع وعرف أن الناس تُكذِّبه، فقعد حزينًا، فمرَّ به عدوّ الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ قال: نعم، قال: ما هو؟ قال: أسري بي الليلة، قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس، قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال: نعم، فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث أن دعا قومه إليه، قال: أرأيت إن دعوت قومك أمحدثهم بما حدثتني؟ قال: نعم، قال: يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا، فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما، فقال: حدث قومك بما حدثتني، فقال رسول الله ﷺ إني أسري بي الليلة، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم، فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجبًا وضجوا وأعظموا ذلك،

مما سيأتي من أنّ ما ضلّ في قافلة الروحاء ناقة ومعنى ضلوا فقدوا ولم يذكر هنا أنهم انطلقوا في طلبها ولا أنه مرَّ بقدح فشرب منه اتكالاً على ما سيأتي.

«**قوله: فسلم عليهم**» يحتمل السلام الشرعي ويحمل على أن ذلك قبل تحريمه على الكفار ويحتمل أنه حياهم بما كان يقع بينهم ولم يذكر أنهم ردوا عليه السلام، ولم يتكلم هنا على القافلة الثالثة وهي قافلة التنعيم وسينبه عليها فيما سيأتي فيفيد أنه مرّ على ثلاثة قوافل: **أوّلها**: قافلة الروحاء، **والثانية**: قافلة الجمل ذي الغرارتين، **والثالثة**: قافلة التنعيم.

«**قوله: بين ظهرانينا**» أي: بين أظهرنا والمراد بيننا، والأصل بين أظهرن؛ إذ ظهر أمامه وظهر خلفه وظهر باليمين وظهر بالشمال كناية عن كونه مكنونًا بينهم فحذفت الهمزة ثم زيد فيه ألف ونون مفتوحة تأكيدًا فصار ظهران بوزن عنطشان. ثم جيء به على صورة المثنى فقيل بين ظهرانيهم وحذفت نون التثنية للإضافة.

«**قوله: فلم ير**» بفتح الياء من الرأي والاعتقاد؛ أي: لم يرَ تكذيبه في الحال صوابًا.

«**قوله: فانفضت إليه المجالس**» أي: أسرعت كالنجم الساقط من السماء.

«**قوله: حتى جلسوا إليهما**» أي: إلى حبيب الله وعدوه.

فقال المطعم بن عدي: كل أمرك قبل اليوم كان أمما غير، قولك اليوم أنا أشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعدًا شهرًا ومنحدرًا شهرًا، تزعم أنك أتيته في ليلة، واللات والعزى لا أصدقك، فقال أبو بكر ﷺ: يا مطعم بئس ما قلت لابن أخيك، جبهته وكذبته، أنا أشهد أنه صادق، فقالوا: يا محمد صف لنا بيت المقدس كيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟ وفي القوم من سافر إليه، فذهب ينعت لهم بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا، فما زال ينعت لهم حتى التبس عليه النعت، فكرب كربًا ما كرب مثله،

«**قوله: المطعم بن عديّ**» بضمّ الميم وسكون الطاء وكسر العين هلك كافرًا. انتهى، شامي.

«**قوله: أممًا**» بفتح الهمزة والميم؛ أي: حفيفًا سهلاً.

«**قوله: غير قولك**» أي: إلا قولك اليوم قد أسري بي.

«**قوله: نضرب أكباد الإبل**» أوقع الضرب على الأكباد؛ لأنها محل التعب والجهد، وأن لفظ أكباد زائدة والمراد نسافر عليها.

«**قوله: مصعدًا شهرًا**» بضم الميم وكسر العين؛ أي: ذهابًا أي نذهب ذهابًا أو حال كوننا ذاهبين شهرًا أي: مدة شهر، وقوله: ومنحدرًا أي ورجوعًا شهرًا.

«**قوله: تزعم**» أي: أتزعم فحذفت همزة الاستفهام.

«**قوله: واللات والعزى**» هما اسما صنمين، **الأول**: معبود ثقيف بالطائف، **والثاني**: معبود قريش وبني كنانة.

«**قوله: لابن أخيك**» إشارة إلى أن النبي ﷺ أصغر سنًا، وكان يقال للمسن يا عمّ.

«**قوله: جبهته**» بفتح الجيم والموحدة المشدّدة؛ أي: قابلته بالمكروه وأخجلته بالتكذيب.

«**قوله: قربه من الجبل**» لعله جبل الطور لقربه من بيت المقدس.

«**قوله: فكرب**» بالبناء للمجهول أو الفاعل؛ أي: تعب وشق عليه كربًا بسكون الراء التعب والمشقة.

فجيء بالمسجد وهو ينظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال، فقالوا: كم للمسجد من باب؟ ولم يكن عندها فجعل ينظر إليها ويعدها بابًا بابًا ويُعلمهم، وأبو بكر يقول: صدقت صدقت، أشهد أنك رسول الله ﷺ، فقال القوم: أمّا النعت فوالله لقد أصاب، ثم قالوا لأبي بكر: أفتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح، قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فبذلك سمي أبو بكر الصديق].

قال المصنف ﷺ: [ثم قالوا: يا محمد أخبرنا عن عيرنا، فقال: أتيت على عير بني فلان بالروحاء قد ضلوا ناقة لهم فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم، فليس بها منهم أحد، ....

«**قوله: فجيء بالمسجد**» أي: بمثاله أو بذاته أو كشف له عنه بأن أزيل الحجاب، وهذا الأخير لا يساعده قوله: حتى وضع دون دار عقيل؛ أي: عقيل ابن أبي طالب عم النبي ﷺ فهو أخو الإمام علي وجعفر وثلاثتهم صحابة، وأمّا أخوهم الرابع وهو طالب فمات كافرًا.

«**قوله: أو عقال**» أي: أنه يقال عقيل وعقال، والأوّل أشهر.

«**قوله: غدوة**» بضمّ أوله ما بين طلوع الفجر وزوال الشمس والروحة بفتح الراء من الزوال إلى الغروب[1].

قال الشارح ﷺ: «**قوله: بالروحاء**» براء مفتوحة فواو ساكنة فحاء مهملة فألف ممدودة، بلد من عمل الفرع على نحو أربعين ميلاً من المدينة أو ستة وثلاثين ميلاً أو ثلاثين أقوال، وبينها وبين المدينة ست مراحل أو أكثر.

«**قوله: قد ضلوا**» عبر عنها فيما تقدّم ببعير، وقوله: فانطلقوا في طلبها... إلخ، لم يذكره فيما تقدّم ففي هذا زيادة على ما تقدم كما أنه فيما تقدّم زاد لفظ فسلم عليهم فلا ضرر.

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (٣/ ٩٤).

وإذا بقدح ماء فشربت منه ثم انتهيت إلى عير بني فلان بمكان كذا وكذا، فيها جمل أحمر عليه غرارة سوداء، وغرارة بيضاء، فلما حاذيت العير نفرت وصرع ذلك البعير وانكسر، ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم، يقدمها جمل أورق عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان، وها هي ذا تطلع عليكم من الثنية، قالوا: فمتى تجيء؟ قال: يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون وقد ولى النهار ولم تجئ، فدعا النبي ﷺ ....

«**قوله: وإذا بقدح ماء**» هو قصعة كما سيأتي.

«**قوله: ثم انتهيت إلى عير بني فلان**... إلخ» الإتيان هنا بثم والانتهاء يدل على أن ذات الجمل الأحمر المذكور متأخرة عن قافلة الروحاء خلافًا لما يوهمه ما تقدّم. وتقدّم لك الجواب من أنه فيما مرّ لم يرتب.

«**قوله: ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم**... إلخ»[1] هذه عير ثالثة ولم يتكلم عليها فيما مرّ والتنعيم هو المسمى الآن بمساجد عائشة قريب من مكة بينه وبينها ثلاثة أميال، وقوله: جمل أورق؛ أي: في لونه بياض إلى سواد، والمسح جلال الجمل والثنية الطريق، وقوله: وها هي... إلخ، في إتيانه باسم الإشارة للقريب إشارة إلى رجوع اسم الإشارة لأقرب القوافل لمكة وهي قافلة التنعيم، وقوله: قالوا فمتى تجيء ينبغي أن يكون مقطوعًا عما قبله ويكون السؤال عن قافلة ما عدا التنعيم وقوله: يوم الأربعاء مشكل بناءً على الصحيح من أنّ المعراج ليلة الاثنين وتحديثهم يوم الاثنين، وبين الروحاء ومكة ستة مراحل أو أكثر فلا يمكن إتيانها يوم الأربعاء الذي يلي يوم هذا الاثنين، ويستبعد الأربعاء الذي يلي هذا الأربعاء؛ لأن المدة عشرة أيام من الاثنين إلى الاثنين والثلاث والأربعاء، ويجاب بحمل الأربعاء على التالي لهذا الاثنين وهو ثالث يوم، ويكون السؤال عن قافلة ذات الجمل الأحمر الحامل للغرارتين وهو دون الروحاء أو يحمل على قافلة الروحاء ويكون المراد بالأربعاء هو الذي في الجمعة الثانية، ويكون شأن من يأتي من الروحاء التأخر نحو تسعة أيام، بقي قوله: وإذا بقدح ماء فشربت منه

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (٣/ ٩٤).

فزيد له في النهار ساعة، وحبست له الشمس حتى دخلت العير، فاستقبلوا الإبل فقالوا: هل ضل لكم بعير؟ قالوا: نعم، قال: فسألوا العير الآخر، فقالوا: هل انكسر لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم، قالوا: فهل كان عندكم قصعة من ماء؟ فقال رجل: أنا والله وضعتها، فما شربها أحد منا ولا أهريقت في الأرض، فرموه بالسحر وقالوا: صدق الوليد، فأنزل الله تعالى:

مشكل بأنه كيف ساغ له شربه بلا إذن أهله؟ وأجيب: بأنه اعتمد على عادتهم من أنهم لا يمنعون اللبن ممن مرّ عليهم فضلاً عن الماء وكانوا يوصون الرعاة بأنهم لا يمنعون المارّة اللبن فالماء أولى وبأن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأموالهم فالكافرون أولى فكل ما في الكون ملكه.

«**قوله: فزيد له في النهار ساعة**» المراد بها القطعة من الزمان الصادق بأكثر من الساعة الفلكية، وقوله: وحبست له الشمس... إلخ، عطف سبب على مسبب. وقوله: فاستقبلوا الإبل؛ أي: استقبلوا كلاً منها، ولو في أوقات متعددة؛ لأن شأن المتقدّمة في المسافة أن تدخل قبل المتأخرة، وقوله: فقالوا هل ضلّ لكم بعير، هو الناقة من قافلة الروحاء كما تقدّم، وقوله: قال فسألوا العير الآخر. فقالوا: هل انكسر لكم ناقة؟ صوابه جمل أحمر لما تقدّم من أن الذي انصرع وانكسر إنما هو الجمل ذو الغرارتين.

وقوله: قالوا فهل كان عندكم قصعة حقه أن يوصل بقوله: هل ضلّ لكم بعير أي ناقة أو أنه يبدل لفظ ضلّ في الأوّل بانكسر لكم بعير عليه غرارتان، ويبدل لفظ انكسر لكم ناقة بضلّ لكم ناقة، وحينئذٍ يكون قوله: فهل كان عندكم قصعة من ماء.... إلخ، مرتبط به فالراوي للقصة وقع منه سهو عظيم رحمه الله، وهذه القصعة هي المعبر عنها فيما مرّ بالقدح ولم يذكر السؤال عن قافلة التنعيم ولعلها لقربها منهم جدًّا ودخولها في يومها فحالها علم لهم وأنّ الجمل الأورق يقدمها وعليه المسح الأسود.

«**قوله: فرموه بالسحر**» أي: عنادًا وكفرًا، وأوّل من رماه به الوليد بن المغيرة لعنه الله فلذلك قالوا: صدق الوليد؛ أي: ابن المغيرة حيث قال: إنه ساحر وقد مات كافرًا.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ **[الإسراء: ٦٠]**.

«**قوله: وما جعلنا الرؤيا**» قيل الرؤيا بدون التاء هي الحلمية. وأما البصرية فرؤية بالتاء والواقع هنا بصرية على الصواب من أنه كان في اليقظة بجسمه الشريف. فكيف قال الرؤيا ولم يقل الرؤية؟ وأجيب بأنّ ما وقع له في هذه الليلة العظيمة لما كان خارقًا للعادة خصوصًا، وقد وقع بالليل أشبه الرؤيا المنامية فعبر عنها بالرؤيا مجازًا، وقوله: فتنة للناس من أدل دليل على أنها كانت بصرية كما قال ابن عباس والمحققون وأرباب البصائر؛ إذ لو كانت منامية لما حصل افتتان إذ العاقل لا يستبعد الرؤيا المنامية ولا ينازع ولا يستعظم ولا يصفق ولا يضع يده على رأسه. وغاية ما يقع أنه يقول: يحتمل الصدق والكذب خصوصًا مع إنسان لم يعهد عليه كذب أصلاً من صغره لكبره جعلنا الله تعالى من التابعين لمنهجه القويم في الدنيا والآخرة آمين.

هذا آخر ما يسره الله تعالى مع العجلة وشغل القلب على أني ما جمعتها إلا لمن شأنه أن يقرأ القصة بمجلس أو مجلسين كما هو عادة العبد الفقير في قراءته لها بالجامع الأزهر، دام سعده بإقراء العلوم الشرعية فيه إلى يوم الدين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد صاحب التاج والمعراج وعلى آله الأطهار وأصحابه الأبرار، وعلى كل عبد مختار وسلم.

ولنشرع الآن بمعونة الله تعالى في الكلام على بعض الفوائد المتعلقة بقصة الإسراء والمعراج من عدة أوجه:

الوجه الأوّل
في كيفية الإسراء والمعراج وهل تكرر أو لا؟

وقد اختلف في ذلك، والذي ذهب إليه الجمهور من المفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين: أنهما وقعا في ليلة واحدة بالروح والجسد معًا في اليقظة لا في المنام من مكة إلى بيت المقدس إلى السماوات العلا إلى سدرة المنتهى إلى حيث شاء العليّ الأعلى.

قال القاضي عياض وغيره: وهو الحق، وعليه تدل الآية [و] صحيح الأخبار إلى السماوات استفاضة، ولا يعدل عن الظاهر والأخبار الواردة فيه ولا عن الحقيقة المتبادرة إلى الأذهان من ألفاظها إلى التأويل إلا عند الاستحالة، وتعذر حمل اللفظ على حقيقته، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة تؤذن بتأويل؛ إذ لو كان منامًا لقال: سبحان الذي أسرى بروح عبده، ولم يقل: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ والعبد: حقيقة هو الروح والجسد كما تقدم ذلك، ولو كان منامًا لما كان فيه آية ولا معجزة خارقة للعادة تورث صدقه.

وإن كانت رؤيا الأنبياء وحيًا؛ إذ ليس فيه من الأبلغية وخرق العادة ما فيه يقظة، وأيضًا لو كان منامًا لما استبعده المشركون ولا كذّبوه ولا أرتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به؛ إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، بل لم يكن منهم ذلك الاستبعاد والتكذيب والارتداد والافتتان إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته، وذلك بعيد عن ساحة العادة خصوصًا ووقوعه في مثل ذلك الزمن مما يستبعد جدًّا.

وذهب بعضهم إلى أن الإسراء كان في ليلة والمعراج كان في ليلة أخرى. قال ابن دحية: وإليه جنح البخاري؛ لأنه أفرد لكل منهما ترجمة. قال الحافظ ابن حجر: ولا دلالة في ذلك على التغاير عنده، بل كلامه في أوّل الصلاة ظاهر في اتحادهما؛ وذلك لأنه ترجم باب كيف فرضت الصلاة ليلة الإسراء والصلاة إنما فرضت في المعراج فدّل على اتحادهما عنده، وإنما أفرد كلاً منهما بترجمة؛

لأن كلاً منهما يشتمل على قصة منفردة وإن كانا وقعا معًا. انتهى.

ويؤيد وقوع المعراج عقب الإسراء في ليلة واحدة رواية ثابت ﷺ عند مسلم: «**أتيتُ البراق فركبتُ حتى أتيتُ بيت المقدس**»[1]، فذكر القصة إلى أن قال: ثم عرج بي إلى السماء الدنيا، وحديث أبي سعيد الخدري عن ابن إسحاق: فلمّا فرغت مما كان في بيت المقدس أتي بالمعراج فذكر الحديث.

وذهب جماعة إلى أن الإسراء كان بروحه في المنام، ويعزى هذا المذهب لمعاوية ﷺ، واحتج لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] والرؤيا إنما تطلق على ما كان منامًا، ولظاهر ما في بعض الأحاديث من قوله: بيما أنا نائم، وفي بعض الطرق: فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام.

ويعزى هذا المذهب أيضًا لعائشة - رضي الله عنها - لما في حديث ابن إسحاق من قولها: ما فقدت جسد رسول الله ﷺ وإنما أسرى بروحه، وأجيب عن الآية بأن الرؤيا قد تكون بمعنى الرؤية في اليقظة كما نقل عن ابن عباس، وبأن قوله: ﴿فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ يؤيد أنها رؤية عين؛ إذ ليس في الحلم فتنة ولا يكذب به أحد.

وعن قوله: بينما أنا نائم بأن أول مجيء الملك إليه وهو نائم فأيقظه؛ لأنه استمر نائمًا، وأمّا قوله: فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام فمعناه: أفقت؛ أي: أفاق مما كان فيه من شغل البال بمشاهدته عجائب الملكوت ورجع إلى عالم الملك، فلم يرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام، على أن الحديث الذي ورد فيه ذكر النوم موهن، فإن العلماء اتفقوا على أن شريك راويه اضطرب فيه وما حفظه، وزاد ونقص وقدّم وأخّر.

وممّا يعزى لعائشة بأنه لم يرد بسند صحيح يصلح للحجة، بل في سنده انقطاع وراو مجهول. وبتقدير صحته فعائشة لم تكن زوجته إذ ذاك ولا كانت في سن من يضبط الأمور، وعلى القول بأن الإسراء كان بعد المبعث بعام ولم تكن ولدت بعد فإذا لم تشاهد ذلك دلّ على أنها حدثت به عن غيرها فلم يرجح خبرها مع قول أم هانئ بخلافه.

---

(١) انظر: عيون الأثر (١/ ١٩١).

وذهب جماعة منهم الإمام أبو شامة إلى تكرار الإسراء والمعراج واحتج بما رواه البزار وغيره عن أنس ﷺ من قصة في المعراج مخالفة لما تقدم في قصة. قال الحافظ ابن حجر: ولا بعد في وقوع مثل ذلك في المنام. وإنما المستغرب وقوع التعدد في قصة المعراج التي وقع فيها السؤال عن كل نبي، وسؤال أهل كل سماء هل بعث إليه وفرض الصلوات الخمس... وغير ذلك؟

فإن تعدد مثل ذلك في اليقظة لا يتجه، فيتعين رد بعض الروايات المختلفة إلى بعض والترجيح إلا أنه لا بعد في وقوع جميع ذلك في المنام، ثم وقوعه في اليقظة على وفقه. انتهى.

وقد ذهب جماعة منهم البغوي وجزم به النووي في «فتاويه» إلى أن الإسراء وقع مرتين: مرة في النوم، ومرة في اليقظة، قالوا: وكانت مرة النوم توطئة له تيسيرًا عليه كما كان بدء نبوّته الرؤيا الصادقة؛ ليسهل عليه أمر النبوة، فإنه أمر عظيم تضعف عنه القوى البشرية، وكذلك الإسراء سهله عليه الرؤيا؛ لأن هو له عظيم، فجاء في اليقظة على وفقه في المنام توطئه وتقدمه رفقًا من الله تعالى بعبده وتسهيلاً عليه.

الوجه الثاني في وقت الإسراء ومكانه

أمّا وقت الإسراء: فالصواب الذي اتفق عليه العلماء أن الإسراء كان بعد البعثة، وأمّا ما وقع في بعض الروايات أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى، فيحمل على أن المجيء الثاني كان بعد أن أوحى إليه، وحينئذ وقع الإسراء والمعراج وإذا كان بين المجيئين مدة، فلا فرق بين أن تكون قليلة أو كثيرة.

قال ابن كثير: وهذا الحمل هو الأظهر وبه يرتفع الإشكال كما قاله الحافظ ابن حجر، ويحتمل كما قاله بعضهم أن يكون المعنى قبل أن يوحى إليه في شأن الإسراء والمعراج مثلاً؛ أي: وقع ذلك بغتة قبل أن ينذر به. انتهى.

واختلفوا في أي سنة كان، فجزم جمع بأنه كان قبل الهجرة بسنة، وجرى عليه النووي وبالغ ابن حزم فنقل فيه الإجماع، وقيل: قبل الهجرة بثلاث سنين حكاه ابن الأثير، وقال القاضي عياض: قبل الهجرة بخمس سنين، ورجحه

بالاتفاق على أن خديجة صلّت معه بعد فرض الصلاة وأنها ماتت قبل الهجرة بثلاث أو خمس ولا خلاف أن فرضها كان ليلة الإسراء.

وأجيب بأن الصلاة التي صلّتها معه هي التي كانت أول البعثة، وكانت ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، وإنما الذي فرض ليلة الإسراء الصلوات الخمس وماتت خديجة قبل ذلك.

وقيل: كان بعد البعثة بخمس سنين، وقيل: بخمسة عشر شهرًا، وقيل: بعام ونصف، واختلفوا أيضًا في أي الشهور كان، فجزم ابن الأثير وجمع منهم النووي في «فتاويه» كما في النسخ المعتمدة بأنه كان في ربيع الأول، قال النووي: ليلة سبع وعشرين منه جرى عليه جمع.

وفي بعض نسخ شرح مسلم كما في «الفتاوى»، وفي أكثر النسخ من شرح مسلم: إنه كان في ربيع الآخر كما في بعض نسخ «الفتاوى»، وقيل: كان في ليلة سبع وعشرين من رجب، وجزم به النووي في «الروضة» تبعًا للرافعي، وقيل: كان في رمضان، وقيل: في شوال، وعيَّن بعضهم اليوم الذي أسفرت عنه تلك الليلة بأنه يوم الاثنين، وحاول موافقة كون المولد يوم الاثنين، وكون المبعث يوم الاثنين، وكون المعراج يوم الاثنين، وكون الهجرة يوم الاثنين، وكون الوفاة يوم الاثنين، قال: فإن هذه أطوار الانتقالات النبوية وجودًا، ونبوة، ومعراجًا، وهجرة، ووفاة، فهذه خمسة أطوار فيكون يوم الاثنين في حقه كيوم الجمعة في حق آدم ﷺ، فيه خلق، وفيه أنزل إلى الأرض، وفيه تاب الله تعالى عليه، وفيه مات، وكانت أطواره الوجودية والدينية خاصة بيوم واحد.

وروى ابن أبي شيبة عن جابر وابن عباس ﷺ قالا: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين، وفيه بعث، وفيه عرج إلى السماء، وفيه مات، وقولهما: وفيه عرج إلى السماء أرادا ليلته؛ لأن الإسراء كان الليل اتفاقًا، وأمّا مولده فالصحيح: إنه كان نهارًا كما قال البدر الزركشي، وقيل: كان ليلاً، فعليه المراد أيضًا ليلته كما تقدم.

وأمّا مكانه فباعتبار البلد المشهور أنه بمكة، ومن قال بالمدينة فمحمول على التعدد في المنام، وباعتبار المكان الخاص فيؤخذ من الأحاديث أقوال: ففي

رواية: أنه كان عند البيت، وفي الأخرى: في الحطيم، وربما قال: في الحجر، والمراد بالحطيم هنا: الحِجر، كما قاله ابن حجر، وفي رواية: فرج سقف بيتي وأنا بمكة، وفي رواية: أنه أسري به من شعب أبي طالب، وفي رواية: أنه كان في بيت أم هانئ.

قال الحافظ ابن حجر: والجمع بين هذه الأقوال أنه كان في بيت أم هانئ وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج عن سقف بيته وأضاف البيت إليه؛ لأنه كان يسكنه فنزل منه منزلة الملك وأخرجه إلى المسجد، فكان به مضطجعًا وبه أثر النعاس، ثم أخرجه إلى باب المسجد فأركبه البراق، قال: وقد وقع في مرسل الحسن عند ابن إسحاق فأتاه وأخرجه إلى المسجد وهو يؤيد هذا الجمع. انتهى.

وقال بعضهم: ليس بين قوله: بينا أنا في المسجد، وبين قوله: في بيتي أو في بيت أم هانئ تناف؛ لأنه قد يكون المراد بالمسجد الحرام الحرم كله. انتهى.

الوجه الثالث

هل وقع الإسراء لغيره ﷺ من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أو هو من خصوصياته ﷺ؟

أجاب العارف عبد العزيز المهدوي: بأن مرتبة الإسراء بالجسم إلى تلك الحضرات العلية لم تكن لأحد من الأنبياء إلا لنبينا محمد ﷺ انتهى.

وقد عدّه أيضًا من خصائصهالحافظ السيوطي في خصائصه الصغرى والكبرى.

الوجه الرابع

قال ابن المنير: كانت كرامته في المناجاة على سبيل المفاجأة كما أشار إليه بقوله «**بينا أنا**» وفي حق موسى ﷺ عن ميعاد واستعداد، فحمل عنه ألم الانتظار، ويؤخذ من ذلك أن مقام النبي ﷺ بالنسبة إلى مقام موسى مقام المراد بالنسبة إلى مقام المريد.

وقال ابن دحية: في قوله فرج سقف بيتي يقال: لِمَ لم يدخل عليه من الباب مع قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة:١٨٩] فالحكمة في ذلك:

المبالغة في المفاجأة، والتنبيه على أن الكرامة والاستدعاء كانا على غير ميعاد، والإشارة إلى ما سيقع من شق صدره والتئامه على الفور بلا معالجة، فأراه الملك بإفراجه عن السقف والتئامه على الفور كيفية ما يصنع وقرب له الأمر لطفًا في حقه وتثبيتًا لصبره.

وقال بعضهم: الحكمة في نزوله عليه من السقف: التنبيه على أن المراد منه أن يعرج به إلى جهة العلو.

الوجه الخامس
الرجلان اللذان كان النبي ﷺ نائمًا بينهما تلك الليلة حمزة وجعفر

قال ابن أبي جمرة: وفي هذا دليل على تواضعه، وحسن خلقه؛ إذ إنه في الفضل حيث هو مع ذلك كان يضطجع مع الناس ويقعد معهم ولم يجعل لنفسه الكريمة مزية عليهم، وفيه دليل على جواز نوم جماعة في موضع واحد، لكن يشترط في ذلك أن يكون لكل منهم ما يستر به جسده عن صاحبه.

الوجه السادس
فيما وقع في القصة من شق صدره الشريف[1]

وقد أنكر بعضهم وقوع ذلك ليلة الإسراء، وقال: إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد، قال الحافظ ابن حجر وغيره: ولا إنكار في ذلك فقد تواترت به الأخبار، ووقع له ذلك ثلاث مرات:

الأولى: وهو صغير في بني سعد عند مرضعته حليمة.

الثانية: عند البعثة.

الثالثة: ليلة الإسراء.

* ولكل من الثلاثة حكمة:

فالأولى: التي كانت في زمن الطفولة؛ لينشأ على أكمل الأحوال من

---

(١) انظر: الخصائص الكبرى (١/ ١١٣).

العصمة من الشيطان، ولعل هذا الشق كان سببًا في إسلام قرينه المروي عند البزار من حديث ابن عباس.

والثانية: التي عند المبعث زيادة في الكرامة؛ ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير.

والثالثة: التي عند إرادة العروج إلى السماء؛ ليتأهب للمناجاة.

قال الحافظ المذكور: ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل؛ لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة كما في شرعه في الطهارة.

قال بعضهم: وهذه الحكمة من أعظم الحكم وألطفها وأدقها وحقها أن تكتب بماء الذهب على صفحات القلوب؛ لارتفاع محلها، قال بعضهم: قد سن الغسل لداخل الحرم الشريف فما ظنك بداخل الحضرة المقدسة، فلمّا كان الحرم الشريف من عالم الملك وهو ظاهر الكائنات أنيط الغسل له بظاهر البدن في عالم المعاملات، ولمّا كانت الحضرة الشريفة من عالم الملكوت وهو باطن الكائنات أنيط الغسل بباطن البدن في التحقيقات، وقد عرج به؛ لتفرض عليه الصلاة وليصل بملائكة السماوات، ومن شأن الصلاة الطهور فقدس ظاهر أو باطنًا، فهو ﷺ وإن كان الله تعالى خلقه نورًا متنقلاً من الأنبياء، وفي صفاء النور ما يغني عن التطهير الحسي، لكن الغسلة الأولى: لعلم اليقين، والثانية: لعين اليقين، والثالثة: لحق اليقين.

وقد ورد أن صدره شق أيضًا وهو ابن عشر سنين، فتكون المرات أربعا، وذكر بعضهم في حكمة ذلك: إن العشر لمّا كانت قريبًا من سن التكليف شق صدره ﷺ وقدس حتى لا يلتبس بشيء مما يعاب على الرجال.

قال الحافظ ابن حجر: وما ذكر من شق الصدر واستخراج القلب مما يجب التسليم له، ولا يصرف عن حقيقته لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك، ويؤيده كما قال بعضهم: الحديث الصحيح أنهم كانوا يرون أثر المخيط في صدره ﷺ.

قال ابن المنير: وشق الصدر له ﷺ وصبره عليه من جنس ما ابتلى به الذبيح وصبره عليه، بل هذا أشق وأجل؛ لأن تلك معاريض وهذه حقيقة، وأيضًا فقد

تكرر وقع له وهو رضيع بعيد من أهله ﷺ.

وقد احتلف هل كان شق الصدر وغسله مخصوصًا به أو وقع لغيره من الأنبياء؟ قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: وقد وقع عند الطبراني في قصة تابوت بني إسرائيل أنه كان فيه الطست التي تغسل فيها قلوب الأنبياء وهذا مشعر بالمشاركة. انتهى.

وصحح الحافظ الجلال السيوطي في «خصائصه الصغرى» عدم المشاركة وأنه من خصائصه ﷺ، وخالفه تلميذه العلّامة محمد الشامي فقال: الراجح المشاركة، واستند لقصة تابوت بني إسرائيل من طريق السدي الكبير كما رواه سعيد بن منصور وابن جرير بسند صحيح بزيادة على ما تقدم، ثم قال: ولم أر لعدم المشاركة ما يعتمد عليه بعد الفحص الشديد.

قلت: لكن يمكن أن يقال وقوع شق الصدر له ﷺ **مع تكرره ثلاث مرات أو** أربعًا لم يشاركه أحد من الأنبياء فيه، ويحمل عليه كلام السيوطي، وأمّا مطلق شق الصدر فوقفت فيه المشاركة لغيره من الأنبياء، وعليه يحمل كلام غيره. ومستند ما قلته: إن تكرر شق الصدر له ثبت في الأحاديث التي بعضها في «الصحيحين»، ووقوع شق الصدر لغيره إىما أخذ من القصة المذكورة وليس فيها تعرض لتكرره هذا ما ظهر، والله تعالى أعلم.

واختلف هل وقع له دلك مع مشقة أو لا؟ فقال الحافظ ابن حجر: من غير مشقة، وبه جزم ابن الجوزي فقال: فشقه وما شق عليه، وقال ابن دحية: بمشقة عظيمة، ولهذا انتقع لونه؛ أي: صار كلون النقع وهو الغبار، وهذه صفة ألوان الموتى.

قال بعضهم: رواية انتقع لونه حكاية لما وقع له في المرة الأولى وهو صغير في بني سعد، وفي حديث أبي هريرة في المرة الثانية وهو ابن عشر ما يؤيد أنه لم يقع له مشقة بعد المرة الأولى.

ووقع السؤال هل كان شق صدره بآلة؟ قال بعض المحدثين: لم أر من تعرض له بعد التتبع. وظاهر قوله: فشق أنه كان بآلة.

الوجه السابع
في الحكمة في الاختصاص الإتيان بطست من ذهب[١]

أمّا الطست: فلكونه أشهر آلات الغسل عرفًا، وأمّا كونه من ذهب: فلأنه أعلى الأواني وأصفاها؛ ولأن فيه خواص ليست في غيره منها:

* إنه من أواني الجنة.

* وإنه لا تأكله النار ولا التراب ولا يصدأ.

* وإنه أثقل الجواهر فناسب ثقل الوحي.

قال السهيلي وابن دحية: إن نظر إلى لفظ الذهب ناسب من جهة إذهاب الرجس عنه ولكونه وقع عند الذهاب إلى ربه، وإن نظر إلى معناه فلوضاءته ونقائه وثقله والوحي ثقيل، وأمّا تحريم استعماله فهو مخصوص بأحوال الدنيا، وذلك كان من أحوال الغيب فيلتحق بأمور الآخرة. وقال النووي: ليس في هذا الخبر ما يوهم جواز استعمال إناء الذهب والفضة؛ لأن هذا فعل الملائكة واستعمالهم وليس بلازم أن يكون حكمهم كحكمنا؛ ولأنه كان قبل تحريم النبي ﷺ استعمال أواني الذهب والفضة. انتهى.

أي: لأن التحريم إنما وقع في المدينة كما نبّه عليه الحافظ ابن حجر، وهذا أحسن من جوابه الأوّل؛ لأنه تعقب بأنه لا يكفي أن يقال: إن المستعمل له ممن لم يحرم عليه ذلك من الملائكة لأنه لو كان حرم عليه استعماله لنزه أن يستعمله غيره في أمر يتعلق ببدنه المكرم.

الوجه الثامن

يؤخذ من غسل قلبه الشريف ﷺ بماء زمزم أنه أفضل من ماء الكوثر؛ لأنه لم يكن يغسل قلبه الشريف إلا بأفضل المياه، قاله الإمام البلقيني. وقال الإمام ابن أبي جمرة: إنما لم يغسل بماء الجنة لما اجتمع في زمزم من كون أصل مائها من الجنة، ثم استقر في الأرض فأريد بقاء بركته ﷺ في الأرض. انتهى.

وقيل: لأن ماء زمزم يقوي القلب ويسكن الروع، قال الحافظ الزيني

(١) انظر: الخصائص الكبرى (١/ ٢٥٣).

العراقي: ولذلك غسل به قلبه ﷺ ليلة الإسراء ليقوى على رؤية الملكوت وما رآه في تلك الليلة. انتهى.

الوجه التاسع
في معنى ما ورد في القصة

أنه لما استخرج قلبه الشريف ﷺ فغسله ونزع ما كان فيه من أذى. وفي بعض الروايات: أنه أخرج منه علقة سوداء، وقال: هذا حظ الشيطان منك.

وقد سئل الإمام التقي السبكي - رحمه الله تعالى - عن العلقة السوداء التي أخرجت من قلبه ﷺ حين شق فؤاده، وقول الملك: هذا حظ الشيطان منك.... إلخ ما هي؟ فأجاب - رحمه الله تعالى - بأن تلك العلقة خلقها الله تعالى في قلوب البشر، قابلة لما يلقيه الشيطان فيها، فأزيلت من قلبه الشريف ﷺ فلم يبق فيه مكان؛ لأن يلقي الشيطان فيه شيئًا، هذا معنى الحديث.

ولم يكن للشيطان فيه حظ، وأمّا الذي نفاه الملك هو في الجبلات البشرية. فأزيل لقابل الذي لم يكن يلزم من حصوله حصول القذف في القلب، قيل له: فلم خلق الله تعالى هذا القابل في هذه الذات الشريفة وكان يمكنه ألّا يخلقه تعالى فيه؟ فقال: إنه من جملة الأجزاء الإنسانية فخلقت تكملة الخلق الإنساني، ولا بد منه ونزعته كرامة ربانية طرأت.

وقال غيره: لو خلق الله نبيه ﷺ سليما منها لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته، فأظهره الله تعالى على يد جبريل عليه السلام؛ ليتحققوا كمال باطنه كما برز لهم مكمل الظاهر.

الوجه العاشر
في معنى كون الطست مملوءًا حكمة وإيمانًا وإفراغه في الصدر مع أن الإيمان والحكمة من الأعراض، وهي لا يوصف بها إلا محلها الذي تقوم به، ولا يجوز فيها الانتقال؛ لأنه من صفات الأجسام

قال الإمام النووي والحافظ ابن حجر: المعنى جعل في الطست شيء يحصل به زيادة في كمال الإيمان وكمال الحكمة، وهذا المملوء يحتمل أن يكون

على الحقيقة وتجسد المعاني جائز كما جاء أن سورة البقرة تجيء يوم القيامة كأنها الظلة، والموت يجيء في صورة كبش، وكذلك وزن الأعمال وغير ذلك.

وقد اختلف في تفسير الحكمة على أقوال كثيرة، قال النووي: والذي صفا لنا منها إنها العلم المشتمل على معرفة الله تعالى مع نفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق للعمل به، والكف عن ضده، والحكيم من جاز ذلك، وقوله: فأفرغه؛ أي: الطست الممتلئ حكمة وإيمانًا، في صدره: المراد به القلب فسماه باسم ما هو فيه وهو الصدر.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: الحكمة في شق صدره: مع القدرة على أن يمتلئ قلبه إيمانًا، وحكمة من غير شق: الزيادة في قوة اليقين؛ لأنه أعطي برؤية شق بطنه وعدم تأثره بذلك ما أمن معه من جميع المخاوف العادية. فلذلك كان أشجع الناس حالاً ومآلاً، ولذلك وصف بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧].

الوجه الحادي عشر
في الحكمة في الختم بين كتفيه
بخاتم النبوة مع بعض الكلام على الخاتم المذكور وقدره

قال الإمام السهيلي: الحكمة في وضع خاتم النبوة على جهة الاعتبار: إنه لما ملئ قلبه إيمانًا فاختم عليه كما يختم على الوعاء المملوء مسكًا أو درًا، فجمع الله تعالى أجزاء النبوة لسيدنا رسول الله ﷺ وتممه وختم عليه بختمه، فلم تجد نفسه ولا عدوه سبيلاً إليه من أجل ذلك الختم؛ لأن الشيء المختوم محروس، وكذلك تدبير الله تعالى لنا في هذه الدار إذا وجد أحدنا الشيء بختمه زال الشك وانقطع الخصام فيما بين الآدميين، فلذلك ختم رب العالمين في قلبه ختمًا يطمئن له القلب الذي ألقى النور فيه ونفذت قوة القلب، فظهر بين كتفيه كالبيضة.

وقد اختلف في موضع الخاتم من جسده: فوقع في بعض الأحاديث أنه بين كتفيه، وفي «صحيح» مسلم: أنه عند نغض كتفه اليسرى، وفي رواية شاذة: أنه عند غضروف كتفه اليمنى، والنغض - بنون تضم وتفتح فغين ساكنة فضاد معجمتين - أعلى الكتف عند الجمهور، والغُضْروف - بغين معجمة مضمومة فضاد ساكنة

معجمة فراء فضاء - رأس لوح الكتف، ووقع في حديث شداد بن أوس في مغازي ابن عائذ في قصة شق صدره وهو في بلاد بني سعد بن بكر: وأقبل وفي يده خاتم له شعاع فوضعه بين كتفيه وثدييه، قال الحافظ ابن حجر: وهذا قد يؤخذ منه أن الختم وقع له في الموضعين من جسده، والعلم عند الله تعالى.

ومقتضى الأحاديث التي فيها شق الصدر ووضع الخاتم: إنه لم يكن موجوداً حين ولادته، وإنما كان أول وضعه لما شق صدره عند حليمة، خلافًا لمن قال: ولد به أو حين وضع.

قال السهيلي: والحكمة في كون الخاتم عند نغض كتفه: إنه معصوم من وسوسة الشيطان، وذلك الموضع منه يدخل الشيطان يوسوس؛ أي: لأن القلب من تلك الجهة.

وقد اختلف في صفة خاتم النبوة على أقوال كثيرة نحو العشرين قولاً متقاربة المعنى، ففي رواية: إنه مثل زر الحجلة، و«الزر» واحد الأزرار، و«الحجلة» واحد الحجال، وهي بيت كالقبة له أزرار كبار وعرًا كالبشخانة هذا هو الأشهر في تفسير ذلك، وفي رواية: إنه كجُمْع - بضم الجيم وإسكان الميم - أي: كجمع الكف وهو صورته بعد أن تجمع الأصابع وتضمها، وفي رواية: إنه كبيضة الحمامة، وفي أخرى: إنه شعر مجتمع[1].

قال بعض العلماء: اختلف أقوال الرواة في خاتم النبوّة وليس ذلك باختلاف، بل كل شبه بما سنح له وكلها ألفاظ مؤداها واحد وهو قطعة لحم فمن قال شعر؛ فلأن الشعر حوله متراكم عليه، كما في الرواية الأخرى: إنه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متراكمات كأنها عرف الفرس.

وقال القرطبي: دلّت الأحاديث الثابتة على أن خاتم النبوة كان شيئًا بارزًا أحمر عند كتفه الأيسر، إذا قلل قدر بيضة الحمام، وإذا كثر كجمع اليد، وذكر نحوه القاضي عياض وزاد، وأمّا رواية جمع الكف فظاهرها المخالفة، فتؤول على وفق الروايات الكثيرة ويكون معناه على هيئة جمع الكف، لكنه أصغر منه في قدر بيضة الحمامة.

(١) انظر: سبل الهدى (٢/ ٤٥).

وأخرج الحاكم في المستدرك عن وهب بن منبه قال: لم يبعث الله نبيًا إلا وقد كان عليه شامات النبوّة في يده اليمنى إلا أن يكون نبينا ﷺ، فإن شامة النبوّة كانت بين كتفيه. قال في «المواهب»: وعلى هذا فيكون وضع الخاتم بين كتفيه بإزاء قلبه مما اختص به عن سائر الأنبياء، والله أعلم.

وذكر الحافظ مغلطاي في الزهد: إن الحاكم روى في تاريخه عن عائشة أنها لمست الخاتم حين توفي رسول الله ﷺ فوجدته قد رفع. انتهى.

والحكمة في رفعه عند موته ﷺ مع أن النبوّة والرسالة باقيتان بعد موته: حقيقة لحياته في قبره كسائر الأنبياء؛ لأنه لما وضع لحكمة وهي تمام الحفظ والعصمة من الشيطان، وقد تم الأمن منه بالموت فلم يبق لبقائه في جسده فائدة.

الوجه الثاني عشر
في الكلام على البراق، وفي الحكمة في ركوبه ﷺ، وفي حكمة استصعابه عند إرادة الركوب عليه

فالبُراق - بضم الموحدة وتخفيف الراء - مشتق من البريق، فقد جاء في لونه أنه أبيض، أومن البرق لوصفه بسرعة السير، أو من قولهم شاة برقاء إذا كان في خلال صوفها الأبيض طاقات سود ولا ينافيه وصفه في الحديث بالبياض؛ لأن البرقاء من الغنم معدودة في البيض، ويجوز أن يجمع بين المعنيين فيسمى براقًا؛ للونه ولسرعة سيره، ويحتمل ألّا يكون مشتقًا.

وقد ورد في صفته أقوال: أمثلها ما ذكر في القصة عن ابن عباس: والسر في كون جناحيه في فخذيه ثقل مؤخر الدابة؛ أو لأن ذلك جار على هذا الأمر في خرق العادة. أو لأجل الراكب؛ لأنهما لو كانا في جنبيه على العادة لكانا تحت فخذي الراكب وفوقهما، ويحصل له مشقة بضمهما ونشرهما خصوصًا مع السرعة العظيمة.

وفي بعض الآثار: أن البراق ليس بذكر ولا أنثى، فاقتضى ذلك أن يكون مفردًا بالخلق بهذه الصفة من غير توليد؛ لأنه خارج عن قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] لكن نقل الشيخ سعد الدين التفتازاني: أن الملائكة الكرام لا ذكور ولا إناث... إلى آخر ما ذكره، وفي أثر آخر: إن جبريل

خاطبه خطاب المؤنث.

قال ابن أبي جمرة ما ملخصه: وإنما كان ركوب النبي ﷺ على البراق والقدرة صالحة؛ لأن يصعد بنفسه من غير براق، لكن كان في البراق بشارة له في تشريفه؛ لأنه لو صعد بنفسه لكان في صورة ماش والراكب خلاف الماشي.

قال ابن دحية ما ملخصه أيضًا: ولعل السر في الإسراء بالبراق إظهار الكرامة العرفية. فإن الملك العظيم إذا استدعى وليًا له وخصيصًا به وأشخصه إليه بعث إليه بمركوب سنيّ ليحمله عليه في وفادته إليه ولم يكن البراق بشكل الفرس، ولكنه بشكل البغل للإشارة إلى أن الركوب في سلم وأمن لا في حرب وخوف. أو لإظهار المعجزة في الإسراع العجيب من دابة ما يوصف شكلها بالإسراع الشديد عادة، فإن قيل: هلا كان الإسراء على أجنحة الملائكة، أو الريح كما كانت تحمل سليمان ﷺ، أو الخطوة كطي الزمان.

قلت: المراد اطلاعه على الآيات الخارقة للعادة وما يتضمن أمرًا عجيبًا، ولا عجب في حمل الملائكة أو الريح بالنسبة إلى قطع هذه المسافة بخلاف قطعها على دابة في هذا الحجم المحكي عن صفتها لو وقع من تعظيمه بالملائكة ما هو أعظم من حمله على أجنحتها فقط، فقد أخذ جبريل بركابه وميكائيل بزمام البراق وهما من أكابر الملائكة، فاجتمع له ﷺ حمل البراق وما هو كحمل البراق من الملائكة، وهذا أتم في الشرف قاله في «فتح الصماء».

وقد اختلف في حكمة استصعاب البراق فقال ابن بطال: إنما استصعب عليه لبعده بركوب الأنبياء قبله، ويؤيده ما ورد في بعض طرق القصة: فاستصعب البراق وكانت الأنبياء تركبها قبلي وكانت بعيدة العهد بركوبهم ولم تكن ركبت في الفترة. وقال بعض المتأخرين: ولا يبعد أن يقال: إنما كان استصعابه فرقًا من هيبة سيدنا رسول الله ﷺ.

وقال الإمام العيني في «شرح البخاري»: وسمع العبد الضعيف من بعض مشايخه الثقات أنه إنما شمس ليعد له الرسول ﷺ بالركوب عليه يوم القيامة، فلمّا وعد له ذلك قرّ؛ وذلك لأنه جاء في التفسير في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝﴾ [الضحى: ٥] أن الله تعالى أعد له في الجنة أربعين ألف

براق ترعى في مروج الجنة. انتهى.

وروى ابن زنجويه في «فضائل الأعمال» عن كثير بن مرة الحضرمي قال: قال رسول الله ﷺ: **«تبعث ناقة ثمود لصالح فيركبها من عند قبره حتى يوافي بها المحشر، وأنا على البراق اختصصت به من دون الأنبياء يومئذٍ، ويبعث بلال على ناقة من نوق الجنة ينادي عليها بالأذان حقًا، فإذا سمعت الأنبياء وأممها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، قالوا: ونحن نشهد على ذلك»**[1].

وقال ابن دحية وابن المنير: إنما استصعب تيهًا وزهوًا بركوب النبي ﷺ. وأراد بقوله: أبمحمد تستصعب استنطاقه بلسان الحال، وإنه لم يقصد الصعوبة، وإنما تاه لمكان النبي ﷺ منه، ولهذا قال: ارفض عرقًا، فكأنه أجابه بلسان الحال متبرئًا من الاستصعاب وعرق من خجل العتاب، وذلك قريب من رجفة الجبل به حتى قال له: اثبت، فإنما عليك نبيّ وصدّيق وشهيد فهي هزة طرب لا هزة غضب. ولم يسم الله سبحانه وتعالى سير البراق برسول الله ﷺ طيرانًا. وإنما سمّاه بما يسمي به السير المعتاد وسير الليل عند العرب يسمى إسراء.

فيؤخذ من هذا: إن الولي إذا طويت له الأرض البعيدة في الساعة الواحدة يتناوله اسم المسافر. ويشمله أحكام السفر باعتبار القصر والفطر، وإنما لم يذكر البراق في الرجوع؛ لأن ذلك معلوم بذكره في الصعود، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] يعني: والبرد. ويؤخذ مما ذكر في القصة وهنا: من أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام ركبوا البراق أن ركوبه ليس من خصائصه ﷺ نعم، قيل: ركوبه مسرجًا ملجمًا لم يرد لغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الوجه الثالث عشر
في قوله في القصة: وتكلم أربعة وهم صغار

فذكر ابن الماشطة وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم: وقد تكلم في المهد جماعة غيرهم وصلوا بالأربعة المذكورين إلى عشرة.

(١) تقدم تخريجه.

ففي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة مرفوع: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة، فذكر عيسى وصاحب جريج وابن المرأة التي مرّ عليها بامرأة يقال لها: زنت، وفي «صحيح» مسلم في قصة أصحاب الأخدود: إن امرأة جيء بها لتلقى في النار لتكفر ومعها صبي يرضع فتقاعست، فقال: يا أمه اصبري، فإنك على الحق، وفي رواية عند ابن قتيبة: إنه كان ابن سبعة أشهر.

وروى الثعلبي عن الضحّاك: إن يحيى بن زكريا تكلم في المهد.

وذكر البغوي في «تفسيره»: إن إبراهيم الخليل ﷺ تكلم في المهد.

وفي «سير» الواقدي: إن نبينا سيدنا ومولانا محمد ﷺ تكلم في أوائل ما ولد، وقد تكلم في زمنه مبارك اليمامة وهو طفل كما في «الدلائل» للبيهقي. فهؤلاء عشرة، وأمّا قوله ﷺ في «الصحيحين» كما تقدم لم يتكم في المهد إلا ثلاثة. . . إلى آخره، فقل الزركشي: أي من بني إسرائيل، وقال غيره: قاله قبل أن يعلم الزيادة، وقد نظم أسماء المتكلمين في المهد العشرة الحافظ الجلال السيوطي - رحمه الله تعالى - فقال:

تكلم في المهد النبيّ محمد ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبري جريج ثم شاهد يوسف وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مر بالأمة التي يقال لها تزني ولا تتكلم
وماشطة في عهد فرعون طفلها وفي زمن الهادي المبارك يختم

الوجه الرابع عشر
ذكر في القصة نزوله ﷺ عن البراق وصلاته بعدة مواضع

وقال حذيفة: إن رسول الله ﷺ لم يزايل ظهر البراق هو وجبريل حتى انتهيا إلى بيت المقدس، قال الحافظ ابن حجر: وهذا لم يسنده حذيفة إلى النبي ﷺ فيحتمل أنه قاله عن اجتهاد، قال بعضهم: ويدل على ذلك إنكار ربط البراق والصلاة في بيت المقدس مع ورود الأحاديث الصحيحة عن جماعة من الصحابة بوقوع ذلك، وظاهر قول حذيفة ليزايل هو وجبريل ظهر البراق: إن جبريل كان راكب البراق مع النبي ﷺ.

وقد اختلف في ذلك، وأجاب بعضهم عن قول حذيفة: بأنه يحتمل أن يكون قوله هو وجبريل متعلق بمرافقته في السير لا في الركوب، وقال ابن دحية معناه: وجبريل قائد وسائق أو دليل، قال: وإنما جزمنا بذلك أن قصة المعراج كانت كرامة النبي ﷺ فلا مدخل لغيره فيها.

وقد تعقب الحافظ ابن حجر التأويل المذكور بأن في «صحيح» ابن حبان من حديث ابن مسعود: إن جبريل حمله على البراق رديفًا له، وفي رواية: الحارث في مسنده أتي بالبراق فركبه خلف جبريل فسار بهما، وهذا وما قبله صريح في ركوبه معه، وإنه كان خلف جبريل رديفًا له، لكن في حديث ابن أبي ليلى الذي رواه الطبراني: إن جبريل أتى النبي ﷺ بالبراق فحمله بين يديه، والله أعلم.

وأمّا ما تقدم من إنكار حذيفة رضي الله عنه ربط البراق فروى الإمام أحمد والترمذي عنه: إنه لمّا قيل له: اربط البراق؟ فقال: أخاف أن يفر منه، وقد سخره له عالم الغيب والشهادة، قال البيهقي والسهيلي: والمثبت مقدم على النافي؛ يعني: من أثبت ربط البراق في بيت المقدس معه زيادة علم على من نفى فهو أولى بالقبول.

وقال الإمام النووي: وفي ربط البراق الأخذ بالاحتياط في الأمور وتعاطي الأسباب، وإن ذلك لا يقدح في التوكل إذا كان الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، وقال السهيلي: في هذا من الفقه: التنبيه على الأخذ بالحزم مع صحة التوكل، وإن الإيمان بالقدر كما روي عن وهب بن منبه: لا يمنع الحزم من توقي المهالك، قال وهب: وجدته في سبعين كتابًا من كتب الله تعالى القديمة، وهذا نحو قوله ﷺ «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**»[1].

فإيمانه ﷺ وعمله بالله قد سخر له كإيمانه بقدر الله تعالى، وعلمه بأنه قد سبق في أم الكتاب ما سبق، ومع ذلك كان يتزود في أسفاره، ويعدّ السلاح في حروبه حتى لقد ظاهر بين درعين في عزوة أحد، وربط البراق من هذا الفن. وقوله: إن جبريل أتى الصخرة فوضع إصبعه فيها فحرقها وشدّ بها البراق.

قال الطيبي في «شرح المشكاة»: فإن قلت: كيف الجمع بين هذا وبين قوله في حديث أنس: فربطته بالحلقة التي كانت تربط بها الأنبياء؟

---

(١) رواه الترمذي (٩/ ٤٣٢)، وابن حبان (٢/ ٤٨١).

قلت: المراد من الحلقة: الموضع الذي كان فيه الحلقة، وقد استدّ فخرقه جبريل ﷺ بإصبعه. انتهى.

وهذا الجمع لا يصح؛ لأن الحلقة وموضعها بالباب، والذي خرقه جبريل بإصبعه إنما هو الصخرة، وهي داخلة في المسجد بعيدة عن الباب، والأولى ما قاله بعضهم في الجمع: إنه ﷺ ربطه أوّلاً بالحلقة تأدبًا واتّباعًا للأنبياء، فأخذه جبريل وحلّه من الحلقة وخرق الصخرة وشده بها، كأنه يقول: أنت لست ممن يكون مركوبه بالباب، بل أنت أعلى وأغلى، فلا يكون مركوبك إلا في داخل المحل، وهذا أمر مشاهد في العادة بين الكبراء.

الوجه الخامس عشر
في صلاته ﷺ بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- ببيت المقدس

تضافرت الروايات أنه ﷺ صلّى بالأنبياء في بيت المقدس قبل العروج وهو أحد احتمالين للقاضي عياض، وقال الحافظ ابن حجر: أنه الأظهر، والاحتمال الثاني: إنه ﷺ صلّى بهم بعد أن هبط من السماء فهبطوا أيضًا، وصححه الحافظ بن كثير، وقال بعضهم: وما المانع من أنه ﷺ صلّى بهم مرتين، فإن بعض الأحاديث ذكر الصلاة بهم بعد ذكر المعراج، وهده الصلاة التي صلاها النبي ﷺ بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الصواب: إنها الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود؛ لأن النص يحمل على حقيقته الشرعية قبل اللغوية إلا إذا تعذر حمله على الشرعية ولم يتعذر هنا، فوجب حمله على الشرعية ويؤيده ما في القصة. فأخذ جبريل بيده فقدّمه فصلّى بهم ركعتين.

الظاهر: أنها كانت فريضة، وأيّده بعضهم بقوله في بعض طرق القصة: ثم أقيمت الصلاة فأممتهم، وفي رواية: فأذن جبريل، والآذان والإقامة يؤذنان بأنها فريضة، ولا يشكل على هدا أن بدء الآذان إنما كان بعد الهجرة؛ لأنه لا مانع من وقوعه ليلة الإسراء قبل مشروعيته للصلوات الخمس وعلى كونها فريصة. قال بعضهم: كانت الصلاة التي صلاها العشاء، وقال بعضهم: إنها الصبح، قال بعض المتأخرين: وليس بشيء، سواء قلنا: صلّى بهم قبل العروج أو بعده؛ لأن أوّل صلاة صلاها النبي ﷺ من الخمس مطلقًا الظهر بمكة بالاتفاق، ومن حمَل

الأوّلية على مكة فعليه الدليل، والذي يظهر - والله تعالى أعلم - إنها كانت من النفل المطلق، أو كانت من الصلاة المفروضة عليه قبل ليلة الإسراء.

وفي «فتاوى» النووي ما يؤيد الثاني، وهل قرأ فيها بأم القرآن لمقتضى قوله ﷺ «**لا تجزى صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن**»[١]، أو كان ذلك قبل مشروعية هذا الحكم؟ محل نظر، وقال بعضهم: لم يرد في تعيين القراءة في تلك الصلاة فيما وقفت عليه خبر صحيح أو حسن يعتمد، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. انتهى.

قال بعضهم: ورؤيته ﷺ للأنبياء وصلاته بهم في بيت المقدس يحتمل أنها كانت للأرواح خاصة، وإنها تشكلت بصور أجسادها في علم الله تعالى، ويؤيده ما في حديث أبي هريرة ﷺ عند الحاكم والبيهقي: فلقي أرواح الأنبياء. ويحتمل الأجساد بالأرواح، ويؤيده حديث عبد الرحمن بن هاشم عن أنس عند البيهقي: وبعث الله آدم فمن دونه من الأنبياء، وعند البزار والطبراني: فنشر لي الأنبياء من سمى الله تعالى ومن لم يسم فصليت بهم.

وأمّا رؤيته لهم في السماء فمحمولة على رؤية أرواحهم وأنها تشكلت بصور أجسادهم إلا عيسى ﷺ لما صح أنه رفع بجسده، وكذلك إدريس أيضًا، أو أحضرت أجسادهم لملاقاته ﷺ تشريفًا له وتكريمًا، وقد أنكر حذيفة بن اليمان ﷺ صلاة النبي ﷺ ببيت المقدس تلك الليلة، واحتج بأنه لو صلّى فيه لكتبت عليكم الصلاة فيه، قال البيهقي وابن كثير: والمثبت مقدم على النافي؛ يعني: من أثبت الصلاة ببيت المقدس وهم الجمهور من الصحابة معهم زيادة علم على من نفى ذلك فهو أولى بالقبول، وأمّا ما احتج به فيجاب عنه بمنع الملازمة بين الصلاة والكتابة إن كان أراد بقوله: كتبت عليكم الفرض، وإن أراد التشريع فنلتزمه.

وقد شرع النبي ﷺ الصلاة ببيت المقدس فقرنه بالمسجد الحرام ومسجد في شد الرحال، وذكر فضيلة الصلاة فيه في غير ما حديث، فإن قلت: كيف تصلي الأنبياء وهم أموات وليسوا في دار عمل؟

---

(١) تقدم تخريجه.

أجيب بأنهم كالشهداء، بل أفضل منهم أحياء في قبورهم، فيصلون ويحجون كما ورد في الحديث الآخر فلا يستبعد أن يتقربوا إلى الله تعالى بما استطاعوا؛ لأن البرزخ ينسحب عليه حكم الدنيا في استكثارهم فيه من الأعمال وزيادة الأجور، أو أن المنقطع عنهم بالموت هو التكليف.

وقد تحصل الأعمال من غير تكليف على سبيل التلذذ بها والخضوع لله تعالى كما جاء في الحديث: «**إن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس**»[1]. وهو معنى قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠] وكما ورد: إنه يقال للقارئ: اقرأ وارق وانظر إلى سجود النبي ﷺ وقت الشفاعة أليس ذلك عبادة وعملاً؟

وعلى كل حال لا يمتنع حصول هذه الأعمال في مدة البرزخ؛ لأن الأنبياء لم يقبضوا حتى يخيروا بين البقاء في الدنيا وبين الآخرة فاختاروا الآخرة. ولا شك أنهم لو بقوا في الدنيا لازدادوا من الأعمال الصالحة. فلو كان انتقالهم من هذه الدار يفوّت عليهم زيادة فيما يقرب إلى الله تعالى لما اختاروه، والله أعلم.

الوجه السادس عشر
في تقديم الآنية هل كان قبل العروج أو بعده؟ وفي عددها[2]

فأكثر الروايات: إنه كان قبله في بعضها أنه بعده. ففي رواية بعد ذكر رؤيته إبراهيم في السماء السابعة: ثم انطلقنا فإذا نحن بثلاثة آنية مغطاة. وفي رواية: كان ذلك بعد أن رفعت له سدرة المنتهى، وفي رواية: كان ذلك بعد رؤيته للبيت المعمور، قال ابن كثير وغيره: ولعلها قدّمت له مرتين؛ لأنها ضيافة له ﷺ. وتبعهم على ذلك الحافظ ابن حجر جمعًا بين الروايات.

قال ابن كثير وابن حجر: وأمّا الاختلاف في عدد الآنية وما فيها فيحمل على أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر ومجموعها أربعة آنية فيها أربعة أشياء من الأنهار الأربعة التي تخرج من أصل سدرة المنتهى، وإذا قلنا: بعرض الآنية مرتين ففائدة عرض الخمر مع إعراضه عنه في المرة الأولى، وتصويب جبريل له

(١) رواه مسلم (١٨/ ١٧٧) بنحوه.
(٢) انظر سبل الهدى والرشاد (٣/ ١١٤).

تكرير التصويب والتحذير مما سواه، وهل كانت الخمر من خمر الجنة أو من جنس خمر الدنيا؟

فإن كان الأوّل: فسبب تجنبها صورتها ومضاهاتها للخمرة المحرمة؛ أي: في علم الله تعالى؛ أي: حالاً أو مآلاً ويكون ذلك أبلغ في الورع وأدق.

وإن كان الثاني: فاجتنابها واضح، لكن الخمرة كانت إذ ذاك مباحة؛ لأنها إنما حرمت بالمدينة والإسراء كان بمكة. فوجه تعيينه ﷺ للبن دون غيره من الأشياء المباحة التي قدّمت له وعد ذلك صوابًا، وعدّ الآخر خطأ مع أنهما سواء في الإباحة أن يكون فعل ذلك تورعًا وتعريضًا بأنها ستحرم، وإنه لما فوّض الأمر إلى اجتهاده ﷺ وسداد نظره المعصوم أداه اجتهاده إلى تحريم الخمر وتحليل اللبن. فوافق الصواب في علم الله تعالى فلذلك قال له جبريل: أصبت الفطرة؛ أي: اخترت اللبن الذي عليه بنيت الخلقة، وبه نبت اللحم واشتد العظم، أو اخترته؛ لأنه الحلال الدائم في دين الإسلام بخلاف الخمر فحرام فيما يستقر عليه الأمر. وقال النووي: المراد بالفطرة هنا الإسلام والاستقامة، قال: ومعناه - والله أعلم - اخترت علامة الإسلام والاستقامة، قال: وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيبًا طاهرًا سائغًا للشاربين سليم العاقبة، وأمّا الخمر: فإنها أم الخبائث وجالبة لأنواع الشر في الحال والمآل. انتهى.

وقال القرطبي: يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة؛ لكونه أول شيء يدخل لجوف المولود ويشق أمعاءه، والسر في ميل النبي ﷺ إليه دون غيره؛ لكونه مألوفًا أوّلاً. انتهى.

ويستفاد من التعليل المتقدم في سبب تجنبه ﷺ الخمر وهو مضاهاتها للخمر المحرمة: أن من أدار شيئًا من الأشربة كما تدار الخمر وهيأه بالهيئات التي تتعاطاها أهل الشهوات من الاجتماعات والآلات فقد أتى منكرًا أو حرم ذلك عليه، وإن كان لا يحد به، وقد ذكر أصحابنا: أن إدارة كأس الماء على شاربيه تشبيهًا بشاربي الخمر حرام يعزر فاعله.

الوجه السابع عشر

ظهر قوله في القصة. ثم أتي بالمعراج أن العروج كان لا على البراق، وفي

ذلك خلاف، قال الحافظ ابن كثير: إنه لمّا فرغ ﷺ من أمر بيت المقدس نصب له المعراج - وهو السلم - فصعد فيه إلى السماء ولم يكن الصعود فيه على البراق كما قد يتوهمه بعض الناس، بل كان البراق مربوطًا على باب مسجد بيت المقدس؛ ليرجع عليه إلى مكة، وقال الحافظ السيوطي - رحمه الله تعالى - إنه هو الصحيح الذي تقرر من الأحاديث الصحيحة. انتهى.

تنبيه: اعلم أنه قد ورد أن بين الدرجة والدرجة في الجنة خمسمائة عام، وإن الدرجة تهبط كالإبل ليصعد عليها وليّ الله تعالى، ثم ترتفع به إلى مكانها. والظاهر كما قاله بعضهم: إن درج المعراج كذلك، والله أعلم.

وأمّا الحكمة في الإسراء به ﷺ إلى بيت المقدس أولاً قبل العروج به إلى السماء: فقد تقدّم الكلام عليها عند الكلام على الآية آنفًا.

الوجه الثامن عشر

قال ابن المنير: ذكر ابن حبيب أن بين السماء والأرض بحرًا يسمى: المكفوف، تكون بحار الدنيا بالنسبة إليه كالقطرة في البحر المحيط، فعلى هذا يكون ذلك البحر انفلق لنبينا ﷺ تلك الليلة حتى جاوزه فهو أعظم من انفلاق البحر لموسى ﷺ.

الوجه التاسع عشر
في قدر ما بين السماء والأرض

روى الإمام أحمد وابن خزيمة في «صحيحه» وغيرهما عن العباس رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**أتدرون كم بين السماء والأرض؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**بينهما خمسمائة سنة، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك العرش، ثم الله تعالى فوق ذلك؛ أي: سلطانه وملكه وعظمته**»[1].

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٢٠)، والحاكم في «المستدرك» (٧/ ٢٦٦).

وروى الطبراني في «الأوسط» وابن راهويه وغيرهما عن الربيع بن أنس قال: السماء الدنيا موج مكفوف، **والثانية**: مرمرة بيضاء، **والثالثة**: حديد، **والرابعة**: نحاس، **والخامسة**: فضة، **والسادسة**: ذهب، **والسابعة**: ياقوتة حمراء، زاد ابن أبي حاتم: وما فوق ذلك صحاري من نور ولا يعلم ما فوق ذلك إلا الله سبحانه وتعالى، وملك موكل الحجب يقال له: ميطاطروس.

وروى أبو الشيخ وابن أبي حاتم عن كعب قال: السماء الدنيا أشد بياضًا من اللبن، واخضرت من خضرة جبل قاف، وقوله في الحديث المتقدم: من موج مكفوف، الموج: ما ارتفع من فوران الماء، والمكفوف: المحبوس.

الوجه العشرون
استفتاح جبريل أبواب السماء

الأشبه كما قال الحافظ ابن حجر: إنه كان يقرع؛ لأن صوته معروف، ويؤيده كما قاله بعضهم ما في بعض الروايات: فقرع الباب، وقال ابن دحية: في استفتاح جبريل لأبواب السماء دليل على أنه صادف أبوابها مغلقة، وإنما لم تهيأ للنبي ﷺ بالفتح قبل مجيئه وإن كان أبلغ في الإكرام؛ لأنه لو رآها مفتحة لظن أنها لا تزال كذلك، ففعل ذلك ليعلم أن ذلك فعل من أجله تشريفًا له؛ ولأن الله تعالى أراد أن يطلعه على كونه معروفًا عند أهل السموات، ولذلك لما سألوا جبريل عمن معه؟ فقال: محمد، فقالوا: أبعث إليه، ولم يقولوا: ومن محمد مثلاً، ولما قيل لأمين الوحي بعد القرع: من هذا؟ قال: جبريل، فسمى نفسه؛ لأنه كان معرفًا عندهم، ولم يرد أن أحدًا من الملائكة يسمى جبريل غيره، ولم يقل أنا لئلا يلتبس بغيره؛ ولأن فيها إشعارًا بالعظمة.

وفي الكلام السائر: أوّل من قال: أنا إبليس فشقي حيث قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢] وقالها فرعون فتعس حيث قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ولأن أنا مبهمة؛ لافتقار الضمير إلى العود فهي غير كافية في البيان. والمستأذن محجوب عن المستأذن عليه غير متعين عنده، فكأنه أحاله على جهالة، وعلى هذا فينبغي للمستأذن إذا قيل له: من أنت؟ لا يقول: أنا، بل يقول: فلان؛ لأن النبي ﷺ أنكر على الذي استأذن عليه، فقال: من هذا؟ فجعل

يقول: أنا، فقال النبي ﷺ أنا، أنا إنكارًا لذلك، ولما سمى جبريل نفسه لهم فتحوا باب السماء ولم يتوقفوا في المراجعة في أمره، فإنه معهود عندهم نزوله وصعوده، ولذلك قدّم نفسه؛ لأنه الرسول لإحضاره ﷺ.

الوجه الحادي والعشرون

قول الخازن لجبريل: من معك؟ يشعر بأنهم أحسوا معه برفيق، وإلا لكان السؤال: أمعك أحد؟ وذلك الإحساس إمّا بمشاهدة لكون السماء شفافية، وإمّا لأمر معنوي بزيادة النور في قول جبريل حين سئل عمن معه، فقال: محمد، دليل على أن الاسم أرفع من الكنية؛ لأنه أخبر باسمه ولم يخبر بكنيته، وهو ﷺ مشهور في العالمين العلوي والسفلي، لو كانت الكنية أرفع من الاسم لأخبر بكنيته.

وقول الخازن: وقد بعث إليه: أراد الاستفهام، فحذف الهمزة للعلم بها؛ أي: أو قد بعث إليه، قال العلماء: ليس هذا استفهامًا عن أصل البعث الذي هو الرسالة؛ لأنه كان مشهورًا في الملكوت الأعلى، بل البعث للمعراج، وقيل: بل سألوا تعجبًا من نعمة الله تعالى عليه بذلك واستبشارًا به، وقد علموا أن بشرًا لا يرتقي هذا الترقي إلا بإذن الله تعالى، وإن جبريل لا يصعد بمن لا يرسل إليه.

وقال ابن أبي جمرة: استفهام الملائكة بقولهم: وقد أرسل إليه فيه دليل على أن أهل العالم العلوي يعرفون رسالته ومكانته؛ لأنهم سألوا عن وقتها هل حل لا عنها؟ ولذلك أجابوا بقولهم: مرحبًا، ولنعم المجيء جاء، فكلامهم بهذه الصيغة أدل دليل على ما ذكرناه من معرفتهم بجلال مكانته وتحقيق رسالته؛ لأن هذا أجل ما يكون من جنس الخطاب، والترفيع على المعروف من عادة العرب، وقد قال بعض العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: ١٨] أنه رأى صورة ذاته المباركة في الملكوت، فإذا هو عروس المملكة.

وإنما أتى الخازن بصيغة الغيبة في قوله: مرحبًا به، ولم يخاطبه بقوله: مرحبًا بك؛ لأن ذلك كان قبل أن يفتح الباب، وقبل أن يصدر من النبي ﷺ كلام معه وخطاب، والخطاب والكلام إنما كان مع جبريل بالسؤال والجواب، فارتفع حكم الغيبة بالتخاطب من الجانبين، ويجوز أن يكون الخازن إنما حياه بغير

صيغة الخطاب تعظيمًا له؛ لأن هاء الغيبة ربما كانت أفخم من كاف الخطاب.
وفي قول الخازن: مرحبًا به... إلخ دليل على أن الحاشية إذا فهموا من سيّدهم عزًا وإكرامًا لوافد أن يبشروه بذلك، وإن لم يأذن لهم فيه ولا يكون في ذلك إفشاء لسر، بل هو من تعجيل البشر.

الوجه الثاني والعشرون
في الكلام على لقيه لآدم ﷺ في السماء الدنيا
وما وقع له معه وما رآه عنده

ففي سلامه على آدم: دليل على أن السنة أن القادم يبدأ بالسلام على المقيم والمار على القاعد؛ لأنه ﷺ كان مارًا على آدم ﷺ، وفي رد آدم: السلام عليه.
وقوله: مرحبًا دليل على أنه لا يشرع في رد السلام غير الصيغة المعروفة؛ لأنه لم يقل له مرحبًا إلا بعد رد السلام عليه على ما جاء في القصة فرد عليه السلام، ثم قال له: مرحبا. وظاهر ما في القصة: إنه سأل عنه بعد أن قال له آدم: مرحبًا.
ورواية مالك بن صعصعة بعكس ذلك وهي المعتمدة، فتحمل هذه عليها، وليس في رواية أبي ذر ترتيب.

وفي قول آدم: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح: إشارة إلى افتخاره بأبوة النبي ﷺ، وفي قوله: الابن الصالح والنبي الصالح ثناء جميل النبي ﷺ، ووصفه بالصلاح مكررًا مع النبوّة؛ أي: الصالح في المعنيين جميعًا. وفيه تنويه بفضيلة الصلاح، ولهذا وصف به النبي ﷺ واقتصر الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - الذين اجتمع بهم، ورآهم في السماوات تلك الليلة على وصفه ﷺ بالصلاح، وتواردوا عليه وكرره كل منهم عند وصفه بالبوة أو الأخوّة والنبوّة؛ لأن الصلاح يشمل خلال الخير، والصالح هو الذي يقوم بما يلزمه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد، ومن ثم كانت كلمة جامعة شاملة لسائر الخصال المحمودة، ولذا لم يقل أحد: مرحبًا بالنبي الصادق، ولا بالنبي الأمين.

قال بعضهم: وصلاح الأنبياء صلاح خاص لا يتناول عموم الصالحين، واحتج على ذلك بأنه قد تمنى بعض الأنبياء أن يلحق بالصالحين، ولا يتمنى الأعلى الإلحاق بالأدنى ولا خلاف أن النبوّة أعلى من صلاح الصالحين من

الأمم، فهذا يحقق أن الصلاح المضاف إلى الأنبياء غير الصلاح المضاف إلى الأمم، وصلاح الأنبياء صلاح كامل؛ لأنهم يزول بهم كل فساد فلهم كمال الصلاح، ومن دونهم الأمثل فالأمثل، فكل واحد يستحق اسم الصلاح على قدر ما زال به، أو منه من الفساد.

وظاهر قوله في آدم: تعرض عليه أرواح ذريته... إلخ إلى أن أرواح بني آدم من أهل الجنة أو النار في السماء، قال القاضي: وهو مشكل، فقد جاء أن أرواح المؤمنين منعمة في الجنة، وأن أرواح الكفار في سجين، فكيف تكون مجتمعة في السماء؟ وأجاب بأنه يحتمل أنها تعرض على آدم أوقاتًا فصادفت وقت عرضها مرور النبي ﷺ، ويدل على أن كونهم في الجنة أو النار: إنما هو في أوقات دون أوقات قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ [غافر: ٤٦].

واعترض على هذا الجواب: إن أرواح الكفار لا تفتح لها أبواب السماء كما هو نص القرآن، وأجيب عنه بما أبداه القاضي احتمالاً بأن الجنة كانت في جهة يمين آدم، والنار في جهة شماله، وكأن يكشف له عنهما، قال الحافظ ابن حجر: ويحتمل أن النسم المرئية هي التي لم تدخل الأجساد بعد، وهي مخلوق قبل الأجساد ومستقرها عن يمين آدم وشماله، وقد أعلم بما سيصيرون إليه، فلذلك كان يستبشر إذا نظر إلى من عن يمينه، ويحزن إذا نظر إلى من عن شماله بخلاف التي في الأجساد فليست مرادة قطعًا، وبخلاف التي نقلت من الأجساد إلى مستقرها من الجنة أو النار فليست مرادة أيضًا فيما يظهر، وبهذا يندفع الإيراد ويعرف أن قوله: نسم، بنيه عام مخصوص، أو عام أريد به الخصوص[١].

قال: وظهر احتمال آخر: وهو أن يكون المراد بها من خرجت من أجسادها حين خروجها؛ لأنها غير مستقرة، ولا يلزم من رؤية آدم لها وهو في السماء الدنيا أن تفتح لها أبواب السماء ولا تلجها؛ لأنها تعرض عليه ويكشف له عنها من بعد ورؤيته لآكلي الربا، ومن ذكر معهم فيحتمل أنها رؤية لحال أرواحهم في البرزخ بعد الموت، وفي ذلك تصحيح لمن قال: الأزواج أجساد لطيفة قابلة للتنعيم والعذاب، ويحتمل أيضًا أن تكون مثلت له حالتهن في الآخرة.

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (٣/ ١٢١).

الوجه الثالث والعشرون
في الكلام على رؤيته للأنبياء
المذكورين في السماوات، وفي حكمة اختصاص كل نبي
بالسماء التي التقاه فيها، وفي حكمة رؤيته لهؤلاء الأنبياء
- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - دون غيرهم من الأنبياء

وقد اختلفت الروايات في منازل الأنبياء في السماوات ففي رواية أنس عن أبي ذر قال: فذكر أنه وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ولم يثبت كيف منازلهم، وذكر أن إبراهيم في السادسة، وفي سياق الزهري في روايته عن أنس عن أبي ذر: إنه لم يثبت أسماءهم، وسياق شريك فيه أنه لم يضبط منازلهم. ووقع في روايته: إن إدريس في الثالثة، وهارون في الرابعة. ورواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة عند البخاري: فيها ضبط لمنازلهم. فذكر اسم كل نبي في السماء التي هو فيها كما هو مذكور في سياق القصة آنفًا. وكما سنتكلم عليه في حكمة ذلك، ولا شك أن رواية من ضبط أولى لا سيما وقد وافق قتادة في روايته المذكورة ثابت البناني عن أنس عند مسلم، ووافقهما يزيد بن أبي مالك عن أنس إلا أنه خالف في إدريس وهارون، فقال: هارون في الرابعة، إدريس في الخامسة، ووافقهم أبو سعيد إلا أن في روايته: يوسف في الثانية، وعيسى ويحيى في الثالثة، والرواية الأولى المذكورة أثبت.

وقد اختلف المتكلمون على حديث الإسراء في الحكمة في اختصاص كل واحد من الأنبياء السماء التي رآه فيها رسول الله ﷺ فقيل: لا حكمة، وإنما الأنبياء المذكورون لما علموا بقدومه ابتدروا إلى لقائه ابتدار أهل الغائب للغائب القادم، **فمنهم**: من أسرع وسبق، **ومنهم**: من أبطأ ولحق، **ومنهم**: من فاته، وهذا قاله ابن بطال، وزيّفه السهيلي فأصاب.

وقيل: بل لذلك حكمة؛ أيْ: حكمة، وهو التنبيه على الحالات الخاصة بهؤلاء الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وتمثيل بما سيقع للنبي ﷺ مع قومه من نظير ما وقع لهم، واتفق مما قصه الله تعالى عنهم في كتابه. والنبي ﷺ كان يحب الفأل الحسن، ويستدل به على حسن العاقبة. والفأل في

اليقظة نظير الرؤيا في المنام فيكون تعبير الفأل ببيان ما يدل عليه يقظة كتعبير الرؤيا. وأهل التعبير يقولون: من رأى نبيًا من الأنبياء بعيه في المنام. فإن رؤياه تؤذن بما يشبه من حال ذلك النبي ﷺ من شدة أو رخاء أو غير ذلك من الأمور التي أخبر بها عن الأنبياء في القرآن أو الحديث، وهذا ما قاله السهيلي وتبعه غيره عليه.

فحكمة رؤيته لآدم في السماء الدنيا؛ لأنه أوّل الأنبياء وأوّل الآباء وهو الأصل. فكان الأوّل في الأولى. ولأجل تأنيس النبوّة بالأبوة في أوّل انتقاله إلى العالم العلوي، ووقع له التنبيه بما سيقع له ﷺ من نظير ما وقع لآدم ﷺ، فإنه كان في أمن الله وجواره في الجنة، فأخرجه عدوّه إبليس منها.

وهذه القصة تشبهها الحالة الأولى من أحوال النبي ﷺ وهي: هجرته إلى المدينة وخروجه من حرم الله وجوار بيته، وكان أعداؤه سببًا لخروجه لتمالئهم على إيذائه، وتواطئهم على ذلك، وهمهم بقتله فكربه ذلك وغمه وشق عليه الفراق ما ألفه ووطنه كما وقع لآدم عند خروجه من الجنة من الكرب والغم والبكاء على فراقها. فقد حكي عن بعض السادة: إنه رأى آدم ﷺ في المنام فقال له: أنت أبو البشر، وتبكي على مفارقة دار وهي الجنة، فأنشده:

شغفت بجار لا بدار ألفتها ... على الجار أبكي لا على فرقة الدار

والحاصل أن الجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقة، وكراهته فراق ما ألفه من الوطن. ثم كان لكل منهما أن يرجع إلى وطنه الذي خرج منه.

وحكمة رؤيته ولقيه لعيسى ويحيى في السماء الثانية؛ لأنهما الممتحنان باليهود، أمّا عيسى فكذبته اليهود وآذته وهمّوا بقتله فرفعه الله تعالى. وأمّا يحيى فقتلوه، ففيه إشارة إلى نظير ما وقع له ﷺ بعد انتقاله إلى المدينة. فصار إلى حالة ثانية من الامتحان. وكانت محنته فيها باليهود آذوه وعادوه وهموا بإلقاء الصخرة عليه ليقتلوه، فنجّاه الله تعالى كما نجّى عيسى منهم، ثم سمّوه في الشاة فلم تزل تلك الأكلة تعاوده حتى قطعت أبهره كما قال عند الموت. وأيضًا فعيسى كانت حالته ومقامه معالجة بني إسرائيل، والصبر على عداوة اليهود وحيلهم ومكرهم وطلب الانتصار عليهم بقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] أي: مع الله.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] وكانت حالته ﷺ في السنة الثانية من الهجرة نظير ذلك طلب الأنصار للخروج إلى بدر العظمى، فأجابوه ونصروه.

وحكمة رؤيته ليوسف ﷺ في السماء الثالثة: الإشارة إلى حالة ثالثة تشبه حالة يوسف وما جرى له مع إخوته الذين أخرجوه من بين أظهرهم. ثم ظفر بهم فصفح عنهم وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وكذلك نبينا ﷺ جرى له مع قريش نصوا له الحرب وأرادوا إهلاكه وكانوا سببًا في إخراجه من بين أظهرهم، ثم ظفر بهم في غزوة الفتح فصفح عنهم، وقال: أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ وأيضًا مناسبة لقيه له في السماء الثالثة: إن السنة الثالثة من سني الهجرة وقعت فيها غزوة أحد.

ومما اتفق فيها من المناسبة: شيوع قتل النبي ﷺ فناسب ما حصل للمسلمين من الأسف على فقد نبيهم ما حصل ليعقوب من الأسف على يوسف؛ لاعتقاده أنه فقد إلى أن وجد ريحه بعد تطاول الأمد، ومن المناسبة أيضًا بين القصتين: إن يوسف ﷺ كيد وألقي في غيابة الجب حتى استنقذه الله على يد من شاء ورسول الله ﷺ وقع له في غزوة أحد أن أكبت الحجارة على جبهته من قريش حتى سقط لجنبه في حفرة كان أبو عامر الفاسق قد حفرها مكيدة للمسلمين، فأخذ عليّ - كرم الله تعالى وجهة - بيد رسول اله ﷺ، واحتصنه طلحة حتى قام.

وفي رواية مسلم: إنه ﷺ لما أخبر برؤيته ليوسف ﷺ في الثالثة، قال: فإذا هو قد أعطي شطر الحسن. وفي رواية البيهقي وغيره: فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب، فإن قيل: هذا يدل على أن يوسف كان أحسن من جميع الناس، أجيب بأن الترمذي روى من حديث أنس ما بعث الله نبيًا إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم صوتًا وأحسنهم وجهًا، فيحمل ما في حديث المعراج من قوله: أعطى شطر الحسن وأحسن ما خلق الله... إلخ على غير نبينا ﷺ، وحمل بعضهم قوله: أعطى شطر الحسن على أن المراد أن يوسف أعطى شطر الحسن الذي أوتيه نبينا ﷺ وفيه نظر؛ لأن حقيقة الحسن الكامل كامنة فيه؛ لأنه الذي تم

معناه دون غيره فهي غير منقسمة بينه وبين غيره وإلا لما كان حسنه تامًا؛ لأنه إذا انقسم لم ينله إلا بعضه، فلا يكون تامًا.

ولله در الأبوصيري حيث أشار إلى ذلك بقوله:

فهُوَ الذي تَمَّ معناهُ وصُورَتُه ثمَّ اصْطَفاهُ حَبيباً بارِئُ النَّسَمِ

مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ في محاسِنِهِ فَجَوْهَرُ الحُسْنِ فيه غيرُ مُنْقَسِمِ

وقد قال العلماء: من أن تمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله تعالى جعل خلو بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق آدمي مثله، فيكون ما تشاهد من خلق بدنه آيات على ما يتضح من عظيم خلق نفسه الكريمة، وما يتضح من عظيم أخلاق نفسه آيات على ما تحقق له من سر قلبه المقدس.

وقد حكى القرطبي في كتاب الصلاة عن بعضهم: أنه قال: لم يظهر لنا تمام حسنه ﷺ؛ لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما أطاقت أعيننا رؤيته ﷺ. ولقد أحسن الأبوصيري أيضًا حيث قال:

أعْيا الوَرَى فَهْمُ معْناهُ فليس يُرَى في القُرْبِ والبُعْدِ فيهِ غيرُ مُنْفَحِمِ

كالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنينِ مِنْ بُعُدٍ صَغِيرةً وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمِ

وهذا مثل قوله أيضًا:

إنّما مَثَّلُوا صِفاتِك للنا س كما مثَّلَ النجومَ الماءُ

والتشبيهات الواردة في حقه ﷺ كما هنا في قوله: كالشمس تظهر....إلخ، وقوله: كما مثل النجوم الماء ونحو ذلك إنما هي على سبيل التقريب والتمثيل وإلا فذاته أعلى وأغلى.

وحكمة رؤيته لإدريس ﷺ في السماء الرابعة وهو المكان الذي رفعه الله إليه وسمّاه مكانًا عليًا للإيذان بحالة رابعة وهي علوّ شأنه ومنزلته ﷺ، وللإشارة إلى إحرازه ﷺ لخصائصه، فإن المنقول أن إدريس أوّل من كتب بالقلم، وانتشر منه بعد في أهل الدنيا، وكتب إلى الملوك يدعوهم إلى التوحيد وقاتل بني قابيل، فكذلك نبينا ﷺ اتخذ الكتاب والخاتم وكتب عنه بالقلم إلى ملوك الآفاق عند استفحال الإسلام يدعوهم إلى طاعته وخافته الملوك، حتى قال أبو سفيان بن

حرب وهو عند ملك الروم هرقل حين جاءه كتاب رسول الله ﷺ ورأى ما رأى من خوف هرقل لقد أمر؛ أي: اشتد أمر ابن أبي كبشة حتى أصبح تخافه ملوك بني الأصفر، فمن الملوك المكتوب إليهم من اتبعه على دينه كالنجاشي وملك عمان، **ومنهم**: من هادنه وأهدى إليه كهرقل والمقوقس، **ومنهم**: من تعصى عليه فأظفره الله تعالى به، فهذا مقام عَلي وخط بالقلم كنحو ما أوتي إدريس ﷺ.

وقوله في إدريس: قد رفعه الله مكانًا عليًّا مع أنه رأى موسى وإبراهيم في مكان أعلى من مكان إدريس فذلك - والله أعلم - لما ذكر عن كعب الأحبار أن إدريس خصّ من بين جميع الأنبياء بأنه رفع قبل وفاته إلى السماء الرابعة، رفعه ملك كان صديقًا له وهو الملك الموكل بالشمس، وكان إدريس سأله أن يريه الجنة، فأذن الله له في دلك، فلمّا كان في الرابعة رآه هناك ملك الموت فعجب وقال: أمرت أن أقبض روح إدريس في السماء الرابعة، فقبضه هناك فرفعه حيًّا إلى ذلك المقام خاص به دون الأنباء قاله السهيلي.

وقال البدر العيني في «شرح البخاري»: فإن قلت: قال بعضهم: إن إدريس في الجنة يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: ٥٧] قبل المكان العلي هو الجنة. **قلت**: سمعت بعض مشايخي الثقات يقولون: إن إدريس لما أخبر بعروج النبي ﷺ استأذن ربه أن يستقبله، فأذن له فاستقبله ولقيه في السماء الرابعة. انتهى.

فإن كان إدريس اختص بأنه أدخل الجنة فقد شاركه النبي ﷺ في ذلك، وزاد عليه بأنه دخلها حيًّا وإدريس إنما دخلها بعد أن مات، بل زاد عليه ﷺ في الارتفاع إلى أعلى الجنان وأرفع الدرجات، وهذا غاية البيان فيما نحن بصدده من المناسبة.

وقول إدريس له: مرحبًا بالأخ الصالح استشكل بأنه أب من آباء النبي ﷺ، وإنه جد أعلى لنوح فكيف خاطبه بالأخ ولم يخاطبه بالابن كما قال آدم وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام -؟ وأجيب بأنه قد قيل عن إدريس إنه إلياس، إنه ليس بجد لنوح ولا هو في عمود النسب، وقال النووي: ليس في ذلك ما يمنع من كون إدريس أبًا لنبينا ﷺ، فإن قوله: الأخ الصالح، قاله تلطفًا وتأدبًا وهو أخ، وإن

وحكمة رؤيته ولقيه لموسى ﷺ في السماء السادسة للإيذان بحصول حالة له ﷺ تشبه حالة موسى مما وقع له من معالجة قومه، وقد أشار إلى ذلك بقوله: لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر، وللإشارة إلى مناسبة أخص تتعلق برؤيته له في السادسة وذلك أن موسى أراد أن يقيم الشريعة في الأرض المقدسة وحمل قومه على ذلك، فتقاعدوا عنه وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢] وفي الآخر تعجلوا بالقنوط فقالوا: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ [المائدة: ٢٤] فغضب عليهم، وحال بينهم وبينها، وأوقعهم في التيه، وآل أمره إلى قهر الجبابرة، وإخراجهم من أرضهم. وكذلك أراد النبي ﷺ في هذه السنة أن يدخل بمن معه مكة يقيم بها شريعة الله وسنة إبراهيم. فصدوه فلم يدخلها في هذا العام، ثم دخلها في العام القابل وآل أمره ﷺ إلى أن فتح مكة وقهر المتجبرين والمستهزئين من قريش، فكان لقاؤه لموسى تنبيهًا على التأسي به، وحصول حالة له تشابه حالة موسى ﷺ.

وما وقع في القصة من أن موسى لمّا جاوزه نبينا ﷺ بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي؛ لأن غلامًا بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل الجنة من أمتي، فأمّا البكاء من موسى، فقال العلماء: لم يكن حسدا ـ معاذ الله ـ فإن الحسد في ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاه الله تعالى وعصمه؟ بل كان أسفًا على ما فات أمته من بني إسرائيل من حظهم من الله ﷻ حيث قل الإيمان فيهم، وندر القبول، وفشا الطغيان والنكول، قال: وأسفًا أيضًا على ما فات موسى مما فاز به سيدنا ومولانا محمد ﷺ من كثرة الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجات بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزمة لتنقيص أجره؛ لأن لكل نبي مثل أجر من اتبعه، وكان من اتبعه من العدد دون من اتبع نبينا ﷺ مع طول مدتهم بالنسبة إلى مدة هذه الأمة، والبكاء على فوات الحظوظ الأخروية سنة متبعة، وعلى مثل هذا يناح ويبكى، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦][(١)].

والظاهر أن القائل لموسى ما يبكيك؟ هو الله سبحانه وتعالى، ويدل على

(١) انظر: عيون الأثر (١/ ١٩٣).

ذلك قوله في الجواب، كما في بعض الروايات: يا رب قاله ابن جمرة، وأمّا قول موسى ﷺ غلامًا فليس ذلك على سبيل الغضاضة والتنقيص، بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظيم كرمه؛ إذ أعطى لمن كان في ذلك السن ما لم يعطه أحدًا قبله ممن هو أسن منه، قال الخطابي: العرب تسمي الرجل المستجمع السن غلامًا ما دامت فيه بقية من القوة، وقال ابن أبي جمرة: العرب إنما يطلقون على المرء غلامًا إذا كان سيدًا فيهم، فلأجل ما في هذه اللفظة من الاختصاص والإشعار بالأفضلية دون غيره من الألفاظ، ذكره موسى ولم يذكر غيره تعظيمًا للنبي ﷺ.

وقال الحافظ ابن حجر: ويظهر لي أن موسى أشار إلى ما أنعم الله به على نبينا ﷺ من استمرار القوة في الكهولة إلى أن دخل في أوّل سن الشيخوخة، ولم يدخل في بدنه هرم، ولا اعترى قوته نقص حتى أن الناس لمّا رأوه مردفًا أبا بكر عند قدومه المدينة أطلقوا عليه اسم الشاب، وعلى أبي بكر اسم الشيخ مع كونه في العمر أسن من أبي بكر، وفي إمساك موسى عن البكاء وعمًّا وقع منه من الكلام حتى فارقه النبي ﷺ مراعاة لجانب نبينا ﷺ وبشارة له وإدخال السرور عليه، ويشهد لذلك بكاؤه قبل أن يبعد النبي ﷺ عنه؛ لأنه لو كان البكاء مختصًا بموسى لم يكن يبكي حتى يبعد عنه بحيث لا يسمعه، فلمّا كان المراد به ما ينشأ عنه من السرور والبشارة بكى، والنبي ﷺ منه بحيث يسمع، والبشارة هي قول موسى: يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل الجنة من أمتي، ونحو ذلك، وقد وقع من موسى العناية بهذه الأمة في أمر الصلاة ما لم يقع لغيره، ووقعت الإشارة إلى ذلك في حديث أبي هريرة عند الطبراني والبزار: «**كان موسى أشدهم علي حين مررت به، وخيرهم حين رجعت إليه**»[١]، وفي حديث أبي سعيد: «**فأقبلت راجعًا فمررت بموسى ونعم الصاحب كان لكم**»[٢].

وحكمة رؤيته ولقيه لإبراهيم ﷺ في السماء السابعة؛ لأنه الأب الأخير فناسب أن يتجدد للنبي ﷺ بلقيه أنس لتوجهه بعده إلى عالم آخر، وأيضًا فمنزلة

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٧٤).
(٢) ذكره الحافظ في «فتح الباري» (٧/ ٢١٢).

الخليل تقتضي أرفع المنازل، ومنزلة الحبيب أرفع من منزلته. فلذلك ارتفع النبي ﷺ عن منزلة إبراهيم إلى قاب قوسين أو أدنى.

وللقيه لإبراهيم في السابعة مناسبة أخرى أخص من ذلك وهي: إن النبي ﷺ اعتمر عمرة القضاء في السنة السابعة من الهجرة، ودخل مكة هو وأصحابه ما بين معتمرين محييًا لسنة إبراهيم صلى الله عليهما وسلم ومقيمًا لرسمه الذي كانت الجاهلية أماتت ذكره وبدّلت أمره، وفي بعض الطرق: إنه رأى إبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة، فكان ذلك - والله أعلم - إشارة إلى أنه يطوف بالكعبة في السنة السابعة، وهي أوّل دخلة دخلها مكة بعد الهجرة والكعبة في الأرض قبالة البيت المعمور.

وفي قوله ﷺ في صفة البيت المعمور فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة لا يرجعون إليه إلى آخر الدهر: إشارة إلى أنه إذا دخل البيت الحرام لا يرجع إليه؛ لأنه لم يدخله بعد الهجرة إلا يوم الفتح، ثم لم يعاوده إلا في حجة الوداع، فإن قيل: لَمَ لم ير النبي ﷺ تلك الليلة في السماء نوحًا عليه السلام وهو من أولي العزم؟

قلت: سمعت من بعض مشايخي - رحمه الله تعالى ورحمهم - يقول: إنما لم ير نوحًا ونحوه؛ لأنها ليلة رحمة، فناسب ألّا يرى فيها من استؤصل قومه بالعذاب.

وفي سؤاله ﷺ من جبريل عن كل واحد من الأنبياء الذين رآهم في السماوات بقوله: من هذا يا جبريل؟ فيقول: هذا أبوك آدم... إلخ إشكال وهو أن يقال: كيف أمّ الأنبياء في بيت المقدس وسلم عليهم وعرفهم، ثم سأل عنهم ثلث تلك الليلة حين رآهم في السماوات من جبريل، فإنه لو رآهم وعرفهم قبل ذلك لما احتاج إلى سؤال جبريل عنهم؟ ويجاب بأنه يحتمل أنه رآهم ببيت المقدس على حالة من تصور الأرواح بصورة الأجساد، أو من حصور الأجساد بالأرواح، ثم لمّا رآهم في السماء رآهم على حالة غير التي رآهم عليها في الأرض، فلذلك سأل عنهم، أو أنه رآهم في منازلهم في الموضعين على حالة واحدة، لكن لمّا شاهدهم تلك الساعة في الأرض، ثم رآهم في منزلهم في

السماء سأل عنهم تعظيمًا للقدرة الإلهية واستثباتًا لا تعجبًا، فإنه عالم أن الله تعالى الذي أصعده إلى هذا المكان في لحظة قادر على نقلهم إلى السماوات في أسرع من طرفة عين سبحانه وتعالى.

الوجه الرابع والعشرون
في الكلام على البيت المعمور

قال أبو عبيد: ومعنى المعمور الكثير الغاشية، ويسمى أيضًا الضُراح - بضم الضاد المعجمة وتخفيف الراء وآخره حاء مهملة - وهذا هو المشهور. وما قيل: إنه بالصاد المهملة فغلط. وبالضراح تسمية الملائكة، وسمي به؛ لأنه ضرح عن الأرض؛ أي: بعده، وقال مجاهد: البيت المعمور وهو الضريح؛ يعني: بالمعجمة، وهو في اللغة: البعيد، وأكثر الروايات: إنه في السماء السابعة.

وروى ابن جرير والحاكم وصححه عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ حتى تقوم الساعة**»[1].

وروى إسحاق بن راهويه في مسنده عن علي ﷺ: إنه سئل عن البيت المعمور، وقال: «**بيت في السماء السابعة بحيال البيت حرمته كحرمة هذا في الأرض يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ولا يعودون إليه**»[2]، وأخرجه الطبراني من حديث أنس مرفوعًا.

واستدل بهذين الحديثين وغيرهما على أن الملائكة أكثر المخلوقات، فإنه لا يعرف من جميع العوالم من يتجدد من جنسه في كل يوم سبعون ألفًا غير ما ثبت في ذلك.

وأخرج أبو الشيخ من طريق الليث قال: حدثني خالد بن سعد قال: بلغني أن إسرافيل ﷺ مؤذن أهل السماء يسمع تأذينه من في السماوات السبع ومن في الأرض إلا الجن والإنس، ثم يتقدم عظيم الملائكة فيصلي بهم، قال: وبلغنا أن ميكائيل ﷺ يؤم الملائكة بالبيت المعمور.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣٤٢).
(٢) رواه مسلم (٢/ ١٦) بنحوه.

فائدة: نقل الحافظ البرهان الحلبي في نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس: إن السلطان الظاهر برقوق سأل عن البيت المعمور من أي شيء هو؟ قال: فأجاب بعض الحاضرين إنه من عقيق، ونقله عن بعض التفاسير. انتهى.

الوجه الخامس والعشرون
في الكلام على سدرة المنتهى

والسدر: شجر النبق واحده سدرة، وقيل لها: المنتهى؛ لأنها ينتهي إليها ما يهبط من فوقها فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض، كما رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود، وقيل: غير ذلك، قال ابن دحية: اختيرت السدرة دون غيرها؛ لأن فيها ثلاثة أوصاف: ظل مديد، وطعم لذيذ، ورائحة ذكية، فكانت بمنزلة الإيمان الذي يجمع القول والعمل والنية، فالظل: بمنزلة العمل، والطعم: بمنزلة النية، والرائحة: بمنزلة القول.

وقد وقع في حديث ابن مسعود عند مسلم: إن السدرة في السماء السادسة، وظاهر حديث أنس: إنها في السابعة، قال القرطبي: وهو تعارض لا شك فيه، وحديث أنس قول الأكثر: وهو الذي يقتضيه وصفها بكونها التي ينتهي إليها علم كل نبي مرسل وكل ملك مقرب، ويترجح أيضًا بأنه مرفوع، وحديث ابن مسعود موقوف.

قال الحافظ ابن حجر: كذا قال - يعني: القرطبي - ولم يعرج على الجمع، بل جزم بالتعارض، ولا يعارض قوله: إنها في السادسة ما دلّت عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل في السماء السابعة؛ لأنه يحمل على أن أصلها في السماء السادسة، وأغصانها وفروعها في السماء السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها، قال ابن أبي جمرة: والأظهر أن شجرة المنتهى مغروسة بالأرض بدليل قوله: ونهران باطنان، ولا يطلق هذا اللفظ وما أشبهه الأعلى ما يفهم، والباطن لا بدّ أن يكون سريانه تحت شيء وحينئذٍ يطلق عليه اسم الباطن.

وقال القاضي عياض - رحمه الله تعالى -: دلّ الحديث على أن أصل سدرة المنتهى في الأرض لكونه قال: إن النيل والفرات يخرجان من أصلها وهما بالمشاهد يخرجان من الأرض، فيلزم منه أن يكون أصل السدرة في الأرض،

وتعقبه النووي بأن المراد بكونهما يخرجان من أصلها غير خروجهما بالنبع من الأرض.

والحاصل أن أصلهما من الجنة وهما يخرجان أولاً من أصل السدرة، ثم يسيران إلى أن يستقرا في الأرض، ثم ينبعان، وما وقع في القصة من قوله: وإذا في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران، وقول جبريل لما سئل عنها: أمّا الباطنان: فنهران في الجنة، وأمّا الظاهران: فالنيل والفرات.

قال ابن أبي جمرة: في قول جبريل هذا دليل على أن الفرات والنيل ليسا من الجنة، وسدرة المنتهى ليست في الجنة حتى يقال: إنهما يخرجان منها بعد نبعهما من السدرة، وهذا معارض لما رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: سيحان وجيحان، والفرات والنيل كل من أنهار الجنة، والجمع بينهما - والله أعلم - إن الفرات والنيل منبعهما من السدرة، وإذا نزلا إلى الأرض يسلكان أوّلاً على الجنة فيدخلانها، ثم بعد ذلك ينزلان إلى الأرض. انتهى.

وفيه نظر؛ لأن ظاهر قوله: يسلكان أوّلاً على الجنة إنهما إنما كانا من أنهار الجنة باعتبار المرور والسلوك عليها لا بكونهما دائمًا فيها، وظاهر الحديث قول السلف يخالف ذلك، فقد أخرج الحارث في «مسنده» والبيهقي في «الشعب» عن كعب قال: نهر النيل نهر العسل في الجنة، وثم دجلة نهر اللبن، ونهر الفرات نهر الخمر، ونهر سيحان نهر الماء.

وقد استدل على فضيلة النيل والفرات بكون منبعهما من الجنة وأنهما ينبعان من أصل سدرة المنتهى بخلاف غيرهما، وإن كان من أنهار الجنة كسيحان وجيحان فلا ينبعان من أصل السدرة، فامتاز النيل والفرات عليهما بذلك، فإن قيل: قد وردت الأخبار بأن من شرب من ماء الجنة لا يموت ولا يفنى، وإنه ليس له فضلة تخرج على ما يعهد في دار الدنيا، وإنما خروجه رشحات مسك على البدن وماء النيل، وما ذكر معه من المياه التي ورد أنها من أنهار الجنة ليس فيها هذه الخاصية العظمى المذكورة.

أجيب عن ذلك: بأن الله تعالى جعل في ماء الجنة هذه الخاصية العظمى، ثم لمّا شاءت الحكمة الإلهية بنزوله إلى هذه الدار نزعت منه تلك الخصوصية.

وبقي جوهره بحاله، وكل الخواص مثله في هذا المعنى - إن شاء الله تعالى - أبقى له الخاصية، وإن شاء سلبها مع بقاء جوهرها ليس لذوات الخواص تأثير، بل الخاصية خلقه تعالى، والجوهر خلقه، وإنما القدرة هي المؤثرة في كلها قاله ابن أبي جمرة. وأمّا النهران الباطنان في الجنة فقال مقاتل: هما السلسبيل والكوثر.

فائدة: أخرج أبو نعيم والضياء عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «**لعلكم تظنون أن لأنهار الجنة أخدودًا في الأرض، لا والله إنها السائحة على وجه الأرض**»[1] انتهى.

والأخدود: شق في الأرض مستطيل، وقوله: وإذا نبقها مثل قلال هجر. فنَبقها - بفتح النون وكسر الموحدة - وهذا هو الذي ثبت في الرواية وإن جاز سكون الموحدة، والنبق معروف وهو ثمر السدر، والقلال - بالكسر - جمع قُلة بالضم وهي: الجرار الواحدة تسع قربتين أو أكثر، وهجر - بفتح الهاء والجيم - بلدة بقرب المدينة الشريفة يريد أن ثمر السدرة في الكبر مثل القلال وكانت معروفة عند المخاطبين، وقوله: وإذا ورقها مثل آذان الفيلة - بكسر الفاء وفتح التحتية بعدها لام - جمع فيل، ولا منافاة بين ذلك وبين قوله: تكاد الورقة تغطي هذه الأمة؛ لأن المراد التشبيه في الشكل خاصة لا في الكبر، وقوله: في السدرة يغشاها فراش، وفي رواية: جراد من ذهب وهو المراد بالفراش. قال البيضاوي: ذكر الفراش والجراد وقع على سبيل التمثيل؛ لأن من شأن الشجر أن يسقط عليها الجراد وشبهه، وجعلها من الذهب لصفاء لونها وإضاءتها في نفسها. وقال الحافظ ابن حجر: يجوز أن يكون من الذهب حقيقة، ويخلق الله تعالى فيها الطيران والقدرة صالحة لذلك. انتهى.

تتمة: عدَّ بعضهم رفعه ﷺ إلى سدرة المنتهى معراجًا ثامنًا بالنسبة إلى السماوات السبع، وسأل عن حكمة هذا المعراج الثامن إلى سدرة المنتهى للسنة الثامنة من الهجرة، وأجاب بأن وجه ذلك - والله أعلم - إن السنة الثامنة لمّا اشتملت على فتح مكة وهي أم القرى، وإليها المنتهى ومنها المبتدأ على ما ورد

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٥)، والديلمي في «الفردوس» (٣/ ٤٥٦).

أن الأرض كلها دحيت من مكة فلذلك سميت أم القرى أو هي أم القرى؛ لأن أهل القرى يرجعون إليها في الدين والدنيا جحا واعتمارًا وجوارًا وكسبًا واتجارًا، فبين سدرة المنتهى وأم القرى من المناسبة ما لا يخفى؛ إذ سدرة المنتهى ينتهي إليها علم الخلائق، ومكة ينتهي إليها أهل الآفاق شرقًا وغربًا وفيها يكون الاجتماع، فكان بلوغه إلى سدرة المنتهى تنبيهًا على بلوغه فتح مكة في العام الثامن، وقد غشيها الجراد أو الفراش الذي هو جند من جند الله كما غشي مكة في الفتح جند الله وحزبه، وغشيها أيضًا أجناس من الخلق وألوان من الأسود والأحمر كما غشي سدرة المنتهى ألوان لا يعلمها إلا الله تعالى، ولمَّا غشيت الألوان السدرة حسنت إلى ألّا يحسن أحد أن ينعتها لفرط الحسن، كما أن ألوان الخلق لها عشيت مكة يوم الفتح حسنت حينئذٍ بالإيمان وبأهل القرآن حتى لا يحسن أحد أن يصف حالها حينئذٍ من عظيم الشأن.

الوجه السادس والعشرون
في الكلام على رؤيته للجنة والنار

وما يتعلق بذلك قوله في القصة: ثم أخذ على الكوثر حتى دخل الجنة، قال الإمام العز بن عبد السلام في تفسيره في هذا الحديث: دليل على أن السدرة ليست في الجنة، وجزم به ابن أبي جمرة كما أشير إليه فيما سبق، وقال ابن دحية: ثم هنا ليست للترتيب كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧] وإنما هي مثل الواو للجمع والاشتراك، فهي بذلك خارجة عن أصلها.

قال ابن أقرس في «شرح الشفاء»: وهو خلاف الظاهر، وفي عرض الجنة ﷺ عليه كما قاله ابن دحية كرامة عظيمة؛ لأنه كان يعرض الجنة على أمته ليشتروها، كما قال عن ربه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] فأراد الله تعالى أن يعاين النبي ﷺ ما يعرضه على أمته؛ ليكون وصفه لها على مشاهدة.

ويحتمل أنه إنما أراه إياها ليعلم خسة الدنيا في جنب ما رآه، فيكون في الدنيا أزهد، وعلى الشدائد أصبر حتى يؤديه إلى الجنة.

ويحتمل أن الله تعالى أراد ألّا يكون لأحد كرامة إلا أن يكون لسيدنا ومولانا محمد مثلها، ولمّا كان لإدريس كرامة دخول الجنة قبل يوم القيامة أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون لصفيه وحبيبه سيدنا ومولانا محمد ﷺ، وقوله في القصة: فرأى على بابها؛ يعني: الجنة مكتوبًا الصدقة بعشرة أمثالها، والقرض بثمانية عشر.

قال بعض العلماء في توجيه كون درهم القرض بثمانية عشر: إن درهم القرض بدرهمين من دراهم الصدقة كما ورد، ودرهم الصدقة بعشرة، ودرهم القرض يرجع للمقرض بدله وهو بدرهمين من جملة مبلغ أصله وهو عشرون يتأخر للمقرض ثمانية عشر، وفي هذا مع قوله ﷺ: **«يَا جِبْرِيلُ مَا بَالُ الْقَرْضِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ؟ قَالَ: لأَنَّ السَّائِلَ يَسْأَلُ وَعِنْدَهُ، وَالْمُسْتَقْرِضُ لَا يَسْتَقْرِضُ إِلَّا مِنْ حَاجَةٍ»**[1] دليل على أفضلية القرض على الصدقة، لكن رجح كثيرون الصدقة عليه لما ورد في الصدقة من الدلائل الكثيرة المشهورة.

قوله: وإذا فيها؛ يعني: الجنة جنابذ اللؤلؤ - بجيم ونون مفتوحتين ثم ألف ثم باء ثم ذال معجمة - وهي القباب وهي المعروفة، وقوله: وإذا رمانها كالدلاء هو جمع دلو، وقوله: وإذا بطيرها كالبخاتي هو جمع بختي، وقوله: ثم عرضت عليه النار إنما عرضت عليه كما قال ابن دحية: ليكون في القيامة إذا قال سائر الأنبياء: نفسي نفسي، ونبينا ﷺ يقول: أمتي أمتي، وذلك حين تسجر جهنم؛ لأنهم لم يروا قبل يوم القيامة شيئًا منها، فإذا رأوها جزعوا وكفت ألسنتهم عن الخطبة والشفاعة من هولها وشغلتهم عن أممهم، وهو ﷺ قد رأى جميع ذلك فلا يحصل له مثل ما حصل لهم ليقدر على الخطبة وهو المقام المحمود.

وإن الكفار لمّا كانوا يكذبونه ويؤذونه أشد الأذى أراه الله تعالى النار التي أعدها للمؤذين له المستخفين به، وبأمره تطييبًا لقلبه وتسكينًا لفؤاده، والإشارة في ذلك إلى تطييب قلبه في شأن أعدائه بالإهانة والانتقام، فأولى أن يطيب قلبه في شأن أوليائه بالشفاعة والإكرام، وليعلم منة الله عليه حسين أنقذهم منها ببركته وشفاعته، وقوله: رأى مالكًا خازن النار فبدأ النبي ﷺ ، قال السهيلي: لم يره

(١) رواه البيهقي في «الشعب» (٣/ ٢٨٥)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١١).

على الصورة التي يراه عليها المعذبون في الآخرة، ولو رآه على تلك الصورة ما استطاع أن ينظر إليه. قال الطيبي: إنما بدأ مالك السلام ليزيل ما استشعر من الخوف منه بخلاف سلامه على الأنبياء ابتداءً كما سبق. انتهى.

وقد وقع في رواية: إن النبي ﷺ بدأ مالكًا بالسلام، لكن الرواية الأولى أصح إسنادًا من هذه، ويحتمل أن يقال لورود هذه الرواية: إن النبي ﷺ رآه أكثر من مرة، ففي الأولى: بدأ مالك النبي ﷺ، وفي الثانية: بدأه النبي ﷺ.

الوجه السابع والعشرون
في الكلام على المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام

قوله في القصة: ثم عرج به حتى ظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام، فمستوى - بفتح الواو والتنوين - موضع مشرف وهو المصعد، وقيل: المكان المستوى. واللام في قوله: لمستوى للتعليل؛ أي: ارتفعت لاستعلاء مستوى، أو لرؤيته، أو لمطالعته.

ويحتمل أن تكون متعلقة بالمصدر؛ أي: ظهرت ظهورًا لمستوى.

ويحتمل أن تكون بمعنى إلى، وفي رواية بمستوى بالباء وهي ظرفية.

وصريف الأقلام - بفتح الصاد المهملة وكسر الراء وبالفاء - قال النووي وغيره: هو صوت حركتها وجريانها على المكتوب فيه من أقضية الله ووحيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ، أو ما شاء الله تعالى من ذلك أن يكتب ويرفع لما أراده من أمره وتدبيره، وفي ذلك حجة لأهل السنة في الإيمان بصحة كتابة الوحي، والمقادير في كتب الله من اللوح المحفوظ بالأقلام التي هو يعلم جنسها وكيفيتها على ما جاءت به الآيات في كتابه العزيز والأحاديث الصحيحة.

وما جاء من ذلك على ظاهره، لكن كيفية ذلك وصورته وجنسه مما لا يعلمه إلا الله تعالى، ومن أطلعه على شيء من ذلك من ملائكته ورسله وما يتأول هذا أو يحيله إلا ضعيف النظر والإيمان؛ إذ جاءت به الشريعة، ودليل المعقول لا يحيله، والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد حكمة من الله تعالى وإظهارًا لما يشاء من غيبه لمن يشاء من ملائكته وسائر خلقه، وإلا فهو غني عن الكتب والاستذكار سبحانه وتعالى، قاله القاضي عياض.

وقال ابن المنير: قد علم أن الأقلام، إنما تكتب الأقدار والمقدر المكتوب قديم، وإنما الكتابة حادثة. وجاءت الأخبار بأن اللوح المحفوظ فرغ من كتابته وجف القلم بما فيه قبل خلق السماوات والأرض، وإنما هذه الكتابة المجددة في صحف الملائكة كالفروع المنتسخة من الأصل، وفيها المحو والإثبات على ما ورد في الأثر. وأصل اللوح المحفوظ الذي انتسخ منه هو علم الغيب القديم في أزل القدم. وهو الذي لا محو فيه ولا إثبات حيث لا لوح ولا قلم.

قال القرطبي في «المفهم»: ولعل الأقلام الموصوفة هنا هي المعبّر عنها بالقلم المقسم به في قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ [القلم: ١] ويكون القلم هنا للجنس. فإن قلت: ما المناسبة بين هذا المعراج التاسع وبين العام التاسع من سني الهجرة؟

قلت: كان في العام التاسع غزوة تبوك. وفيها خرج النبي ﷺ من المدينة إلى الشام في العدد الذي لم يتم قبله مثله كان العدد فيها ثلاثين ألفًا وكانت الشقة بعيدة ولهذا لم يورّ فيها، بل أعلم الناس بتوجههم؛ ليكون تأهبهم بحسب ذلك، ومع هذا الاجتهاد في الاستعداد لم يلق النبي ﷺ فيها حربًا ولا افتتح بلدًا؛ وذلك لأن أجل فتوح الشام لم يكن حل بعد. فانفسخ العزم بالقدر وبجفاف القلم. ورجع النبي ﷺ إلى المدينة وعلى المسلمين الوقار والسكينة من غير اضطراب عند انصراف العزيمة. انتهى.

الوجه الثامن والعشرون
في الكلام على الرفرف والسحابة وما يتعلق بذلك

اعلم أن الإمام ابن المنير قال في كتابه «المقتفى في شرف المصطفى»: إن سني الهجرة العشرة بحملتها مطابقة للمعاريج التي كاتت ليلة الإسراء ومقابلة لها بالمناسبة. وقد كانت المعارج عشرًا على عدد سني الهجرة:

منها: سبعة معاريج إلى السماوات السبع، **والثامن**: إلى سدرة المنتهى. **والتاسع**: إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام في تصاريف الأقدار. **والعاشر**: إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب وهو حقيقة اللقاء، ولهذا ختمت سني الهجرة العشرة بالوفاة وهي لقاء الحق ﷻ كما ختمت معاريج

الإسراء باللقاء والحضور بحضرة القدس على ما تقدم الكلام عليه في الحديث التام.

ثم إنه ذكر مناسبة لقيه لكل نبي في السماء الذي هو فيها إلى انتهاء السماوات، ثم ذكر ماسبة المعراح الثامن وهو سدرة المنتهى إلى السنة الثامنة، ثم مناسبة المعراج التاسع وهو المستوى إلى السنة التاسعة، وقد أشرنا إلى شيء من ذلك من كلامه وكلام غيره، ثم قال: المعراج العاشر إلى الرفرف وحينئذ لقي الله ﷺ بحضرة القدس، وقام بقيام الأنس ورفع الحجاب وسمع الخطاب، وكان قاب قوسين أو أدنى لا بالصورة ولكن بالمعنى[١].

والمناسبة بين هذا المعراج العاشر وبين العام العاشر من سني الهجرة أمر بيّن واضح؛ إذ اجتمع في هذا العام اللقاءان اللذان **أحدهما**: لقاء البيت، وحج الكعبة، ووقوف عرفة، وإكمال الدين، وإتمام النعمة على المسلمين.

واللقاء الثاني: لقاء رب البيت، وكانت فيه الوفاة واللقاء، والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصدق، وإلى الموعد الحق، وإلى الوسيلة وهي المنزلة الرفيعة التي لا تنبغي إلا لعبد واحد اختاره الله على خلقه وهو سيدنا ومولانا محمد ﷺ كما ورد في صحيح الخبر: إنه سئل عن الوسيلة وهي المنزلة الرفيعة التي لا تنبغي إلا لعبد واحد من عباد الله، وأرجو أن يكون أنا ورجاؤه ﷺ محقق وأمله مصدق وخاطره موفق. انتهى.

قوله: إن المعراج العاشر إلى العرش والرفرف... إلخ في ذكر عروجه إلى العرش نظر؛ لأنه لم يرد في أحاديث المعراج الثابتة أنه ﷺ عرج به إلى العرش تلك الليلة، بل لم يرد في حديث أنه ﷺ جاوز سدرة المنتهى، بل انتهى إليها.

وفي بعض الأحاديث لم يذكر السدرة، بل ذكر فيها أنه انتهى إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام فقط، وأمّا الرفرف فيحتمل أن المراد به السحابة التي غشيته وفيها من كل لون التي رواها ابن أبي حاتم عن أنس، وعندما غشيته تأخر عنه جبريل ﷺ، لكن ظاهر السياق والقصة تقتضي أنها قبل عروجه إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام، وصنيع تعداد ابن المنير للمعاريج يخالف ذلك.

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (٣/ ١١٦).

فلو جعل المعراج العاشر هو حضرة القدس التي حصل فيها اللقاء والمناجاة والرؤية وحذف العرش والرفرف لكان أولى لما ذكرنا.

تتمة لهذا الوجه:

وهو أنه سئل الشيخ الإمام رضيّ الدين القزويني - رحمه الله تعالى - عن وطء النبي ﷺ العرش بنعله، وقول الرب ﷻ: «لقد شرف العرش بنعلك يا محمد» هل ثبت ذلك أم لا؟

فأجاب بما نصّه: أمّا حديث وطء النبي ﷺ العرش بنعله فليس بصحيح وليس بثابت، بل وصول النبي ﷺ إلى ذروة العرش لم يثبت في خبر صحيح ولا حسن ولا ثابت أصلاً، وإنما صح في الأخبار انتهاؤه إلى سدرة المنتهى فحسب. وأمّا إلى ما وراءها فلم يصح، وإنما ورد ذلك أخبار ضعيفة أو منكرة لا يعرج عليها، والله تعالى أعلم بالصواب.

وقد رأيت بخط بعض المحدثين بعد نقله كلام الشيخ رضيّ الدين - رحمه الله - ما نصّه ملخصًا: أقول ما ذكره الشيخ رضي الدين - رحمه الله - هو الصواب، وقد وردت قصة الإسراء والمعراج مطولة ومختصرة عن نحو أربعين صحابيًا، وليس في حديث أحد منهم أنه ﷺ كان تلك الليلة في رجله نعل، وإنما ذلك شيء وقع في نظم بعض القصاص الجهلة ولم يذكر العرش، بل قال: وأتى البساط، فهمّ بخلع نعله فنودي لا تخلع... إلخ.

وهذا باطل لم يذكر في شيء من الأحاديث بعد الاستقراء التام، ولم يرد في حديث صحيح ولا حسن ولا ضعيف أنه ﷺ جاوز سدرة المنتهى، بل انتهى إليها كما في أكثر أحاديث المعراج، وفي بعضها لم يذكر السدرة، بل ذكر فيها أنه انتهى إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام فقط، ومن ذكر أنه جاوز ذلك فعليه البيان وأنى له بذلك، ولم يرد في خبر ثابت ولا ضعيف أنه ﷺ رقى العرش، وما وقع في بعض الأحاديث المختلفة التي أفتراها بعضهم لا يلتفت إليه، ولا أعلم خبرًا ورد فيه أنه ﷺ رأى العرش إلا ما رواه ابن أبي الدنيا عن أبي المخارق أن رسول الله ﷺ قال: «**مَرَرْت لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، بِرَجُلٍ مُغَيَّبٍ فِي نُورِ الْعَرْشِ، قُلْت مَنْ هَذَا مَلَكٌ؟ قِيلَ: لَا، قُلْت نَبِيٌّ؟ قِيلَ: لَا، قُلْت: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ كَانَ**

فِي الدُّنْيَا لِسَانُهُ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَلَمْ يَسْتَسِبَّ لِوَالِدَيْهِ قَطُّ»[١]، وهو خبر مرسل لا تقوم به الحجة في هذا الباب، وما ذكر في السؤال؛ يعني: المتقدم من أنه ﷺ رقي العرش بنعله فقاتل الله من وضعه ما أعدم حياءه وأدبه، وما أجرأه على اختلاق الكذب على سيد المتأدبين ورأس العارفين ﷺ، والله تعالى أعلم بالصواب. انتهى ملخصًا.

الوجه التاسع والعشرون
في الكلام على ما وقع من الرؤية
والمناجاة، والكلام، وفرض الصلاة

وما وقع من المراجعة فيها قوله في القصة: فرأى ربه فيه دليل على وقوع الرؤية له تلك الليلة ﷺ، وقد روى الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**رَأَيْتُ رَبِّي** ﷻ»[٢].

وقد اختلف السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم في رؤيته ﷺ لربه ليلة المعراج ببصره، فنفت ذلك عائشة وذهبت إلى أنه إنما رآه بقلبه وهو المشهور عن ابن مسعود، وجاء مثله عن أبي هريرة وإليه ذهب كثير من المحدثين والمتكلمين، وذهب ابن عباس إلى أنه رآه ببصره، وبه قال سائر أصحاب ابن عباس، وبه جزم كعب الأحبار والزهري وصاحبه معمر وآخرون.

وحكي عن الحسن: إنه كان يحلف أن سيدنا ومولانا محمدا ﷺ رأى ربه، وبه قال الشيخ أبو الحسن الأشعري وسائر أتباعه، وقال الإمام النووي: الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة المعراج، وبسط الكلام على ذلك، وقال هو وغيره: لم تنف عائشة الرؤية بحديث مرفوع ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرت من ظاهر الآية، وقد خالفها غيرها من الصحابة.

والصحابي إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن ذلك حجة اتفاقًا، وقد خالف عائشة ابن عباس وغيره كما تقدم، بل أخرج الطبراني بسند صحيح عن

(١) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٢٥٣).
(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٦/ ١٥٧).

ابن عباس: إنه كان يقول: نظر سيدنا ومولانا محمد إلى ربه مرتين: مرة ببصره ومرة بفؤاده، وقد تعقب قولهم أنها لم تنف ذلك بحديث مرفوع. . . . إلى آخره بأن ذلك عجيب.

فقد أخرج مسلم في «صحيحه» عن مسروق أنه لمّا قال لعائشة ألم يقل الله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ١٣] فقالت له: أنا أوّل من سأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: إنما هو جبريل، وأخرجه ابن مردويه أيضا عن مسروق أنها قالت له: أنا أوّل من سأل رسول الله ﷺ عن هذا فقلت: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: إنما رأيت جبريل منهبطًا، لكن التقي السبكي لما نقل في تفسيره عند قوله ما كذب الفؤاد ما رأى قول ابن عطية أن حديث عائشة عن النبي ﷺ قاطع لكل تأويل في اللفظ؛ لأن قول غيرها إنما هو منتزع من ألفاظ القرآن نظر السبكي في حديثها المخرج في مسلم المذكور آنفًا بأنه إن كان سؤالها؛ يعني: عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ١٣] فليس مما نحن فيه، وجائز أن يكون ذاك جبريل هذا، وإن كان عن الآيتين فيقرب مما قاله ابن عطية، والاحتمال الحاصل فيما سألت عنه ليس في لفظها صراحة بذكره.

ثم قال السبكي في آخر كلامه بعد أن نقل كلام النووي السابق: وقد قدمنا عن عائشة حديثًا في مسلم، وتمسك به ابن عطية وأبدينا فيه احتمالاً، فلذلك يستمر ما ادّعاه هؤلاء الأئمة من أن عائشة لم تذكر فيه نصًا، وبان بهذا أن الراجح في تفسير الآية: إن الرؤية بالبصر، وإنها لله تعالى. انتهى.

وذهب جماعة إلى الوقف في هذه المسألة، ولم يجزموا بنفي ولا إثبات لتعارض الأدلة، ورجح ذلك الإمام أبو العباس القرطبي في المفهم، وعزاه لجماعة من المحققين وقوّاه بأنه ليس في الباب دليل قاطع وغالب ما يستدل به الطائفتان ظواهر متعارضة قابلة للتأويل، قال: وليست المسألة من العمليات، فيكتفي فيها بالأدلة الظنية، وإنما هي من المعتقدات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي.

وقال التقي السبكي - رحمه الله تعالى - في «السيف المسلول»: ليس من شرطه أن يكون قاطعًا متواترًا، بل متى كان حديثًا صحيحًا ولو ظاهرًا، وهو من رواية الآحاد جاز له أن يعتمد عليه في ذلك؛ لأن ذلك ليس من مسائل الاعتقاد التي يشترط فيها القطع على أنّا لسنا مكلفين بذلك. انتهى.

تنبيهان:

الأول منهما: قال الحافظ ابن حجر: المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب لا مجرد حصول العلم؛ لأنه ﷺ كان عالمًا بالله على الدوام، بل مراد من أثبت أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه، كما تخلق الرؤية بالعين لغيره زاد بعضهم بخلاف غيره من الأولياء، فإنهم إذا أطلقوا الرؤية والمشاهدة لأنفسهم فإنما يريدون المعرفة فاعلمه، فإنه من الأمور المهمة التي يغلط فيها كثير من الناس. انتهى.

والرؤية لا يشترط فيها شيء مخصوص عقلاً ولو جرت العادة بخلقها في العين، قال الواحدي: وعلى القول بأنه رآه بقلبه جعل الله بصره في فؤاده، أو خلق لفؤاده بصرًا حتى رأى ربه رؤية صحيحة كما يرى بالعين. انتهى.

التنبيه الثاني: إن محل الخلاف الذي بين الصحابة في الرؤية إنما هو في وقوعها لا في إمكانها وجوازها، ومعاذ الله أن يختلفوا في إمكانها ومحاورتهم إنما كانت في الوقوع، واختلافهم في ذلك دليل على إجماعهم على جوازها.

قال القاضي عياض: رؤية الله ﷻ جائزة عقلاً في الدنيا، وثبتت الأخبار الصحيحة المشهورة بوقوعها للمؤمنين الآخرة، أمّا في الدنيا فقال مالك: إنما لم ير الله سبحانه وتعالى في الدنيا؛ لأنه باق والباقي لا يرى بالفاني، فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصارًا باقية رأوا الباقي بالباقي وهو كلام حسن مليح ليس فيه دليل على استحالة الرؤية إلا من حيث ضعف القوّة، فإذا قوى الله من شاء من عباده اقتدر على حمل أعباء الرؤية في أي وقت كان ولا مانع من ذلك وهو الحق، كما أن النبي ﷺ كان يرى جبريل والصحابة عنده لا يرونه لقوّة التي أمدّه الله بها دونهم.

قال الحافظ ابن حجر: ووقع في «صحيح» مسلم ما يؤيد هذه التفرقة بين

الدنيا والآخرة في حديث مرفوع فيه: واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا، وأخرجه أيضًا ابن خزيمة من طريقين، فإذا جازت الرؤية في الدنيا عقلاً فقد امتنعت سمعًا، لكن من أثبتها للنبي ﷺ له أن يقول: إن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه، ومع القول بجوازها في الدنيا لم تحصل لبشر غير نبينا ﷺ عى ما في ذلك من الخلاف، ومن ادّعاها غيره في الدنيا يقظة فهو ضال، بل قال الإمام الكواشي في تفسير سورة النجم: ومعتقد رؤية الله تعالى هنا بالعين لغير سيدنا ومولانا محمد ﷺ غير مسلم، وقال الأردبيلي في «الأنوار»: فلو قال: إني أرى الله عيانًا في الدنيا ويكلمني شفاهًا كفر. انتهى.

ونقل عن المهدوي الممسر: إنه كفر مدّعي الرؤية هنا، وقد نقل جماعة الإجماع على أنها لا تحصل للأولياء في الدنيا، قال الشيخان أبو عمرو بن الصلاح وأبو شامة: إنه لا يصدق مدّعي الرؤية في الدنيا يقظة، فإن شيئًا منع منه كليم الله تعالى موسى ﷺ، واختلف في حصوله لنبينا ﷺ كيف يسمح به لمن لم يصل لمقامهما مما لا يتوقف فيه أنه لا يحصل لآحاد الناس؟

وقال الشيخ أبو بكر الكلاباذي في «التعرف»: إن المشايخ أطبقوا على تضليل مدّعيها؛ يعني: الرؤية في الدنيا وتكذيبه، وصنّفوا في ذلك كتبًا ورسائل، وزعموا أن من ادّعى ذلك لم يعرف الله تعالى، وأقره العلاء القونوي في شرحه على ذلك، وقال: وإن صحّ عن أحد من المعتبرين وقوع ذلك فيمكن تأويله؛ وذلك لأن غلبات الأحوال تجعل الغائب كالشاهد حتى إذا كثر اشتغال السر بشيء، واستحضاره له يصير كأنه حاضر بين يديه، وهذا معلوم لكل أحد، وعلى هذا يحمل ما نقل عن ابن عمر رضي الله عنهما: إنه كان يطوف حول البيت فسلم عليه إنسان فلم يرد عليه، فشكاه إلى عمر رضي الله عنه فقال: **«كنا نتراءى الله في ذلك المكان»**، وهذا يدل على أنه قد يتفق ذلك في زمان دون زمان، ومكان دون مكان.

وأمّا في الآخرة: فقد دل الكتاب والسنة على حصول الرؤية للمؤمنين فيها؛ لأنه يزول الضعف عن حواسهم فسيرونه، أمّا الكفار فلا يرونه وكذا سائر الحيوانات، وقد اختلف في رؤية الله تعالى في المنام، فمعظم المثبتين للرؤية على جوازها من غير كيفية وجهة، ونقل بعضهم عن النووي أنه قال: قال القاضي

عياض: اتفق العلماء على جواز رؤية الله تعالى في المنام وصحتها، وإن رآه الإنسان على صفة لا تليق بجلاله من صفات الأجسام؛ لأن ذلك المرئي غير ذات الله تعالى؛ إذ لا يجوز عليه سبحانه التجسيم ولا اختلاف الأحوال بخلاف رؤية النبي ﷺ في المنام، فرؤيته تعالى كسائر أنواع الرؤيا من التمثيل والتخييل، وقال بعض المحققين: إن ذكر رؤية المنام في مباحث الرؤية استطرادي؛ لأن رؤيا المنام نوع مشاهدة بالقلب دون العين. انتهى.

وحكي عن كثير من السلف: أنهم رأوه ﷻ في المنام، فنقل عن الإمام أحمد بن حنبل ﷺ أنه قال: رأيت رب العزة في المنام فقلت: يا رب بم يتقرب المتقربون إليك؟ قال: بكلامي يا أحمد، قلت: يا رب بفهم وبغير فهم، قال: بفهم وبغير فهم. فهذا يدل على أن مذهب الإمام أحمد الحواز، ونقل أن الإمام أبا حنيفة ﷺ قال: رأيت رب العزة في المنام تسعًا وتسعين مرة، فقلت في نفسي: إن رأيته تبارك وتعالى تمام المائة لأسألن منه بمَ ينجو الخلائق من عذابه يوم القيامة، قال: فرأيته سبحانه وتعالى فقلت: يا رب عز جارك وجل ثناؤك وتقدّست أسماؤك بم ينجو عبادك يوم القيامة من عذابك؟ فقال سبحانه وتعالى: من قال: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] سبحان الأبدي الأبد سبحان الواحد الأحد، سبحان الفرد الصمد، سبحان رافع السماء بغير عمد، سبحان من بسط الأرض على الماء فحمد، سبحان من خلق الخلق فأحصاهم عدد، سبحان من قسم الرزق ولم ينس أحد، سبحان الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولد، سبحان الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣، ٤] نجا من عذابي نقل ذلك صاحب «مجمع الأحباب» في آخر ترجمته عن بعض الكتب.

وعن الترمذي الحكيم وهو من مشايخ «الرسالة القشيرية» قال: رأيت الله تعالى في المنام مرارًا فقلت له: يا رب أني أخاف زوال الإيمان، فأمرني بهذا الدعاء بين سنة الصبح والفريضة إحدى وأربعين مرة وهو: هذا يا حي يا قيوم يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا الله لا إله إلا أنت أسألك أن تحيي قلبي بنور معرفتك، يا الله يا أرحم الراحمين.

وعن الإمام أبي العباس بن سريج الباز الأشهب: أنه رآه في مرض موته في منامه كان القيامة قد قامت، وإذا الجبار سبحانه وتعالى يقول: أين العلماء؟ فجاءوا، فقال: ماذا عملتم فيما علمتم؟ قال: فقلنا: قصّرنا وأسأنا، فأعاد السؤال كأنه لم يرض بذلك الجواب وأراد جوابًا آخر، فقلت: أمّا أنا فليس في صحيفتي الشرك، وقد وعدت أن تغفر ما دونه، فقال: اذهبوا فقد غفرت لكم. ومات بعد ذلك بثلاث ليال. والمنامات في ذلك كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله في القصة: وكلّمه ربه إلى أن قال: جعلتك أوّل النبي ﷺ ين وآخرهم بعثًا، ووقع في بعض الروايات: وجعلتك فاتحًا وخاتمًا، قال بعضهم: فإن قلت: ما الفرق بين هذا وبين قوله: وجعلتك أوّل النبيين خلقًا وآخرهم بعثًا؟

قلت: الفاتح والخاتم أعم من هذا؛ إذ يصدق بأنه فاتح كل خير وخاتمه، فيندرج فيه هذا بهذا المعنى، وأوّل من جهة الخلق خاص. وكذلك كونه آخرهم من جهة البعث فتأمل. انتهى.

وقوله: وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش. . . إلخ، فإن قيل: المعراج كان بمكة ونزول الآية بالمدينة، فيجاب بما قاله بعضهم: ليس المراد بقوله: أعطى أنها نزلت عليه، بل المعنى: إنه استجيب له فيما لقن في الآيتين من قوله تعالى: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلخ، ولمن يقوم بحقهما من السائلين. انتهى.

أو المراد أنه أعطاه ما سينزل عليه بعد ذلك، وقوله: فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك، وفي رواية: وأعطى رسول الله ﷺ الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئًا المقحمات، وفي رواية أنس عن أبي ذر: فرض الله على أمتي خمسين صلاة، وفي رواية ثابت عن أنس: فرض الله عليّ خمسين صلاة كل يوم وليلة، فيحتمل أن يقال في كل من هاتين الروايتين اختصار، ويؤيده قوله في الرواية المتقدمة: إني فرضت عليك وعلى أمتك. . . إلخ، أو يقال: ذكر الفرض عليه يستلزم ذكر

الفرض على الأمة وبالعكس إلا ما يستثنى من خصائصه[١].

وفي ذلك إشارة إلى عظيم شأن الصلوات لكون فرضها كان مختصًا بليلة الإسراء، والاختصاص فرضها بكونه بغير واسطة، بل بمراجعات أعددت.

والحكمة في تخصيص فرضي الصلاة بليلة الإسراء: إنه ﷺ لمّا عرج به رأي تلك الليلة تعبد الملائكة منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع الله له ولأمته تلك العبادات في ركعة واحدة يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص.

وفي فرضها في تلك الليلة كما قال السهيلي: التنبيه على فضلها حيث لم تفرض إلا في الحضرة المقدسة المطهرة، ولذلك كانت الطهارة من شأنها ومن شرائطها، والتنبيه على أنها مناجاة الرب، وأن الرب تبارك وتعالى يقبل بوجهه على المصلي يناجيه ويقول: حمدني عبدي أثنى عليّ عبدي... إلى آخر السورة وهو المشاكل بفرضها عليه فوق السماء السابعة حين سمع كلام الرب وناجاه ولم يعرج به حتى طهر ظاهره وباطنه بماء زمزم كما يتطهر المصلي للصلاة، وأخرج عن الدنيا بجسده كما يخرج المصلي عن الدنيا بقلبه، ويحرم عليه كل شيء إلا مناجاة ربه، وتوجهه إلى قبلته في ذلك الحين وهو بيت المقدس.

ورفع إلى السماء كما يرفع المصلي يديه: إشارة إلى القبلة العليا وهو البيت المعمور، وإلى جهة عرش من يناجيه ويصلي له سبحانه وتعالى قوله في القصة: فأتى على إبراهيم فلم يقل شيئًا، ثم أتى على موسى قال: ونعم الصاحب كان لكم، قال: ما صنعت... إلخ.

قال ابن أبي جمرة: الحكمة في كون إبراهيم ﷺ لم يكلم رسول الله ﷺ في طلب التخفيف: إن مقام الخلة إنما هو الرضا والتسليم، والكلام في هذا المقام ينافي ذلك المقام، وموسى هو الكليم، ومقامه مقام الإدلال والانبساط، ومن ثم استبد بأمر النبي ﷺ بطلب التخفيف دون إبراهيم مع أن النبي ﷺ من الاختصاص بإبراهيم أزيد مما له من موسى لمقام الأبوة ورفعة المنزلة والاتباع في الملة.

وقال القرطبي: وأمّا قول من قال: إنه أوّل من لاقاه بعد الهبوط فليس

(١) انظر: الخصائص الكبرى (١/٢٧٦).

بصحيح؛ لأن حديث مالك بن صعصعة: إنه رآه في السادسة وإبراهيم في السابعة، وهو أقوى إسنادًا من حديث شريك الذي فيه: إنه رأى موسى في السابعة، قال الحافظ ابن حجر: وإذا جمعنا بينهما بأنه لقيه في الصعود في السادسة، وصعد موسى إلى السابعة فلقيه فيها بعد الهبوط ارتفع الإشكال وبطل الرد، وقال القرطبي: الحكمة في تخصيص موسى ﷺ بمراجعة النبي ﷺ في أمر الصلاة: لعلها لكون أمة موسى كانت بالصلاة ما لم يكلف بها غيرها من الأمم، فنقلت عليهم فأشفق موسى ﷺ على أمة سيدنا ومولانا محمد مثل ذلك، ويشير إليه: إني قد حبرت الناس قبلك. انتهى.

قال السهيلي: اعتنى موسى ﷺ بهذه الأمة، وإلحاحه على نبيها أن يشفع لها ويسأل التخفيف عنها؛ لأن الله تعالى لمّا قضى إليه بجانب الغربي، ورأى صفات أمة سيدنا ومولانا محمد في الألواح، وجعل يقول: إني أجد في الألواح أمة صفتهم كذا وكذا اللهم اجعلهم أمتي، فيقول: تلك أمة محمد ﷺ، فقال: اللهم اجعلني من أمة محمد ﷺ، وهو حديث مشهور في التفاسير، فكان إشفاقه عليهم واعتناؤه بأمرهم كما يعتني بالقوم من هو منهم بقوله: اللهم اجعلني منهم. انتهى.

وفي قول موسى ﷺ: فإن أمتك لا تطيق دلك. . . . إلخ: دليل على جواز الحكم بما أجرى الله تعالى بحكمته من ارتباط العوائد؛ لأن موسى ﷺ حكم على هذه الأمة بأنها لا تطيق بسبب ما اختبر به وهو أنه عالج بني إسرائيل ومن تقدم أقوى وأجلد ممن يأتي بعد، فرأى موسى أن ما لم يحمله القوي فمن باب أولى ألّا يحمله الضعيف بعد، فحكم بأمر الحكمة في ارتباط العادة مع أن القدرة صالحة؛ لأن يحمل الضعيف ما لا يحمل القوي.

وقد ورد أن الصلاة التي كلف بها بنو إسرائيل ركعتان بالغداة، وركعتان بالعشي، وقيل: وركعتان عند الزوال، ومع هذا لم يقوموا بذلك، فمن ثم استكثر الخمس لأمة سيدنا ومولانا محمد ﷺ وأشفق عليهم من التخلف عن القيام بواجبها، فطلب السؤال في تقليلها، وقد وقع في هذه الأمة أن كثيرًا منهم يغلب عليه التفريط في الصلاة الخمس، وإن كثيرًا من المصلين مفرط في الشروط غير

موف بالحقوق. وكان ذلك من آثار فراسة موسى ﷺ فيهم؛ لأنه قال للنبي ﷺ وقد رجع الفرض إلى الخمس: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، ولم يردّ النبي ﷺ فراسة موسى، ولكن قال: استحيت، وفي بعض الطرق إنه قال: أرضى وأسلم.

وقوله عند سؤال التخفيف: قد وضعت منكم خمسًا كذا في رواية ثابت عن أنس. وفي رواية مالك بن صعصعة: عشرًا، وفي رواية شريك: وضع شطرها.

قال النووي: المراد بحط الشطر أنه حط في مرات بمراجعات فلا يخالف رواية ثابت، قال الحافظ ابن حجر: وكذا العشر، فكأنه وضع العشر في دفعتين، والشطر في خمس دفعات، أو المراد بالشطر هنا: البعض.

قال: وقد حققت رواية ثابت أن التخفيف كان خمسًا خمسًا. وهي رواية معتمدة يتعين حمل باقي الروايات عليها خصوصًا وقد أيدها روايات أخر. قال بعضهم: دلّت مراجعته ﷺ في طلب التخفيف تلك المرات كلها أنه علم أن الأمر في كل مرة لم يكن على سبيل الإلزام بخلاف المرة الأخيرة ففيها ما يشعر بذلك لقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩].

وفي رواية: إنه قال: فعرفت أنها عزمة من الله، فرجعت إلى موسى فقال لي: ارجع فلم أرجع. وقيل: إنما امتنع النبي ﷺ من طلب التخفيف في المرة العاشرة؛ لأنه ﷺ تفرس أن هذا العدد لا يحط منه. فاستحيا أن يسأل في مظنة الرد. ووجه التفرس: إن الله تعالى أدرج التخفيف خمسًا خمسًا. فلو سأل التحفيف بعد أن صارت خمسًا لكان سائلاً في رفعها، وفي رفعها ارتفاع الصلاة بجملتها، وقد علم أنه لا بُدّ من وظيفة فلهذا ترك السؤال، وكشف الغيب أن العلم القديم قد تعلق ببقاء هذه الخمس، ولهذا بقيت فصدقت الفراسة وأصابت الفكرة.

وفي ذلك دليل على أن الله تعالى إذا أراد إسعاد عبد جعل اختياره في مرضاة ربه؛ لأن النبي ﷺ جعل الله اختياره وإيثاره فيما أراد الحق تبارك وتعالى إنفاذه وإمضاءه وهو فرض الصلوات الخمس، وذلك تكريم له ﷺ وترفيع؛ لأنه لو رجع وطلب التخفيف فلم يخفف كما خفف أولاً لكان اختياره مخالفًا للمقدور. فلمّا أن اختار وأسعف في اختياره كان دليلاً على ما استدللنا عليه وعلى علو منزلته ﷺ.

وفيه دليل للصوفية حيث يقولون: إن الحال حامل لا محمول؛ لأن النبي ﷺ لمَّا أن ورد عليه حال الإشفاق على أمته بادر إلى طلب التخفيف عنهم ولم ينظر لغير ذلك، ثم لمّا ورد عليه الحياء من الله تعالى لم يلتفت لأمته؛ إذ ذاك ولا طلب شيئًا.

وقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٩] إن قيل: ألم يبدل القول حيث جعل الخمسين خمسًا؟ فأجيب بأن معناه لا تبدل الإخبارات؛ لأنه تعالى إذا أخبر عن حكم أنه مؤبدًا استحال التبديل والنسخ حينئذٍ لأجل العلم، وقد أخبر الله تعالى أنه أمضى الفريضة؛ أي: أبدلها وجعل ثواب الخمس الخمسين فلا يبدل هذا الخبر ولا يتوقع النسخ بعد ذلك، أمّا التكليفات: فإنها تبدل وتنسخ كما نسخ الخمسين إلى خمس، أو لا يبدل القضاء المبرم لا القضاء المعلق الذي يمحو الله ما يشاء ويثبت، أو معناه لا يبدل القول بعد ذلك.

وقد استدل بتخفيف الخمسين إلى خمس على جواز النسخ قبل التمكن من الفعل، وقبل دخول الوقت كما هو مذهب أهل السنة خلافًا للمعتزلة، وقوله: وغفر لمن لم يشرك بالله شيئا من أمته المُقْحِمات - هي بضم الميم وسكون القاف وكسر الحاء - الذنوب العظام الكبائر التي تهلك أصحابها وتقودهم إلى النار، والتقحم: والوقوع في المهالك.

قال النووي: والمراد بغفرانها أنه لا يخلد في النار بخلاف المشركين، وليس المراد به: إنه لا يعذب أصلاً، وقد علم من نصوص الشرع وإجماع أهل السنة إثبات عذاب العصاة من الموحدين، وقوله في القصة: فلمّا جاوزت نادى مناد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي من أقوى ما استدل به على أن الله تبارك وتعالى كلّم نبيه ﷺ ليلة الإسراء بغير واسطة، قال ابن دحية: خصَّ رسول الله بالرؤية والمكالمة؛ لأنه صاحب الشفاعة في القيامة فبوسط قبلها لئلا تقع له حشمة البديهة كما يقع لغيره من الأنبياء، فأراد سبحانه وتعالى أن يزيل عنه قبل ذلك المقام الانقباض؛ ليتمكن من المقام المحمود وأهله سبحانه قبل المشهد الأهلي للمشاهدة والكلام، ثم رفعه إلى مكان لا مكان بعد مكانه، ولا مقام وراء مقامه؛ ليكون مشاهدًا للكل فيتفرغ في المشهد الأعلى، ويتمكن في المقام المحمود.

قال بعضهم: في هذه المراجعة التي وقعت بين موسى وبين النبي ﷺ فوائد:

* **منها**: تكرار الشفاعة في القصة الواحدة إلى أن يتم مقصود الشافع.
* **ومنها**: الرجوع إلى المشير الناصح.
* **ومنها**: إنه لا يمتنع من الشفاعة وإن كان داخلاً فيها... إلى غير ذلك من الفوائد.

ولبعض الذائقين كلام في هذا المقام بديع النظام سلك فيه مسلك أهل المحبة ولحظ مذهبهم، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٠] فقال: لمّا سأل موسى الرؤية فلم تحصل البغية بقي الشوق يقلقه والأمل يتملقله، فلمّا تحقق أن الحبيب منح الرؤية وفتح له باب المنية كثر السؤال عمّا جرى ليسعد برؤيته من قد رأى وردد في أمر الصلاة الحبيب؛ ليستفيد رؤية حبيب الحبيب، ولله در القائل الآخر:

وأستنشق الأرواح من نحو أرضكم ... لعلي أراكم أو أرى من يراكم

والقائل الآخر:

وإنما السر في موسى يردده ... ليجتلي حسن ليلي حين يشهده
يبدو سناها على وجه الرسول فيا ... لله در رسول حين أشهده

قوله في القصة: فلم يزل يرجع بين موسى وبين ربه، معناه: بين موضع مناجاة ربه، وكذلك قول موسى له: ارجع إلى ربك؛ أي: إلى موضع مناجاة ربك، فكان رجوعه من المكان الذي لقي فيه موسى إلى الموضع الذي رفعت فيه المناجاة والسؤال لربه، ولا يلزم من موضع السؤال أن يكون المسئول فيه أو يكون حائزًا له تعالى الله - جل وعلا - وتنزيهه عن الجهة والمكان، فرجوع النبي ﷺ إليه رجوع إلى السؤال فيه لشرف ذلك الموضع على غيره، كما كان الطور موضع سؤال موسى في الأرض، ومع انتهائه ﷺ تلك الليلة التي عرج به فيها إلى أن ظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام كان هو ونبي الله يونس إذ التقمه الحوت وذهب به في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر، سواء في القرب من الله تعالى لتعاليه تعالى وتنزيهه عن الجهة والمكان والتحيز والإحاطة.

وقد نقل القرطبي في «التذكرة» أن القاضي أبا بكر بن العربي المالكي ذكر قال: أخبرني غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك ابن عبد الله بن يوسف الجويني أنه سُئل هل البارى في جهة؟ فقال: لا، هو متعال عن ذلك، قيل له: ما الدليل عليه؟ قال: الدليل عليه قول النبي ﷺ «**لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى**»[1]، فقيل له: ما وجه الدليل من هذا الخبر؟ فقالا: لا أقوله حتى يأخذ ضيفي هذا ألف دينار يقضي بها دينًا عليه، فقام رجلان فقالا: هي علينا، فقال: لا يتبع بها اثنين؛ لأنه يشق عليه، فقال واحد: هي عليّ، فقال: إن يونس بن متى رمى نفسه في البحر فالتقمه الحوت وصار في قعر البحر في ظلمات ثلاث ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

كما أخبر الله تعالى عنه ولم يكن سيدنا ومولانا محمد حين جلس على الرفرف الأخضر، وارتقى به صعدًا حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه صريف الأقلام وناجاه ربه بما ناجاه، فأوحى إليه ما أوحى بأقرب إلى الله من يونس في ظلمة البحر، فالله سبحانه قريب من عباده يسمع دعاءهم لا يخفى عليه حالهم كيفما تصرفت من غير مسافة بينه وبينهم، فيسمع ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء تحت الأرض السفلى، كما يسمع ويرى تسبيح حملة العرش من فوق السماوات السبع **الَّذِي** ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الحشر: ٢٢] أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيءٍ عددًا.

الوجه الثلاثون
في الكلام على ما وقع له في رجوعه من الإسراء من شرب الماء وحبس الشمس له وغير ذلك

قال السهيلي: فإن قيل: كيف استباح النبي ﷺ شرب الماء الذي في القدح وهو ملك لغيره وأملاك الكفار لم تكن أبيحت يومئذٍ ولا دماؤهم؟ والجواب: إن العرب في الجاهلية كان في عرف العادة عندهم إباحة اللبن لابن السبيل فضلاً عن الماء، وكانوا يعهدون بذلك إلى رعاتهم، ويشترطون عليهم عند عقد

(١) ذكره المباركفوري في «التحفة» (٨/ ٤٢٩).

إجارتهم ألّا يمنعوا اللبن من أحد مرّ بهم. فكيف الماء وللحكم بالعرف في الشريعة أصول تشهد له؟ انتهى.

وذكر أئمتنا - رحمهم الله تعالى - في الخصائص: إنه أبيح له أخذ الطعام والشراب من مالكهما المحتاج إليهما إذا احتاج النبي ﷺ إليهما، وإنه يجب على صاحبهما البذل له ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقوله في القصة: وحبست عليه الشمس لمّا سألوه عن العير متى تجيء؟ قال: يوم الأربعاء، فجعلوا ينتظرونها وقد ولى النهار ولم تجئ، فدعا النبي ﷺ فزيد له في النهار ساعة. فقد رواه البيهقي وغيره، وأخرج الطبراني في «الأوسط» عن جابر: إن النبي ﷺ أمر الشمس أن تتأخر ساعة من النهار، فتأخرت ساعة من النهار.

وسنده حسن كما قاله الحافظ أبو الحسن الهيثمي في «مجمع الزوائد»، والحافظ ابن حجر في «فتح الباري» في باب قوله ﷺ: «**أُحِلَّتْ لَكُمُ الْغَنَائِمُ**»[1]. والحافظ أبو زرعة الولي العراقي في «شرح التقريب»، قال الحافظ ابن حجر: ولا يعارضه ما رواه أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس لم تحبس إلا ليوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس**»[2]. ووجه الجمع أن الحصر محمول على ما مضى من الأنبياء قبل نبينا ﷺ فلم تحبس الشمس إلا ليوشع بن نون، وليس فيه نفي أنها قد تحبس بعد ذلك لنبينا ﷺ انتهى.

وقد ورد أن الشمس ردّت عليه ﷺ بعد ما غربت، فروى الطبراني بأسانيد رجال بعضها ثقات عن أسماء بنت عميس قالت: إن رسول الله ﷺ صلّى الظهر بالصهباء، ثم أرسل عليًا في حاجة فرجع وقد صلّى النبي ﷺ العصر، فوضع رسول الله ﷺ رأسه في حجر عليّ، فنام فلم يحركه حتى غابت الشمس. فقال ﷺ: اللهم إن عبدك عليًّا احتبس بنفسه على نبيه فردّ عليه الشمس. قالت

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٢٢٠).
(٢) رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٣٤).

أسماء: فطلعت الشمس حتى وقعت على الجبال وعلى الأرض، وقام عَليّ فتوضأ وصلى العصر، ثم غابت وذلك بالصهباء بخيبر.

وفي لفظ آخر: كان ﷺ إذا نزل عليه الوحي يغشى عليه، فأنزل عليه الوحي يومًا وهو في حجر عَليّ فقال له النبي ﷺ **«صَلَّيْتَ الْعَصْرَ يَا عَلِيُّ؟ قَالَ: لا يَا رَسُولَ اللهِ، فَدَعَا اللَّهَ فَرَدَّ عَلَيْهِ الشَّمْسَ حَتَّى صَلَّى الْعَصْرَ، قَالَتْ: فَرَأَيْتُ الشَّمْسَ طَلَعَتْ بَعْدَمَا غَابَتْ»**[1]، والحديث رجاله موثقون وغالبهم من رجال الصحيح، وقد حسنه الحافظان الولي العراقي والجلال السيوطي ولا يلتفت لإيراد ابن الجوزي له في الموضوعات فقد خطأه الحفاظ في ذلك.

ومن فوائد طلوع الشمس بعد غروبها: إن الوقت يعود ومن ثم لمّا عادت صلى العصر أداء، بل عودها لم يكن إلا لذلك، ومثل ذلك ما لو تأخر غروبها عن وقته المعتاد، فإن الوقت باق كما في حبسها في قصة الإسراء لدخول العير كما تقدم، بل التأخير أولى ببقاء الوقت، قال ذلك ابن العماد في التعقبات، وقد صرّح القرطبي بذلك في «التذكرة» في باب ما يذكر الموت والآخرة، فقال: فلو لم يكن رجوع الشمس نافعًا، وإنه لا يتجدد الوقت لمّا ردها عليه. انتهى.

ووجهه بعضهم بأن الشمس لمّا عادت كأنها لم تغب، وقد وقع حبس الشمس كرامة لبعض أولياء هذه الأمة، فذكر ابن السبكي في «طبقاته»، واليافعي في «كفاية المعتقد» وغيرهما: إن مما استفاض قال اليافعي: وربما تواتر من كرامات الشيخ الكبير سيدي إسماعيل بن محمد الحضرمي شارح «المهذب» ـ رحمه الله تعالى ونفعنا ببركته ـ أنه قال يومًا لخادمه وهو في سفر: قل للشمس تقف حتى نصل إلى المنزل، وكان في مكان بعيد، وكان عادة أهل المدينة أنهم لا يفتحون بابها بعد الغروب لأحد أبدًا، فقال لها الخادم: قال لك الفقيه إسماعيل: قفي، فوقفت حتى بلغ مكانه، ثم قال للخادم: ما تطلق ذلك المحبوس، فأمرها الخادم بالغروب، فغربت وأظلم الليل في الحال، وهذا من باب ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ٣٩٥).

خاتمة

أخرج ابن مردويه عن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ منذ أسري به ريحه ريح عروس، وأطيب من ريح عروس، قال بعضهم: فقد كانت الرائحة الطيبة صفته ﷺ وإن لم يمس طيبًا، وروينا عن أنس قال: ما شممت ريحًا قط ولا عنبرًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ، وفي رواية البخاري: ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة النبي ﷺ ، وفي رواية الترمذي: ولا شممت مسكًا قط ولا عطرًا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ، وعن أنس قال: «**دخل علينا رسول الله ﷺ فَقَالَ عِنْدَنَا فَعَرِقَ وَجَاءَتْ أُمِّي بِقَارُورَةٍ فَجَعَلَتْ تَسْلُتُ الْعَرَقَ فِيهَا، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا الَّذِي تَصْنَعِينَ؟ قَالَتْ: هَذَا عَرَقُكَ نَجْعَلُهُ فِي طِيبِنَا وَهُوَ أَطْيَبُ الطِّيبِ**»[1] ورواه مسلم.

وروى أبو يعلى والطبراني قصة الذي استعان به ﷺ على تجهيز ابنته فلم يكن عنده شيء، فاستدعى بقارورة فسلت له فيها من عرقه، وقال: مرها فلتطيب به، وكانت إذا تطيبت به شم أهل المدينة ذلك الطيب فسموا بيت المطيبين. وقال جابر بن عبد الله: كان في رسول الله ﷺ خصال لم يكن يمر في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيب عرقه وعرقه. ولم يكن يمر بحجر إلا سجد له، رواه الدارمي والبيهقي وأبو نعيم، ولله در القائل:

ولو أن ركبًا يمموك[2] لقادهم ... نسيمك حتى يستدل به الركب

وعن أنس كان رسول الله ﷺ إذا مرّ في طريق من طرق المدينة وجدوا منه رائحة الطيب، قالوا: مرّ رسول الله ﷺ من هذا الطريق، رواه أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح، فنسأل الله أن يمدنا بمدد سيد المرسلين، وأن يجعلنا لأقواله وأفعاله من المتبعين ولسنته من المتمسكين، وأن يدخلنا في شفاعته، ويجعلنا تحت لوائه يوم الدين ﷺ، وجزاه عنّا أفضل ما جزا نبيًا عن أمته، ورضي الله عن آله وصحابته والتابعين وتابعيهم والأئمة المجتهدين وسائر علماء المسلمين، آمين.

---

(١) رواه مسلم (١٥/ ٣١٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٦/ ٢٦٤).

(٢) في رواية: أمموك.

خاتمة قصة المعراج

قال مؤلفه ـ تغمده الله بالرحمة والرضوان وأسكنه أعلى غرف الجنان ـ:
وكان الفراغ من تكملته عشية نهار الأربعاء سابع عشر شهر رجب الفرد سنة تسع وتسعين وتسعمائة أحسن الله تقضيها، وبارك في أيامها ولياليها، وجعل ذلك خالصًا لوجهه الكريم، موجبًا للفوز بجنات النعيم. انتهى.

تم الكتاب بحمد الله تعالى

فهرس المحتويات



ḤAŠIYAT ABĪ AL-BARAKĀT SĪDĪ AḤMAD AD-DARDĪR ‘ALĀ QIṢṢAT AL-MI‘RĀJ

BY

NAJMUDDIN AL-GHITI
(D.982H.)
AND
ABOU AL-BARAKAT SIDI AHMAD AD-DARDIR
(D.1201H.)

EDITED BY
AHMAD MUHAMMED AHMAD MAHMOUD

